المركز القومى للترجمة

شوشا جوبى

سر الضحكة

قصص رائعة من التراث الفارسى القديم



ترجمة: أميرة حسنى الجمال

مراجعة: فردوس عبد الحميد البهنساوى

2299

هذه المجموعة القصصية مقتبسة من تراث الفولكلور والقصص الخيالي الإيراني الثري، وهي تدور حول الحب والشوق والقَدَر وبراعة البشر والخسارة والنِعم. وعلى الرغم من أن مصادر هذه القصص قد ضاعَت، بفعل الزمن، فإن ذكراها لا زالت عالقة في وجدان الشعب الإيراني؛ يقصونها ويحفظونها عبر الأجيال من قبل القصاصين في الأسواق والتجمعات، حتى أصبحت معروفة ومشهورة على مستوى العالم بأسره، بفضل قصائد شعراء مثل الرومي والفردوسي. كما أن هذا القصص الخلاب يعكس رؤى ثقافية ونفسية عميقة؛ بما يطرحه من نماذج في السلوك والثقافة، وما يقدمه عن الأمراء والأميرات والدراويش والقديسين الذين يستطيعون القيام بالمعجزات، والعمالقة والجان وحيوانات التنين الأسطورية التي تنفخ ألسنة النيران، والأحصنة المجنحة، والسحرة بأعمالهم الخارقة.

سر الضحكة

قصص رائعة من التراث الفارسى القديم

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2299
- سر الضحكة: قصص رائعة من التراث الفارسى القديم
- شوشا جوبى
- أميرة حسنى الجمال
- فردوس عبد الحميد
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
The Secret of Laughter: Magical Tales from Classical Persia
By: Shusha Guppy

نشرت هذه الترجمة بالتعاون مع أي.بي. توريس لندن، والتي نشرت الطبعة الإنجليزية عام ٢٠٠٦ تحت عنوان "سر الضحكة: قصص رائعة من التراث الفارسي القديم"

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

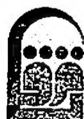
سر الضحكة

قصص رائعة
من التراث الفارسى القديم

تأليف : شــوشـا جـوبى

ترجمـة : أميرة حسنى الجمال

مراجعة : فردوس عبد الحميد البهنساوى



2014

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جويى؛ شوشا

سر الضحكة: قصص رائعة من التراث الفارسى القديم؛

تأليف: شوشا جويى؛ ترجمة: أميرة حسنى الجمال؛

مراجعة: فردوس عبد الحميد البهنساوى

القاهرة: المركز القومى للترجمة؛ ط١؛ ٢٠١٤

٢٩٢ ص؛ ٢٠ سم.

١- القصص الفارسية

(أ) الجمال، أميرة حسنى (مترجم)

(ب) البهنساوى، فردوس عبد الحميد (مراجعة)

(جـ) العنوان ٨٩١,٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٧٦٥٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-074-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

شكر خاص

حثنى صديق حكيم وكريم، يدعى تيد هيوز أن أقوم بكتابة هذه القصص ونشرها - قائلاً: "هذه القصص تعد حقًا جزءًا من التراث الروحى لإيران" - أثناء حديثنا عن كتابه. كما شجعنى جون لى فرمور كثيرًا وكان مصدرًا رائعًا لإلهامى. فأنا أدين بالفضل لكليهما وأعتز بصداقتهما. كما أود أن أشكر أستاذى باتريك لى فارمر وكلا من برجيت مرجر وجيرى جروغان ودكتور ليونارد ليوينسون، وأوجه الشكر بصفة خاصة إلى روبرت تشاندلر، وذلك لمواقفهم النبيلة معى. كما أتوجه بالمزيد من الشكر إلى جيلون أيتكون فقد كان دائمًا عونًا لى فضلاً عن عائشة كريم.

إهـــداء

"إلى زهرة في ذكراها وإلى إزابيلا ولوركان وإدموند"

تمهيد

"أغمض عينيك حتى يداهمك النعاس".

هكذا كانت تردد زهرة، بينما تمتد يدها لتغمض عينى وتمضى فى سرد القصة. فقد كانت هذه حيلة معروفة تلجأ إليها الأمهات، حتى يخلد الصغار إلى النوم وكن ينجحن بالفعل فى ذلك - حيث يستسلم بسرعة الطفل للنوم، بعد يوم طويل يعج بالنشاط فرحًا بوعد بقصة جديدة فى اليوم المقبل.

عندما كنت طفلة كانت زهرة - فتاة صغيرة - تقوم برعايتى. نزحت زهرة إلى بلدتنا من بلدان الشمال - مازانار المطلة على شاطئ كاسبين، وقد امتازت بحلو شمائلها؛ الأمر الذى عهده الإيرانيون فى النازحين من الشمال. أصبحت زهرة فردًا من أفراد العائلة حيث وفدت إلينا يتيمة فى الثانية عشرة من عمرها، وقد اعتادت ملازمتى عندما ولدت. اعتادت أن تتولى أمرى كأن أكون لعبتها المدللة. كنت أتعقبها أثناء النهار فى كل مكان أثناء أدائها المهام المسندة إليها. وفى البداية كانت تقوم بربطى بظهرها وعندما بدأت أحبو كنت أقتفى أثرها فى كل مكان.

وفى المساء كنت أستمع بشغف لقصصها حتى يغلبنى النعاس. فى إيران التى عهدتها بطفولتى، كانت هناك دائمًا راوية مفضلة بين نساء المنزل: الأم أو العمة أو الخالة أو زائرة كثيرة التردد على المنزل أو جليسة طفل. مهما كانت مهامهن أثناء النهار فعندما يأتى المساء يُنَحى هؤلاء النسوة مهامهن جانبًا، ويتوجهن إلى السحرة مستحضرات عالمًا مدهشًا، حيث كان الخيال فيه ملكًا متوجًا. وقد أذهلتنا وألهتنا تلك الحكايات التى كن يروينها عن الأمراء والأميرات واليتامى والمحرومين والمعدمين والجن والعمالقة والجياد المجنحة، والتنين الذى ينفث ألسنة نارية والقديسين الذين يُحدِثُون معجزات، والوحوش التى لا تُقهر. تلك القصص التى أثرت عقولنا وأرواحنا ومهدت لحياتنا المبدعة الخلاقة.

علمت ببعض هذه الحكايات لاحقًا، فهى ليست فقط مستوحاة من تراث الأدب الإيرانى، لكنها مأخوذة من القصص الخيالية التى تلقتها الأجيال عن طريق المشافهة وتتباين تفاصيلها ونهاياتها وفقًا لمزاج وموهبة الراوى بينما فقدت فى غياهب الماضى عهدتها.

استوحت بعض هذه القصص من الدواوين الشعرية للملحمة الفردوسية الشاهنامه - كتاب الملوك - ملحمة إيران القومية التى اعتاد الرواة ترصيعها بنصوص مقتبسة من شعراء فى موضع ذروة الأحداث. بينما استوحى البعض الآخر من قصص القديسين والدراويش، مثل العطار والرومى وبعض الشعراء الصوفيين الآخرين وأصحاب الرؤى الذين دأبوا على بث الحكمة والمبادئ والأخلاق الحميدة.

لكن حكايات الفولكلور والقصص الخيالية التى اعتادت زهرة أن ترويها لى، ولم أعتد قراءتها أبدًا فى أى مكان آخر. هل اخترعت زهرة هذه القصص؟ أم تلقتها عندما كانت صغيرة تقطن ببلدة "مازانداران"؟ وعندما سافرت إلى إيران لاحقًا : أجوب آفاقها بعد مرور عدة سنوات التقيت براو مخضرم "نقال" فى شيخات - مكان لاحتساء الشاى - بإحدى القرى النائية وكان هذا الراوى ذائع الصيت.

فقبل انتشار الراديو والسينما والتليفزيون، كان الرواة أحد أكثر الظواهر شيوعًا فى إيران وفى الأوساط القبلية. كان الراوى يتنقل بين القرى ويشتهر، ويصبح الراوى الأفضل فى منطقته. وعندما يصل إلى القرية يسرع الصبية لاستقباله هاتفين "جاءنا النقال!"..."وصل النقال!"... ويتبعه الجميع إلى وسط ميدان القرية. وكان دائمًا ما يرتدى زى الدرويش مصداقًا لكراماته ومكانته. فهو دائمًا ما يرتدى عباءة من الصوف وعمامة وإزارًا وإناء فى شكل سفينة يعلقه بحزامه ليجمع النقود. بينما يعج المكان بالزحام ويتهافت الجميع على الراوى، كل يرغب فى سماع قصته المفضلة؛ يبدأ الراوى بترتيل دعاء، وبعض أبيات الشعر مدحًا فى الله والرسول والإمام على[1] قبل البدء فى سرد تفاصيل القصة. وينفرد الراوى بعزف أوتار القصة بشكل مذهل؛ إذ يلعب جميع الأدوار فى المسرحية، فهو يلعب دور الذكر والأنثى، ودور الإنسان والحيوان مضفيًا رونقًا سحريًاعلى الجمهور، كأن يكون عازفًا للفيولين يعزف مقطوعة ستراتيفارياس. فتصدر عن الراوى إيماءات التعجب والحسرة

والخيال والاستحسان أو الإدانة. وتنهال الضحكات والعبرات من فرط التعاطف واحتفاءً بتأثيره على الجمهور. وعندما تصل الأحداث إلى ذروتها ويصبح الجمهور متشوقًا لمعرفة ما ستؤول إليه القصة، يتوقف على حين غرة الراوى ويسأل المستمعين الإسهام، وهنا تنهال عليه العملات من كل الاتجاهات لتستقر فى نحره ويلتقطها ببطء وشمم، ثم يعود ليستأنف القصة وتحل حبكتها حيث يلقى الشرير جزاءه ويلتقى الأحبة.

وللتأكيد على العبرة والعظة التى تطرحها القصة، فإن الراوى الناجح هو الذى يشد من أزر الشباب ويحذرهم من مخالب الدهر - الطمع والتعالى وضعف الإيمان - يؤكد عليهم ضرورة اليقين بالعناية الإلهية حيث إن الرحمن الرحيم(٢) حتمًا سينجيهم. فإن النجاة لا يحققها إلا الحب والرحمة وإنكار الذات والإيثار، والسعادة ما هى إلا مكافأة للفضيلة والصبر. كما أن هناك نظامًا أعلى للكون ونحن فى هذا النظام مجرد عابرى سبيل لا يمكن أن يدركوا، لكن الأمر يبرره معاناتنا ومآسينا. وقد يختم الراوى بنصوص قليلة من القصائد التراثية للحكيم سعدى أو الحافظ أو العطار أو القديس رومى ويعود الجميع من العرض إلى بيوتهم وقد حل بهم نور الحكمة.

وفى حال تعرض القرية لظروف الطقس السيئ يطرح الراوى عرض القصص فى "الشيخانة" بسوق القرية، وعادة ما يكون ذلك بدون مقابل بل مجرد رغبة فى تسلية الزبائن وإسعادهم. استمعت فى أحد الأيام إلى راوى المقهى بأصفهان يخبر بمأساة رستم البطل العظيم -

وشوراب نجله الوحيد[٢] الذى فقده منذ صغره، ولطالما أضناه البحث عنه. وقد اغرورقت عين الجماهير بالدموع بينما يسهب الراوى فى وصف شوراب الشاب الذى فاضت روحه متأثرًا بجراحه فى أحضان أبيه.

ويتذبذب منحنى الراوى فى السوق طبقًا للظروف، ويبدو أنه بعد اندلاع ثورة ١٩٧٩ عندما كان جل الاهتمام منصبًا على الهوية التاريخية أو القومية، وفى هذه الظروف اختفت تمامًا شخصية الراوى من المشهد وسارت المحافل الدينية والاحتفالات بدعوى تخليد ذكرى القديسين والشهداء. ولكن بالرغم من انتشار التلفاز والسينما والإنترنت إلا أن شخص الراوى قد عاد من جديد ليجوب الآفاق.

إذا كانت شخصية "الراوى"هو الرجل الذى يدعى "النقال" أو الشخصية العامة فى فارس. قد اشتهر بميله إلى صبغ قصصه بصبغة الملحمية والبطولة والأخلاق والفضيلة، أما فى البيوت فإن الراوية يكون أداؤها انعكاسًا لإبداعها ولما تتمتع به من مهارات تربوية. كما كن يتمتعن بقدر من الحرية فى صياغة أحداث قصص الفولكلور والقصص الخيالية وإعادة تشكيلها، وكان الغرض من ذلك هو تسلية وإثارة اهتمام المتلقى، ولا سيما إدخال أفكار ومعتقدات وعادات ضمن سياق القصة المطروحة. بينما حرمت المرأة الإيرانية من حقوقها السياسية ودورها الإدارى فى الحياة العامة، إلا إنها على المستوى الخاص داخل زمام المنزل كانت تقبض على زمام الأمور، فنساء فارس كن يدرن شئون

المنزل ويربين الصغار، وظهر أثرهن فى المجتمع من خلال أزواجهن وإخوانهن وأبنائهن، كما ظهر أثرهن على مجريات الأحداث والمجتمع فى المجمل. فقد كانت قصص الفولكلور والقصص الخيالية التى يروينها لصغارهن لها دورًا فى تنشئتهم، ولعبت دورًا ملموسًا فى تشكيل وجدانهم. إذ لم تكن الأمهات فى فارس مجرد أمهات يلدن الصغار للأمة، بل يُنشئن ويورثن تراث الأمة الثقافى. ويشرح علم النفس الحديث[٤] ذلك الدور الذى تلعبه قصص الفولكلور والقصص الخيالية؛ لما لها من أثر على الحياة العقلية والنفسية للأطفال، حيث أوضح ذلك فرويد: "فإن استرجاع الأطفال لقصصهم الخيالية المفضلة يشغل حيزًا من ذكريات الطفولة : حيث اعتادوا بث هذه القصص على شاشات ذاكرتهم[٥]."

اعتادت المرأة الفارسية فى مجتمعها المحافظ الذى يحظى فيه الرجل بالاهتمام الأكبر، ويتم التمييز فيه ضدها، فى ظل هذه الظروف اعتمدت المرأة على قوة شخصيتها ومواردها الداخلية، وقد ارتضت النسوة عدة استراتيجيات ليواجهن كل ذلك ويستمتعن بقدر من القوة والسلطة. وقد كان أحد هذه السبل الفعالة هو سرد القصص بعد صياغتها وتأليفها، وبما أن أغلب الأهالى كانوا أميين فقد اعتادوا أن يتداولوا هذه القصص عبر الأجيال من خلال المشافهة.

وبالمثل خلفت قصص الرومى والعطار والرواد الصوفية الأخرى تراثًا روحيًا للإيرانيين بعد دخول الإسلام إلى ربوع إيران. فقد عملوا على دمج حكمة الزورو والفلسفة، ومن التراث العبرى الدينى استلهموا

رؤية كونية تم تداولها عبر تأثير الشعر، فرستم البطل الذى لا يقهر الذى ارتعد أمامه أقوى المحاربين وانسحبوا نادبين سوء حظهم: وفى النهاية يلقى كلا الجيشين، لتكفير إثمه، السلاح حداداً على شوراب.

تروى ملحمة "الشاهنامه" تاريخ فارس بدءاً من الأساطير وصولاً إلى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى فى إطار أبيات شعرية، ذلك فى نهاية القرن العاشر وبداية القران الحادى عشر. تلك الملحمة التى صاغها الفردوسى - هوميروس فارس. وتبدأ الملحمة بسرد التاريخ بدء الخليقة ثم ظهور الحضارات - وتجلى الفنون - ثم سن القوانين والضرائب وإنشاء المؤسسات. وهنا ينبرى الشاعر مؤرخاً لتاريخ الأمة على مدى سلسلة مكونة من ثلاثين ملكاً وعهود حكمهم، ومن هنا يشتق اسم الكتاب. ويغزل الراوى خيوطاً فلسفية وعبراً أخلاقية وشروحا نثرية يعكسها تراث شعرى خالد.

تعكس العديد من القصص الواردة فى "كتاب الملوك" تلك الشخصيات المطروحة فى التراث الإغريقى والأساطير الهندية أيضاً المتأثرة بسابقتها الهندية والأوروبية. فعلى سبيل المثال جامشيد الملك الأسطورى الذى نسب إليه إرساء الحضارة واختراع الخمر، فتلك الاختراعات بالمثل نسبت إلى الإله الهندى ياما وإله الإغريق برومثيوث وباكاص. بينما رستم المحارب والبطل الأسطورى الذى لا يقهر يشبه إكشيليز. وهناك بعض القصص الأخرى التى تعيد إلى أذهاننا قصص الإلياذة والأوديسا.

إن سـرد التاريخ الأسطورى لفـارس القـديمـة وأهـلها، وقـد أصـبح الشاهنشـاه هو الرمز - لاسيما أنه الحـارس على الهوية القومية على مدى تاريخ إيران الطويل الحافل بالصراعات - حروب وغزوات وثورات وفترات انهيـار وأخطار الانقسام التى قد تطفو على سطح الأحـداث أو تغيب ولكن فى ظل شاهنامه فإن فكرة إيران وشعب إيران يكتب لها البقاء.

فمن التغنى بأشعار "كتاب الملوك" فى "زور خانة"-صالة الألعاب الرياضيـة- إلى دقات الطبول، بينما يمارس اللاعبون تمارينهم المعهودة والفنون القتالية ويحكون قصص الحكام الأكفاء والأبطال الشجعان فى المقـاهى والميـادين العـامـة، أولئك الذين يذكرون الإيرانيـين بتـاريخـهم وتراثهم. فـالأمـر يزيـد من شعورهم بالتـلاحم ومواصـلة السيـر على نفس الدرب.

إن نمط المرأة التى استطاعت من خـلال مـا للسـرد القصـصى من جاذبية ورونق، أن تنقذ حياتها وتغير مصيرها ومجريات الأحداث فى نموذج "شـهـرزاد" بطلة ألف ليلة وليلة بالإضـافـة إلى زهرة، ويوحى شـهـرزاد ورواة القـصص الذين أتذكرهـم منذ طفـولتى - مـثل خـالاتى وعـماتى وابنة خالتى العانس التى اعتـادت أن تزورنا وتمكث فى بيتنا لوقت طويل-فجميعهن كن يجعلن من بغداد مسرحًا لأحداث قصصهن فى وقت هارون الرشيد، بينما فضل بعضهن مواضع أخرى أكثر ندرة مـثل بيـزنطة والصـين والهند فى المقـام الأول، والتى يروى أن بعض قصص ألف ليلة وليلة ترجع نشأتها إلى هناك.

وبمرور الوقت وجدت من خلال قراءاتى فى الأدب الغربى، أصداء هذه القصص الخيالية والفولكلور - هوميروس وأوفيد وشاكسبير وراسين. ربما لأن إبداع الأسطورة والإيمان بالخرافة يعد أمرًا فطريًا مرده إلى أعمق مستويات الروح الإنسانية، ويعد جزءًا من التراث الإبداعى للبشرية كافة. فإن هذه العلاقة لا تعدو أن تكون أكثر من مجرد فجوة، فعلى سبيل المثال قصة الباديشاه وبناته الثلاث تعيد إلى أذهاننا قصة الملك لير؛ إلا أن التغييرات فى القصص الفارسية مرجعها ليس إلى القوة الجدالية لإله ما - "الجرائم السماوية كما يشير إليها أوفيد"، لكن إلى نية البشر فى نتائج أفعال السحرة والشياطين، وأشخاص يتمتعون بمعرفة منقطعة النظير ومهارات خاصة يمكنهم استغلالها وفقًا لأهوائهم، سواء كان ذلك بحسن أو سوء نية. يتمتع بالمسئولية فقط البشر الذين لديهم سيادة وإرادة حرة، وتقابل الشخصيات دوامات القدر القابلة للأخذ والرد - أو طغيان الساحر / الحاكم - مع القليل من التدخل من قبل قوى خرافية فى بعض المواقف فضلاً عن الدهاء والتشابه.

وقد تتدخل العناية الإلهية فى بعض الأحيان من خلال نبى أو إمام يأتى فى الحلم أو فى شكل الخضر الغامض، الذى نادرًا ما يعود من عالم الغيب حيث يعيش ليلعب دوره لإنقاذ روح بريئة؛ فالخضر الذى دائمًا ما يتجلى وسط هالة زرقاء هو "خادم الله" وقد قابله النبى موسى عليه السلام فى الصحراء وأصبح دليله ومرشده. وقد وردت فى القرآن الكريم قصة رحلتهما معًا فى سورة الكهف من الآية ٥٩ إلى الآية ٨٢.

لكن ترجع نشأة القصة إلى ملحمة جلجامش وبحث الاسكندر عن ربيع الخلود، بينما فى الأساطير اليهودية قد أشير إلى الخضر بالنبى إليجاه. إذا هو رمز إلى "الروح" و"وحى الله". يمكن أن يشار إليه "بالرجل العجوز" فى حكايات الغرب الخيالية، ذلك الرجل الذى دائمًا ما يظهر عندما يكون البطل فى محنة يائسا وفاقداً للأمل....حيث لا يمكن نجاته إلا بتدبر الأمر بعمق.وروحانيات عالية(٦).

يمكن أن يكون الخضر هو "جنّى الشعر" الذى دائمًا ما يقترن بالإنسان الذى تم إلهامه بالشعر. فنجد فى مثال جلال الدين الرومى أن الخضر هو صديقه العزيز، أما شمس الدين الطبريزى فقد كان شيخه الذى يتحدث من خلاله وهو الصوت الحقيقي لظباه، نظير القصيدة الفارسية.

"تكلمى ، ياشمس الحقيقة والإيمان يافخر طبريز !

تكلمى لأن صوتك هو الذى يضخ كلماتى"

وفى نسخها الفارسية فإن كل هذه القصص هى قصص حب وفقر وغنى وسوء حظ، وخسة البشر تشتق من نفسيات المجتمع ككل. تعبر تلك القصص عن تطلع أبطالها إلى توزيع عادل للثروة، وحكم أقل وطأة فى عالم محفوف بالمخاطر لا يعرف الرحمة. يعكس هذا التراث القصصى فكر الإيرانيين ببعده الخيالى فى تصوير التصارع الدائم بين الخير والشرفى الدنيا وفى الكون بين رحمة الإله وعدله. فهذه القصص تبعث

الطمأنينة وتشحذ الهمة وتحذر من الأخطار الداهمة وتدفعنا إلى الإيمان بإمكانية التغيير وحرية الإنسان وحتمية انتصار الفضيلة على الشر الذى سيلقى عقابه مهما طال الأمد. وهكذا كانت بمثل هذه القصص تبث الفضائل والمثل العليا الأساسية المتعارف عليها منذ القدم كالشجاعة والكرم والرقى، كل ذلك فى مجتمع كانت ولاتزال الأغلبية العظمى منه حتى وقت قريب أميين.

يحتفى هذا التراث القصصى فى المقام الأول بالمرأة، ففى الغالب تكون البطلة أنثى تتحلى بالصبر والحكمة والجمال والحب والقوة وتدعم رجلها سواء كان أباها أو زوجها أو ابنها أو حبيبها أو حاكمها. فالنساء فى التراث القصصى الفارسى هن محفز للتناغم والتحول والقوة التى تكمن وراء العرش أو العدو أو الستار أو "الحجاب". فدائمًا ما تقوم المرأة فى التراث القصصى الفارسى بالمبادرة بإخطار الرجل بما تكنه له من مشاعر، لتنشأ بينهما علاقة حب تتولى تحديد مسار الأحداث وتتغلب على العقبات التى تواجهها قدرًا أو من جراء ثقافة المجتمع الذكورى التى قد تعترض طريق الحب واستمراره. ففى ملحمة شاهنامه تقع أم رستم فى حب أبيه زال وتتزوجه رغمًا عن إرادة أبيها ويرزقهما الله بابن أصبح بطلاً وأنقذ بلاده فيما بعد. وفى قصته "بيجان ومانيجا" أشهر قصص الحب فى الملحمة والتى يؤثرها القصاصون. كانت مانيجا - بطلة القصة - ابنة لأفراسياب وقعت فى غرام البطل الفارسى بيجان ودأبت على الاحتفاظ به عشيقًا لها فى الخفاء. وعندما افتضح أمرها تم تجريدها من لقب أميرة وطردها خارج البلاد، ورغم نفيها فإنَّها ظلت

فخورة بتجربتها هذه وفضلت أن تختار من تحب وتتمسك به إلى النهاية حتى جاءت لحظة النجاة إبان وصول رستم بجيوشه وانتصاره على أفراسياب(٧).

بينما "بيجان ومانيجا" و"السلطان محمود وعصابة اللصوص"- الواردة فى ملحمة "شاهناماه" ورومى ومناقى -كتاب شاهناماه للفردوسى على التوازى - وقد ورد ذكرها هنا كنمط وقصة مفضلة منذ القدم لدى الرواة وجمهورهم - كما وردت فى الدواوين الشعرية.أما بقية القصص قد استقيتها من ذاكرتي وخيالي وقد تختفى إذا لم يتم تدوينها. وكنت عندما أروى هذه القصص للصغار والكبار تلاقى استحسانهم، مما شجعنى بعد مرور السنوات أن أقوم بتدوين هذه القصص حتى يتسنى نشرها على نطاق أوسع، وأحفظ ذلك التراث القصصى من الاندثار. فمهما كان ما لدينا بسيطًا ومتواضعًا ونعتز به، فنحن نرغب فى الاحتفاظ به ومشاركة القراء فى الاطلاع عليه وتداوله فى غضون فترة زمنية محدودة. تمامًا مثلما كان لأغانى الفولكلور ونغماتها الأثر فى إلهام براهامز وبارتوك وسترافينسكى ودفورك والآخرين، فإن القصص الفولكلورى والقصص الخيالية كانت مصدر إلهام لكتاب آخرين. تنتمى هذه القصص إلى تراث ثرى من الفولكلور الفارسى، وتدوينها كان بغرض حفظها من الاندثار. وفى المجمل فإن هذه القصص تهدف إلى بعث الأمل والتفاؤل فيما يتعلق بالمستقبل واليقين فى العناية الإلهية والتراث البشرى والكنوز النادرة فى أوقات الشك وغياب اليقين.

تبـــدأ الـراويــة الإيــرانيــة ســرد قصتهـا قـائلة: "يحكى أن"-
"لا إله إلا الله وحده". وتردد جملتـان أخريان همـا "الآن نقص الحكاية
يجب أن تهـدأ رغم أن الطائر لم يعد بعد لعشــه". وكنت أبدأ بنفس
الصيغة الفـارسية.

البادیشاه وبناته الثلاث

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن كان هناك ملك عظيم وأب لثلاث فتيات. تدعى أولاهن شاهروخ (أى "ذات الوجه الملائكى") ومهروخ (أى "ساحرة مثل القمر") وجولوروخ (أى "جميلة مثل القمر"). كن جميعًا فتيات جميلات راقيات، تتلمذن على أيدى أفضل الأساتذة فى المملكة حيث استعان بهم الملك لتلقينهن دروس الشعر والفلسفة، فضلاً عن الفنون التى يتعين على المرأة إتقانها وشتى المعارف الدنيوية، وبطبيعة الحال تقدم لخطبة بنات البادیشاه خطاب كثيرون، إلا أن الشاه كان يود أن تقترن بناته بخيرة الشباب وأكثرهم حكمة وشجاعة فى البلاد.

بينما كان الملك جالسًا على عرشه فى أحد الأيام متكئًا على جانبه، استدعى بناته الثلاث وحضرن فى أبهى حللهن وحليهن، وتعجب الحاضرون من جمالهن ورونقهن. وهمسوا ..."لقد انقسم القمر إلى ثلاث"...."لن يعرف الكروان أى الأزهار يختار" وهكذا تدفقت عليهن عبارات المديح والثناء.

توجه الباديشاه إلى ابنته الكبرى وقال: "أخبريني ياشاهروخ هل العباءة هي التي تحمي المعطف أم المعطف هو الذي يحمي العباءة؟"

فأجابت شاهروخ:"إن المعطف هو الذي يحمي العباءة يامليكي المتوج."

فرد الشاه قائلاً: "إجابة جيدة"..."أرى أن تعليمك لم يذهب هباءً فأنت متأملة متدبرة وتستحقين زوجًا يليق بك. سأزوجك مساعدي الأول... الوزير."

وقد كان الوزير وسيمًا وأثبت كفاءة قتالية عالية في المعارك، ويعرف عنه أن حكمته تفوق سنه بكثير. ما إن علم الوزير بهذا النبأ حتى انحنى وقبل قدمي الملك وشكره على هذا الشرف الذي أغدقه عليه باختياره زوجًا لابنته فقد غمره السرور لوقوع اختيار الشاه عليه.

ثم استدعى الباديشاه ابنته الثانية وسألها : "أخبريني ياماهاروخ....هل يحمي المعطف العباءة أم تحمي العباءة المعطف."

فأجابت ماهروخ دون تردد: "بالطبع المعطف هو الذي يحمي العباءة."

فرد الأب قائلاً: "حسنًا ياعزيزتي أنت جديرة بأن تكوني زوجة الوزير الثاني."

وكان الوزير الثاني يتمتع بنفس مزايا الوزير الأول وغمره السرور إثر علمه بما قرره الباديشاه من عقد قرانه على ابنته، وبالمثل انحنى وقبل أقدام الملك شكرًا وعرفانًا لفضله عليه.

وفى نهاية الأمر استدعى الملك جولوروخ أصغر بناته وأحبهن إلى قلبه فهى المفضلة لديه، وسألها نفس السؤال فأجابت: "أعتقد أن العباءة هى التى تحمى المعطف."

فابتسم الأب قائلاً: "بالطبع أنت لا تقصدين ذلك عندما تهطل الأمطار أو تثلج الأجواء أو فى حالة وقوع شجار أو أية حادثة أخرى فإنه المعطف هو الذى يتأثر وتظهر عليه عوارض الحرق والتمزق بينما تظل العباءة كما هى."

واصلت جولوروخ حديثها قائلة: "مازلت أعتقد يا أبت ومليكى المتوج أن العباءة هى التى تحمى المعطف وليس العكس."

وهنا أردف الشاه قائلاً إن جولوروخ أثبتت أنها ليست فقط جاهلة بل عنيدة ومتشبثة برأيها للغاية، وإن جل تعليمها قد ذهب هباءً وأنها لا تستحق أيا من الشباب الذين يحفل بهم البلاط الملكى. أمر الشاه الخدم أن يقوموا بالبحث عن أفقر وأحقر رجال المدينة وأكثرهم ضآلة فى المنزلة والمكانة ليتزوج ابنته ويرحل بها.

ثم قال غاضبًا، "أغربى عن وجهى لا أرغب فى رؤيتك مرة أخرى" هكذا قال الشاهنشاه لابنته المدللة ثم قام بنفيها للأبد.

وبحث رجال الشاهنشاه فى كل الأحياء الفقيرة والحوارى بالمدينة وما وراءها فى النهاية وجدوا امرأة تعيش خارج بوابات المدينة فى مجمع قمامة ليس لديها ما يؤويها، فالأرض فراشها والسماء سقفها فى

كوخ صغير حيث تعيش، فقد كانت هذه السيدة فقيرة فقراً مدقعًا وتكسب عيشها بجمع الأغصان من الغابات وبيعها لسكان المدن ليستعينوا بها فى إشعال مدافئهم.

كان لديها ابن يدعى حسن وقد كان كسولاً عاطلاً خاملاً (حتى إنه اعتاد النوم فى التنور فوق الرمال ولا يغادره أبدًا). وقد أعيت أمه كل السبل -المعاهدات والوعود والتحذيرات - لتدفعه إلى الخروج والسعى إلى كسب عيشه، ولكن باءت كل محاولاتها بالفشل، وفى النهاية أقلعت عن محاولاتها بعد أن يئست منه. تأخذ الأم الفقيرة كل يوم بعض الخبز والماء وتذهب إلى التنور لإعطائها لابنها فما يكون منه إلا أن يمد يده يأخذ منها الطعام ويعود ليتوارى فى التنور.

أخبر الحرس الملكى الشاه أن ذلك الشاب هو بالتأكيد أحقر شباب الرعية وأقلهم مكانة، وأمر الشاه أن يعقد قرانه ويزف على ابنته.

قالت جولوروخ "إن تحقيق رغبة أبى هو بالضرورة أمر لازم علىّ أن أؤديه: وقد ذهل الحرس إبان رضوخ الابنة لرغبة أبيها بكل هذه السهولة وروح الدعابة، وقبولها بما آل إليه مصيرها حيث شعروا بالأسف لذلك، ولكن لم يكن بمقدورهم فعل أى شئ لإنقاذها. وسمح لجولوروخ فقط أن تأخذ معها ثوبًا رثًا وغطاءً مهترئًا، وسلموها إلى السيدة الفقيرة ثم انسحبوا مشفقين عليها من وطأة ذلك المصير مذرفين الدمع عليها.

وعندما انصرف رجال الشاه أخذت جولوروخ تنظر إلى المكان الذى أصبح بيتها الآن، لتستكشف الكوخ فوجدت أنه لا شئ يمكنها أن تنام عليه ففرشت بطانية الحصان بالقرب من التنور حيث توارى زوجها من العالم بأسره وذهبت لتنام غير عابئة بشيء، كما لو كانت لم تعتد الملاءات الحريرية ووسادات الريش واستغربت العجوز لموقف العروس.

وفى الصباح أعطت جولوروخ إحدى القطع الذهبية الثلاث لحماتها وأرسلتها إلى الصاغة لتقوم ببيعها والحصول على النقود. وفى تلك الأيام لم تكن هناك بنوك، ولكن كان هناك بكل محل من محال الصاغة من يستبدل الذهب والفضة بالنقود. اشترت جولوروخ بالمال مستلزمات البيت الأساسية وبعض الأشياء الأخرى واستخدمت رجلين لإصلاح الكوخ حتى يتسنى لها بناء سقف صلب يحميهم فى حال سقوط الأمطار.

طلبت جولوروخ فى اليوم الثانى من حماتها أن تترك طعام ابنها خارج التنور لتجبره على الخروج منه لإحضار طعامه بنفسه. اعترض حسن فى بادئ الأمر وتذمر ولعن، وكادت أمه تستسلم لرغبته، لكن جولوروخ منعتها من الانصياع لرغبة ابنها فى أن يحمل الطعام له داخل التنور. وبمرور الوقت تمكن الجوع من حسن مما اضطره للخروج من التنور وأخذ الطعام ثم العودة إلى التنور فى التو مرة أخرى. وكان يتم ترك الطعام كل يوم لحسن فى مكان أبعد من اليوم الذى قبله مما كان يدفعه فى نهاية الأمر للخروج والمشى لمسافة أبعد للحصول على طعامه.

استطاعت الآن جولوروخ مستعينة بالقطعتين الذهبيتين الثانية والثالثة أن توسع من رقعة البيت وتطوره حيث تم إزالة القمامة المحيطة بالكوخ، ولاسيما الحفر للحصول على مياه وزراعة حديقة صغيرة تتوسطها بركة مياه وأشجار وورود وخضراوات، كما تم بناء سور حول الحديقة وعندما انتهى العمل فى المنزل وبدا الكوخ جميلاً منمقًا، اتفقت جولوروخ مع حماتها على أن تتوقف عن تقديم أى طعام لابنها. نادى حسن فى وقت الظهيرة أمه وطلب منها الغداء، فأجابته قائلة إنه إذا أراد الغذاء فعليه مغادرة التنور والخروج إلى المنزل، ولكنه رفض بشدة وتذمر وتوعد وأقسم، ولكنه لم يجرؤ على عصيان جولوروخ التى كانت فى المقام الأول ابنة الباديشاه وتوقفت أمه بسرعة.

استمرت مقاومة حسن عدة ساعات ولكن فى النهاية غلبه الجوع واستسلم. استجمع قواه ببطء وخرج من التنور، وخطا نحو الخارج فى العالم الجديد المذهل وعيناه تريان بالكاد بعد ظلمة التنور الذى مكث فيه طويلاً، وها هو يرى البيت ولم يعد ذلك البيت الخرب الذى عهده وفر منه لكنه أصبح حديقة غناء تظللها الأشجار وتكسوها الأزهار ونافورة تعج بالمياه وحوضا أزرق من الأسماك الذهبية وأوراق الأزهار والعصافير المغردة على الأغصان.

لقد أصبح الآن الكوخ الحقير بيتًا جميلاً أبيض يبدو براقًا والشمس ساطعة. وكان حسن قد أوشكت قدماه على التيبس من فرط عدم الحركة، ولكنه تمكن من أن يخطو حثيثا فى واجهة المنزل فوجد

بداخل المنزل امرأة متوهجة الجمال تقف أمام طاولة وضعت على سجادة اصطف عليها طاولة الطعام الشهى، وشعر بالخجل إبان ذلك، ولكن أقبلت عليه جولوروخ مبتسمة تمامًا كما لو كانا أصدقاءً قدامى وجلست بجواره وصبت عصير الفاكهة فى كوبه وحثته على تناول الطعام عندما تولت هى إطعامه بنفسها ووضعت الملعقة فى فمه.

وضعت فى صحنه قطعة من كل طبق من صنوف المقبلات وأثناء تناول حسن لطعامه ذهبت هى لمعاونة أمه فى هدم التنور حيث كان يختبئ حسن والآن قامت كل من جولوروخ وحماتها بهدم التنور وإزالة آثاره تمامًا.

وبعد أن تناول حسن طعامه ذهب إلى مخبئه، وفوجئ بأن التنور قد اختفى! ولم يعد هناك بد من أن يعود مخذولاً إلى البيت، حيث كانت فى انتظاره جولوروخ. كان حسن فى قرارة نفسه سعيدا حيث الآن لديه عذر للمكوث بالمنزل فبعد أن تناول الطعام الشهى ورأى كيف أصبح البيت جميلاً لم تعد لديه رغبة فى العودة ثانية إلى التنور تلك الحفرة المظلمة.

أما جولوروخ فكانت تتوقع أن تكون هذه هى نتيجة مخططها، فقد قامت جولوروخ باستدعاء اثنين من العاملين فى الحمام المحلى العام وقد استغرق هذان العاملان ساعات فى حمام حسن ليزيلوا ما علق بجسده وتراكم من غبار وأتربة التنور عبر سنوات خلوته. وقاما بقص شعره وتهذيب أظافره وإعداده ليصبح بمثابة رجل فى ليلة عرسه وقاما بعد ذلك بإلباسه ملابس فاخرة كانت جولوروخ قد أعدتها له.

وعندما أطلت عليه جولوروخ فى الحجرة تعجبت، فذلك الرجل من المحال أن يكون ذلك الهمجى الغجرى الجاهلى القذر الذى شاهدته منذ عدة ساعات، بل أصبح وسيمًا راقيًا يلتفت إليها على استحياء. وبعد أن تحدثا قليلاً أخبرته جولوروخ أنه لم تعد هناك نقود بالمنزل - فكل ما لديها من قطع ذهبية قد أنفقت كل عائدها من النقود - والآن هذه هى مسئوليته كرجل البيت أن يعمل ويكسب ليوفر سبل المعيشة.

أجاب حسن فزعًا ولكن ماذا بإمكانه فعله فليس لديه أى مهنة أو مهارة فمن يقبل استخدامه ليعمل لديه؟! والشىء الوحيد الذى يمكن أن يتخذه مهنة هو أن يعمل بحمل المياه إلى الحمام، وتعد تلك المهنة أقل المهن مكانة فى الدنيا. وحتى ذلك العمل سيصعب العثور عليه علمًا بأن سمعته كشخص كسول لن تتيح له الالتحاق بذلك العمل ولكن جولوروخ طلبت منه ألا يقنط من رحمة الله ويدع اليأس يتملكه.

ذهبت جولوروخ لمقابلة مدير الحمام وتوسلت إليه أن يقبل حسن عاملاً لديه، وقبل الرجل أن يمنح حسن فرصة للعمل لديه.

كان حسن يغادر منزله كل يوم صباحًا متجهًا إلى الحمام حيث يعمل طيلة النهار كى يحضر أوانى المياه الضخمة فى القدور الساخنة للزبائن.

وفى المساء يتسلم أجره اليومى الهزيل "درهمًا" واحدًا ليعطيه إلى زوجته.

وبمرور الوقت وجدت جولوروخ أن حسن يعمل بجد وأصبح يتمتع بشعبية وسط زبائن الحمام بفضل حسن خلقه وشمائله وتواضعه، وشعرت جولوروخ أنه قد آن له أن ينتقل إلى عمل أفضل. وفى أحد الأيام اصطحبته إلى الحاج أحمد (الحاج أحمد هو الرجل الذى يذهب برفقة قوافل الحجاج إلى مكة)، وهو أكثر التجار شهرة وسألته عما إذا كان يرغب فى استخدام رجل لمساعدته، رجل مشهود له بالأمانة وأنه أهل ثقة، أجابها الحاج أحمد قائلاً: "بالطبع أريد"، وكان الحاج أحمد قد قابل حسن من قبل فى الحمام وقد أضاف الحاج أحمد: "لقد لاحظت أن حسن متواضع ومرح وعلى استعداد للعمل بجد، وهو أمر يندر وجوده اليوم وسوف أقبل تشغيله لدى بكل سرور". وها هو حسن يبدأ فى غرف متجر الحاج أحمد حيث عمل مساعداً حرفياً، وكان رئيسه الجديد رجلاً طيباً فطناً حسن الخلق، وكان لدى الحاج أحمد ستة أبناء لكن وافتهم جميعاً المنية فى فترة الطفولة، وفى الآونة الأخيرة توفيت زوجته لذا كان سعيداً بصحبة حسن وعامله كأنه ابنه تماماً.

وفى أحد الأيام أعلن الحاج أحمد أنه يجب أن يسافر لإتمام صفقة بالخارج وأنه يرغب فى أن يصطحب حسن معه إذا لم تمانع جولوروخ. لم تكن لدى حسن، الذى أصبح شديد الحب لزوجته ولا يرغب فى تركها أو ترك أمه العجوز، أى رغبة فى السفر بصحبة رئيسه، لكن زوجته أقنعته بالسفر لرؤية بلدان جديدة واكتساب خبرة.

اتجه الحاج أحمد إلى محال دمشق حيث تجمع التجار من الشرق والغرب وتبادلوا البضائع. وكان الحاج أحمد ينوى شراء الحرائر والتوابل والمكسرات وبيعها للتجار الفرنسيين.

لم يكن فى تلك الفترة معهودا وجود عربات أو قطارات أو طائرات، وقد اعتاد الناس السفر على ظهر الجياد والجمال. وكانت الرحلة قد تستغرق شهوراً وربما سنوات، وكانت محفوفة بالمخاطر فبغض النظر عن المرض والكوارث الطبيعية والحيوانات والزواحف الشرسة والفيضانات والزلازل، كانت الطرق أيضًا ملبدة بقطاع الطرق، وتكون محظوظًا إذا اكتفى هؤلاء فقط بتجريدك مما معك من بضائع، فقد كان السائد آنذاك أن يتم ذبح الضحايا وإلقاء جثثهم على قارعة الطريق لتكون فريسة للذئاب والضباع.

كان حسن متجهًا إلى البيت، فى الليلة التى تسبق رحيله وتعجب: ماذا تخفى له الأقدار وكان فؤاده مفعما بالأسى عندما تذكر زوجته الجميلة وشوقه وحنينه لها. كانت الشمس قد مالت عن كبد السماء تاركة خيطًا أرجوانيًا فى الأفق والطرق خاوية تمامًا.

ظهر فجأة وسط الطريق شاب كما لو كان جنيًا وقد أقبل مبتسما.

قال الشاب: "مساء الخير... أعطنى شيئا سيساعدك كثيراً فى رحلتك."

استجاب له حسن وأعطاه عملة معدنية وهنا قال الشاب الغريب: "احرص دائما أن تكون متواضعاً وأينما تذهب ادخل أولاً برأسك لا بقدمك"، شكر حسن الرجل على النصيحة التى أسداها له، ومضى ولكنه حاول جاهداً أن يفسر اللغز ولم يستطع فهمه: ماذا يعنى هذا الرجل الغريب؟ وكيف يستطيع المرء أن يدخل أى مكان برأسه أولاً؟ واستدار ليتساءل ولكنه وجد أن الرجل قد اختفى تماما.

ومضى حسن فى طريقه وسرعان ما نسى الأمر.

والآن ظهر أمامه رجل آخر وبنفس الطريقة فقد أقبل من العدم على حين غرة، وكان لطيفًا تمامًا مثل الشاب الغريب الذى قابله حسن من قبل.

حياه الشاب الغريب قائلاً: "مساء الخير...أعطنى درهمًا سألقنك درسًا ينفعك فى رحلتك." وعندما تسلم الرجل العملة المعدنية قال لحسن: "كلما نزلت معسكرًا أمكث ليلاً ونم على أعلى أرض عالية." ثم خطا الشاب مبتعداً.

تعجب حسن من هذه النصيحة لوهلة قبل الانغماس فيما كان يفكر فيه. وبعد مرور دقائق قليلة اعترض طريقه الغريب الثالث: "أعطنى درهمًا"..."وسأنبئك بشيء يكون عونًا لك فى رحلتك."

استجاب له حسن وقال له الشاب الغريب: "احرص دائمًا على أن تتحلى بالصبر وانتظر وأمعن التفكير وعد حتى أربعين قبل التصرف."

وعلى الأقل كان ذلك شيئًا يمكنه إدراكه، حيث إنه اعتقد أنه من الحكمة ألا يكون متسرعًا بل يجب أن يفكر ويعقل الأمر قبل التصرف - ثم نظر خلفه ليشكر الشاب الغريب لكنه كان قد اختفى تمامًا كسابقيه. ثم واصل حسن السير حتى وصل فى النهاية إلى البيت حيث كانت جولوروخ فى انتظاره واستقبلته بترحاب وعاطفة ملؤها حنان.

تجمع فى فجر اليوم التالى مئات الحجاج والتجار على البوابة الغربية للمدينة، وكانت جمالهم ودوابهم محملة بالمشتروات والبضائع تمامًا مثل مطارات وموانئ اليوم. قام الحاج أحمد الذى كان أكبرهم سنًا وأعلاهم مقامًا بقيادة القافلة حيث كان يعتلى جمله وبدأت المسيرة حين دق الناقوس فور صيحات "الله أكبر - الله أكبر" تلتها غمغمة النساء والصغار. ثم توارى صوت الأجراس وغابت القافلة عن الأفق.

كان الطريق إلى دمشق والحجاز طويلاً ومحفوفًا بالمخاطر فالأمر كان بمثابة اختراق صحراء واسعة لا تعرف حدودًا، لا شئ فيها إلا الصخور والرمال. وقد تتوقف القافلة من آن لآخر فى واحة تحفها أشجار النخيل التى تظلل بئرًا حيث يتسنى للسيارة أن يطعموا ويسقوا ويريحوا دوابهم ويملأوا قرب المياه.

توقفت القافلة فى يوم من الأيام بإحدى الواحات، وكما هو معتاد نزل أحد الشباب للبئر ليحضر المياه ولكن بدلاً من أن يرسل الدلو مليئًا بالمياه كان يرسله فارغًا، بينما لم يخرج أبدًا الشاب من البئر. تم إرسال

شاب آخر ليقوم بملء الدلو ويستكشف نبأ سلفه لكنه هو الآخر لم يعد. مــاذا يمكن أن يكون قــد لحق بالرجلين؟ تم إرســال رجل ثالث ورابع وخامس..... حتى وصل العدد إلى أحد عشر رجلاً ولم يصعد أى منهم من البئر.

وأخيرًا تطوع حسن ليجلب المياه من البئر، وهنا رفض الحاج أحمد بشدة أن توكل هذه المهمة إلى حسن، ذلك لأنه وعد جولوروخ أن يعتنى بزوجها، كما لو كان ابنه وأن يعيده إليها سالمًا....فماذا عساه أن يفعل إن أصاب حسن سوء؟ ماذا سيقول لها لو أصابه مكروه؟ ولكن ما قاله الحاج أحمد لم يثن حسن عن القيام بما عزم الإقدام عليه. وعندما قام الرجال بإنزل حسن فى البئر تذكر حسن نصيحة الغريب الأول:"ادخل أى مكان أولا برأسك لا بقدمك". لذلك طلب حسن من الرجال أن يتم إنزاله البئر برأسه أولاً لا بقدميه، وبدا هذا المطلب مطلبًا غريبًا للغاية ولكنهم كانوا فى حاجة ماسة للماء واضطروا أن ينزلوا على رغبته.

وكلما تم إنزال حسن فى البئر بصورة أكثر عمقًا كلما ازداد فزعه وهلعه حيث تزداد ظلمة المكان وتشتد حلكته ويعتلج وجدانه بالخوف والهلع، عسى أن يكون فى المكان تنين ينقض عليه ليفتك به كما حدث بلا شك مع من سبقه بالنزول فى البئر ولم يعاودوا الصعود.

وهنا تذكر جولوروخ وشعر بفؤاده يرتجف ولكنه استجمع قواه وواصل النزول فى البئر.

وسرعان ما ظهرت بادرة ضوء في قاع البئر تعكس مجرى مياهه النقية. ولكن لم يكد يتنفس الصعداء حتى لاح له جني ضخم ذو قرنين حادين يبرزان من رأسه، وعيناه تتوهجان تماماً كأنها مصابيح مشتعلة وأظافره طويلة حادة، وكان الجني جالساً على حافة مجرى المياه. بينما كانت عظام من سبقوه بالنزول إلى البئر مبعثرة حول ذلك الجني المخيف الذي قتلهم والتهم أجسادهم في التو.

أدرك حسن أنه لا يمكن أن يتراجع حتى لو كانت نهايته وشيكة ولكن الجني قال له:"أنا ملك العالم السفلي الذي يمتد تحت كل هذه الصحاري الشاسعة، وأنت متطفل على مملكتي وأنا بصدد قتلك: ولكن أخبرني لماذا نزلت أولاً برأسك؟".

أصاب حسن الفزع فهو يعرف جيداً أنه سيتم تمزيقه والتهامه، لكن ذهنه كان حاضراً فأجاب: "لقد تعلمت جلالتك أن أحني رأسي قبالة العظماء...وبما أنك أعظم ملوك الجن في العالم السفلي كان لزاماً على إنزال رأسي أولاً كدلالة على احترام وتعظيم جلالتك."

ذهل الجني إزاء ما أبداه حسن من تواضع وقال: "كلام جميل... أرى أنك إنسان مهذب فقد أساء الآخرون الأدب وتحدوني لذا قمت بالتهام أجسادهم ولكني سأقوم بمكافأتك ومنحك كل كمية المياه التي ترغب في الحصول عليها."، وبينما كان الجني يقول ذلك كان حسن يملأ الدلو بالماء العذب من مجرى المياه البارد النقي بجواره ثم يرسله إلى أعلى لتجار القافلة.

تخيل بهجة المارة عندما رأوا المياه: حيث صاحوا مرددين: "لقد نجونا؟!"... "الحمد لله"... أسرع الجميع ليرووا ظمأهم. تم إفراغ الدلو عدة مرات فى غضون لحظات وأدلوه مرارًا إلى باطن البئر وجذبوه مرارًا لأعلى مليئًا بمياه عذبة نقية. كما لو كان مملوءًا من حوض الكوثر[1]. وملِئَت جميع قرب المياه وسقوا دوابهم وحمد الله الجميع على سعة رحمته وكرمه فقد نجاهم من ظمأ كاد يودى بحياتهم.

قام المارد فى باطن البئر بالتصفيق ثلاثًا حيث ظهر فى جدار البئر باب معدنى ضخم قام بدفعه، ثم دعا ضيفه للدخول. عندما دخل حسن وجد نفسه قبالة حديقة خلابة لم ير مثلها من قبل، يتوسطها قصر يضاهى قصر الباديشاه وهنا أشار المارد: "هذا هو قصرى وأنا أرحب بك لتقيم معى إلى الأبد." لم يكن يجول بخاطر حسن حتى فى أعتى أحلامه أن يعيش فى مثل ذلك القصر، وللحظة أغراه عرض المارد فمعنى قبول مثل ذلك العرض هو نهاية همومه وما يساوره من قلق من العالم الدنيوى ولكنه تذكر جولوروخ.

ثم قال حسن للمارد: "أود أن أشكرك شكرًا جزيلاً على كرمك ولكن لدى زوجة شابة وأم عجوز وصاحب عمل أحبه كما لو كان أبى. وأنا أحبهم جميعًا وهم يعتمدون على، معذرة لا أستطيع البقاء."

فرح المارد عندما استمع إلى رد حسن وقال: "أردت فقط أن أختبرك لمعرفة ما إذا كنت قويًا مسئولاً أم ضعيفًا أنانيا"... ودعا حسن ليتناول معه الطعام قبل أن يرحل. ثم قام بالتصفيق ثلاثًا ليظهر مارد

آخر حاملاً صينية ضخمة فى حجم مائدة وليمــة مزودة بشتى صنوف ما لذ وطاب من الطعام.

أكل حسن وشرب ثم شكر ملك الجن على كرمه وحسن استضافته وسأله أن يأذن له بالرحيل.

منحه ملك الجن إبان الرحيل ثلاثامن ثمار الرمان قائلا: "احتفظ بها فى مكان آمن ولا تريها لأحد عسى أن تنفعك فى المستقبل."

أمــا عن زمــلاء حــسن فــهم الآن على سطح الأرض وقــد بدأت تساورهم المخاوف والشكوك. فقد تساءلوا :"أين ذهب حسن؟!"، وتعجبوا ماذا عساهم أن يفعلوا الآن. هل يرسلون إليه شابًا آخرًا ليستكشف الأمر؟ بينما هم يتساءلون خرج حسن من البئر، وهنا هلل الجميع إبان رؤيته. لم يخبرهم حسن بنبأ المارد، فقط قال لهم أنه لم يجد أثرًا لمن سبقوه بالنزول إلى البئر حيث اختفى تمامًا أثرهم. وهنــا واصلت القافلة التحرك.

وعندما انتصف الطريق عبر الصحراء قابلوا قافلة أخرى فى طريقها للعودة إلى فارس. عم الصخب المكان وجعل الرجال يتصافحون ويتبادلون أخبار الوطن والأقارب. تم إعداد حفل لتناول مأدبة عشاء وقضى الجميع الليل فى سمر، وعندما جاء الفجر وشقت الشمس الأفق البعيد واصطبغت السماء باللون الذهبى والأرجوانى، قام المسافرون ليتعانقوا ويودعوا بعضهم البعض لترحل كل قافلة فى الاتجاه المعاكس.

يمكنك أن تتخيل كيف كان لكل منهم أن ينظر خلفه ليرى أن المسافة بينه وبين القافلة الأخرى تزداد رويداً رويداً، حتى تختفى القافلة الأخرى وتغيب عن الأفق بصخبها، ولم يتبق إلا رمال الصحراء الواسعة الممتدة وسكونها الطاغى.

وقبل رحيل القافلة كان حسن قد أودع الأحجار الثلاثة فى صرة وائتمن أحد رجال القافلة الأخرى الذى كان صديقًا له عليها، وطلب منه أن يؤدى هذه الأمانة إلى زوجته لتحتفظ بها حتى يعود مع القافلة.

ومرت شهور حتى وصلت القافلة أخيراً إلى دمشق حيث أقام رجالها فى أحد فنادق القوافل المنتشرة بالسوق. وبدأ الحاج أحمد فى ممارسة مهامه كتاجر مع رفاقه فى فرنجستان، وكان يحرص على اصطحاب حسن معه دوماً فى كل صفقاته ليلقنه دروساً تعينه على أن يكون تاجراً محنكًا. وفى نهاية الأمر استعدت القافلة للرحيل إلى الوطن.

قبل رحيل القافلة بيوم أعطى الحاج أحمد بعض النقود لحسن قائلاً: "لقد ربحت كثيراً: خذ هذه الصرة من النقود واستثمرها فى أية تجارة تريد وسنقتسم أرباحها إذا نجحت فى هذه المهمة."

ذهب حسن إلى السوق ولاحظ أن الجميع يقبلون على شراء المنسوجات والتوابل والجواهر - فضلاً عن الحرير والقطيفة والعطور والفيروز، كما كانت هناك كميات كبيرة من الفواكه الحمضية بأسعار زهيدة نظراً لأن ذلك العام قد اتسم بمحصول عالى الجودة بشكل يفوق المعتاد،

لكن لم يشتر أحد أيا من هذه الثمار. اشترى حسن مكاييل من البرتقال والليمون وحملها على الجمال. لاحظ الحاج أحمد ما اشتراه حسن وقام بتحميله ولكنه لاذ بالصمت.

مرة أخرى تمر عدة شهور عبر الصحارى وقد تعرض الرجال أثناء تلك الفترة للمرض بل للموت، وفى النهاية وصلت القافلة شواطئ إيران ولم يبق سوى عبورها.

تَملَّك الفضول الحاج لدى الاقتراب من شواطئ الوطن، وسأل حسن عما قام بشرائه. فأجاب حسن:"فواكه حمضية" وهنا تذمر الحاج حسن وقال:"ماذا؟!".."ياأحمق ماذا عساك أن تفعل بالفواكه الحمضية؟! يوجد منها أطنان، وإثر وصولنا أرض الوطن ستكون بضاعتك قد تعفنت لقد أهدرت أموالي وكنت قد ظننت أني لقنتك حنكة المهنة! كنت أحمق حقًا عندما وثقت بك."

كان الحاج أحمد شديد الغضب حتى أنه رفع يده وهم بضربِ حسن إلا أن حسن أبعد يده برفق وهدأ من روعه قائلاً: "سيدى...لا تقلق سأقوم ببيع البضائع قبل أن نصل شواطئ فارس." وبعد أن أخبره بذلك ذهب إلى طاولة السفينة وانتظر الزبائن.

وما أن أقلعت السفينة حتى تبدل الطقس، هبت الريح وتحول البحر إلى وحش وداهمت الأمواج العملاقة السفينة وخر الركاب ضحايا للمرض. وأصبحوا لا يمكنهم أكل أى شيء سوى الفاكهة الحمضية والتى بفضل خصائص أحماضها عالجت إصابتهم بالبرد وهدأت معدتهم.

لذا تجمهروا حول المحل الصغير الذى نصبه حسن على ظهر السفينة وقاموا بشراء كل ثمار البرتقال والليمون المتوفرة لديه وبأعلى ثمن وسرعان ما نفدت بضاعته بعد أن تضاعف رأس ماله ثلاث مرات.

قام حسن باقتسام الربح مناصفة مع رئيسه كما اتفقا مسبقًا واحتفظ بنصيبه مبيتًا النية أن يبدأ تجارة خاصة به إثر العودة إلى أسواق فارس.

مرت القافلة فى فارس على بعض الجبال والمرتفعات وسط حواف حادة وأودية ضيقة، تلك التى يمكن أن يتعثر المارة وسطها فى حفر ليجدوا أنفسهم وقد ارتطموا بالصخور بعد السقوط من علو شاهق أو قد يسقط بعض السيارة وسط الشلالات.

وأخيراً وصلت القافلة إلى وادٍ أخضر تحيطه جبال شاهقة يخترقها مجرى مائى. وبدا المكان وكأنه "أرض الميعاد" وأسرع الجميع لينصبوا الخيام ويستريحوا وليتسنى لدوابهم أن تأكل من المرعى الغنى بالحشائش. فقد نصبوا خيامهم على ضفة النهر وشربوا المياه العذبة المثلجة وحمدوا الله على اجتياز أقصى مراحل رحلتهم صعوبة وخطراً بسلام.

عندما كان عمال الحاج أحمد وصبيانه بصدد نصب الخيام، تذكر حسن فجأة ما قاله له الشاب الغريب الثانى: "احرص دائما على أن تنام على أرض عالية، وهنا أخبر حسن سيده أن النوم على الهضبة

أفضل من النوم بسهل الوادى. لكن الحاج أحمد اعترض حيث سيكون ذلك المكان باردًا وأكثر عرضة للريح، ومن الأفضل أن يناموا فى مكان تحيطه الأشجار والأغصان بالقرب من باقى أفراد القافلة؛ ولكن حسن صمم متعللاً بأنه استكشف الجبال المحيطة ووجد كهفًا كبيرًا متسعًا بالقدر الكافى، ليس فقط لكليهما ولكن لبقية الصبية والدواب. وانصاع الحاج أحمد فى نهاية الأمر لرغبة حسن بعد أن تردد لوهلة. قام الخادم بكنس الكهف وفرش السجاجيد والأسرة وبعد الانتهاء من ذلك سر الجميع بالمكان وسرعان ما غلبهم النعاس من فرط التعب.

وقرب منتصف الليل تجمعت السحب فوق الوادى واختفت النجوم وزأر البرق ورعد الرعد زئيرًا يشبه زئير الأسد الغاضب، واجتاح البرق السماء وهطلت شظايا من النحاس المصهور. والآن بدأت الأمطار فى الانهمار ويالها من أمطار! لقد كان الأمر كما لو كانت لعنة ما قد حلت بالمكان. كما هو معتاد عندما تنهمر المياه متدفقة بعنف على سطح مستوٍ تتدفق بعنف، ولا يكون هناك وقت ليتم صرفها بل تتدفق لتصبح فيضانًا مدمرًا وسيولاً عارمة، وسرعان ما يتمخض مُحيط من المياه يجتاح كل المنحنيات ويقتلع الأشجار من جذورها، ولا يكون لدى المسافرين وقت لجمع خيامهم أو بضائعهم، بل أن بعضهم يختفي تمامًا من على سطح الأرض، وكما تنهمر هذه السيول فجأه تتوقف أيضًا فجأة. وهنا تتدفق المياه فى باطن الأرض وتفيض جداول المياه على سطح الأرض. ثم تذوب قطع الثلج التى كانت كتلاً قبل العاصفة لتصبح نهرًا أصفر عاليًا على اتساع نصف ميل ويزأر ذلك النهر كأنه تنين عملاق.

شعر الرجال إبان الاستيقاظ بالهلع وقلة الحيلة فالذين مازالوا على قيد الحياة بدأوا يتجمهرون سوياً للنظر فيما يمكنهم القيام به إثر هذه الكارثة. لقد كانت حقًا كارثة نجا منها حسن وجماعته باتباع نصيحة الشاب الغريب الثانى الذى قابله حسن فيما مضى - (واحرص دائمًا على النوم فى مكان مرتفع).

ذهل الحاج أحمد عندما أدرك ما يتمتع به حسن من بصيرة، وبدأ يتأكد أن حسن ملم بعلم الغيب أو على الأقل أنه لديه موهبة ما يخفيها. وازداد يومًا بعد يوم إعجابه بحسن، وقرر أن يتبناه ليصبح ابنه ووريثه الوحيد. وفى حال وقوع كوارث أخرى قد يكون مقدراً وقوعها أو اختفى أو وافته المنية قبل وصوله إلى الوطن سيكون قد كتب وصيته معه، وفى الوطن موضحًا أنه فى حال وفاته ستؤول جل أمواله وتجارته إلى حسن فضلاً عن لقبه ككبير التجار وكل ثروته التى جمعها خلال حياته المديدة.

واصلت القافلة السير وكان الشوط الأخير من الرحلة، وملأ الجميع الحنين إلى أرض الوطن وتوقفوا فى إحدى الليالى بأحد فنادق الاستضافة بالقرب من مدينة كاشان المدينة المشهورة بعقاربها السامة، وبالمثل تشتهر هذه المدينة بسجاجيدها الجميلة. وقد كانت هذه العقارب أمرًا مزعجًا للغاية حيث لا يوجد علاج لسمها، والموت هو النهاية الحتمية للدغ هذا النوع من العقارب. ويقال إن هذه العقارب هى وكلاء الشياطين ويلدغون فقط بأمر منهم.

أصاب الحاج أحمد فى هذه الليلة لدغة عقرب أسود كبير زحف حتى وصل إلى فراشه ثم أصابه. صاح الرجل وقفز من فراشه فاستيقظ الجميع وهرعوا متجهين نحو مخدعه وتمكنوا من إبادة العقرب، أما عن الحاج أحمد فقد تم علاجه بالطريقه المعتادة لمكافحة لدغ العقرب ولكن دون جدوى فقد وافته المنية فى غضون دقائق.

قام حسن بوصفه وريثه الوحيد بدفنه فى مقبرة عامة بالقرب من رجل صالح بكل البهاء والمحفل الذى يستحقه الرجل. ورث حسن بموجب وصية الحاج أحمد جل ثروته فضلاً عما كان يتمتع به من ألقاب ومكانة وأصبح قائد مسيرة القافلة حتى انقضت الرحلة.

حسنًا لقد قدر للحاج أحمد أن يتوفى فى الوقت والمكان الذى مات فيه فقد قضى أجله. فإن يوم وفاتك ثابت منذ ولادتك، ولا شىء يمكن أن يغيره. فملك الموت لا يخلف موعده أبداً. سأذكر لك شيئا عن عزرائيل: عندما منح الله عزرائيل لقب "ملك الموت" حزن وقال سيكرهنى الناس جميعًا لما أسببه لهم من أسف وحزن على فقدان أحبتهم. وتوسل إلى الله جل وعلا أن يسند إليه مهمة أخرى تجلب له الحب والامتنان بدلاً من البغض والامتهان.

وهنا قال الله له: "لا تقلق...فكرت فى ذلك فأنا خلقت كل أنواع الأمراض والحوادث لأنهى حياة البشر، لذا فهم سيلقون دائمًا باللوم على هذه الأشياء لأنها أسباب الموت وليس أنت."

وهكذا -... جاء العقرب أو أى حيوان آخر من حيث لا ندرى ليكون سببًا فى وفاة الحاج أحمد، ولكن حقيقة الأمر أنها مشيئة الله التى نفذها عزرائيل ولله حكمة فيما قدره... تلك الحكمة تفوق إدراكنا نحن البشر.

والآن أنا على يقين من أنكم تريدون معرفة ما حدث لجولوروخ طوال فترة غياب زوجها عن البلاد. عندما تسلمت ثمار الرمان الثلاث التى أعطاها المارد لزوجها، ذهبت لتضعها فى خزينة سرية بغرفة نومها. ولكن أثناء وضعها هذه الثمار فى الخزينة هوت إحداها وانكسرت... ويالهول المفاجأة! فبدلاً من أن يسفر انكسارها عن خروج بذور خرجت كميات هائلة من الأحجار الكريمة وتناثرت فى أرض الحجرة- مرجان وزبرجد وكهرمان فضلاً عن جوهرة كبيرة.. مما أصاب جولوروخ بالذهول لوهلة. قامت فى صباح اليوم التالى ببيع بعض هذه الجواهر واشترت بهذه الأموال حيا بالكامل قريبا من مسكنها. وتمكنت من بناء قصر جميل يضاهى قصر أبيها وفرشته بأغلى قطع الأثاث وسجاجيد الحرير والكريستالات والمفارش الذهبية وكل أسباب الترف والرفاهية التى قد تجول بخاطرك، وعند الانتهاء من إعداد القصر واصلت جولوروخ ترميم وإصلاح كل البيوت الأخرى فى بلدتها. فقد بنت حمامات ومساجد؛ وأعدت مطابخ واسعة على أبواب المدينة لإطعام عابرى السبيل الفقراء والدراويش والمتجولين وفقراء المدينة.

وقد ذاع صيت جولوروخ بلا عجب، ليصل الباديشاه أباها نفسه. ود لو عرف الباديشاه من هو حسن كبير التجار الذى أصبح غنيًا غناء

فاحشًا وزوجته تقوم بكل هذه الأعمال الخيرية للرعية وهنا كلف الباديشاه أحد وزرائه بالاستعلام عن الأمر ليأتوه بنبأ حسن وزوجته.

وصل الآن حسن وقافلته إلى أبواب المدينة وبالكاد تعرف حسن على المكان الذى بدا كما لو كان عريقًا راقيًا، تحيطه الدروب المفعمة بالأشجار والمبانى الجديدة والمنتزهات وجداول المياه المتدفقة.

أراد حسن أن يفاجئ زوجته لذا طلب من رجاله الانتظار خارج بوابات المدينة وذهب بمفرده يبحث عن بيته. لكنه وجد بدلاً من الكوخ الصغير الذى غادره قبل سفره قصراً تحيطه الحدائق وحمامات السباحة والنافورات، ويلفه سور عالٍ. وجد أمام القصر حرسًا ولكنه اكتشف بوابة خلفية للقصر تسلل من خلالها فى هدوء ليجد ممراً سار فيه حتى النهاية وفتح بابًا آخر قاده إلى ساحة القصر. أصابه الذهول مما رأى من مظاهر الترف والرفاهية والنعم التى تعم المكان وتعجب هل هذا حقيقة أم حلم أو خيال. سمع بالداخل أشخاصا يتحدثون وكان باب الحجرة مغلقا ولكنه استطاع من خلال ثقب الباب أن يرى جوهرة متألقة – نعم رأى جولوروخ!

كم بدت له جميلة آنذاك...حتى فاق جمالها الصورة المنطبعة فى خياله بكثير، ولكن من هذا الرجل الوسيم الجالس بجوارها؟ لقد كانا يتحدثان ويضحكان ويقبلان بعضهما البعض. اعتصر الألم فؤاده لقد نسيته حبيبته جولوروخ وأحبت رجلاً آخر!

أطار الشعور بالغيرة والكمد صوابه حتى ود لو دخل عليهما وواجههما بفعلتهما الشنعاء، وقضى عليهما دفعة واحدة وما إن هم بفتح الباب حتى تذكر نصيحة الشاب الثالث له: "تحلى دائما بالصبر. انتظر وفكر وعد حتى أربعين قبل أن تتصرف."

انتظر حسن بينما الغضب واليأس يكويانه، ولكنه أدرك من مجريات الحوار أن هذا الشاب الوسيم هو أخو جولوروخ شاهبار حيث أرسله الشاه ليرى المرأة التى ذاع صيتها بالغنى والأعمال الخيرية. وهنا هدأ روعه وشعر بالذنب لأنه شك فى ولاء زوجته وشرفها وهنا طرق الباب بلطف ودلف إلى الحجرة.

وياله من لقاء! فقد تعانق الزوجان بفرح وحرارة وسعدا سعادة جمة برؤية كل منهما للآخر، فقد تعانقا وتبادلا القبلات وكلمات العشق العذبة. سر كثيراً شاهبار برؤية زوج أخته الذى سمع عنه كثيراً من جولوروخ. لقد كان لديه الكثير ليخبرهما به من أخبار مغامراته وأسفاره والأحداث التى مر بها أثناء بعده عن جولوروخ. واتفقا على ألا يكشف شاهبار للشاهنشاه عن هوية كل من حسن وجولوروخ وأن يخبره بأن كلا من الزوجين يدعوه ليمن عليهما ويقبل دعوتهما له لتناول العشاء فى ضيافتهما فى وقت يتم الاتفاق عليه ليشرفهما بالزيارة فى بيتهما المتواضع، رغم أن جولوروخ تعلم جيداً أن بيتها قد أصبح يفوق بيت أبيها فى مظاهر الترف والغنى- لكن بوصفها أميرة تعرف جيداً اللغة التى يجب الالتزام بها عند مخاطبة الملوك.

أخبرت جولوروخ زوجها بأنه يجب أن يذهب إلى معسكر أعوانه خارج بوابة المدينة ليتم إعلان وصوله واستقباله فى المدينة على نحو يليق بشخص كبير التجار فى السوق. وكانت جولوروخ قد زينت بوابات المدينة بالملصقات والمصابيح وتم ترصيع السوق كله بالأنوار والزينة وبساط طويل ممتد فى مدخل قصرها. ذهبت فئة من علية القوم وكبار التجار لمعسكر حسن لترحب به بشكل رسمى وتصحبه إلى داره حيث كانت جولوروخ وحاشيتها بانتظاره.

والآن عاد شاهبار إلى الديوان الملكى ليخبر والده بنبأ المرأة الغامضة التى قابلها.. تلك المرأة التى قامت بكل هذه الإنجازات فى مجتمع المدينة وزوجها حسن. كما أخبر شاهبار والده بدعوة حسن وزوجته له ليقوم بزيارتهما، وفرح الشاهنشاه بدوره بهذه الدعوة وقبل. وتم تحديد موعد للزيارة وأخطرت به جولوروخ.

وفى يوم زيارة الشاهنشاه قامت جولوروخ بإضاءة المنزل والحديقة بمئات المصابيح والشموع واستعانت بأفضل الطهاة فى المملكة ليضطلعوا بمهمة إعداد وليمة شهية كما استدعت الموسيقيين والراقصين ليتولوا الترفيه عن الضيوف الملكيين.

عندما وصل الباديشاه وموكبه استقبله حسن بكل إجلال وتوقير واصطحبهم جميعًا لباحة القصر حيث الأرضيات المغطاة بسجاجيد مرصعة بالجواهر المغلفة بالذهب ليمضى عليها الشاه بينما يحيطه وزراؤه ورجال البلاط – الوزيران وزوجتاهما أختا جولوروخ،

شاهروخ وماهروخ على جانبي الملك، ويصطف الآخرون في صفوف وفقًا للمقام والمكانة. في تلك الأيام لم تعتد النساء على صحبة أزواجهن في تلك المناسبات، لكن حسن حرص على أن تمتد الدعوة لتشمل شاهروخ وماهروخ وأصر على حضورهما، لذا أمر الشاهنشاه ابنتيه بالحضور والانضمام إلى موكبه.

تم تقديم المقبلات على أصوات الموسيقى المبهجة التي يرقص عليها أشهر الرقصات المحببة، حيث بدت الراقصات كما لو كن من حوريات الفردوس تلك الحوريات التي وعد الله بهن المتقين في القرآن بينما تمايلن مثل العصافير بطرحهن وأرديتهن المزركشة اللامعة. وقد ذهل الشاه من بذخ استقباله وفخامة القصر الذي فاق قصره بكثير في رونقه وأبهته.

طلب الآن الشاه مقابلة سيدة القصر زوجة حسن كبير التجار، فقد أراد أن يقابل تلك السيدة التي أعدت كل هذا الاحتفال الضخم لاستقباله.

هنا قال حسن: "إذا كنت جلالتك ترغب في ذلك ستكون هي سعيدة لتأتي وتعبر عن احترامها وإجلالها لجلالتكم."

كانت جولوروخ في واقع الأمر مختبئة طيلة الوقت خلف إحدى الستائر، تشاهد ما يحدث وكانت تنتفض شوقًا لأبيها الحبيب الذي بدت عليه علامات الكبر وكان يبدو حزينًا. اتجه حسن نحو الستار الذي تقف

خلفه جولوروخ، وكشف عنها ثم تقدمت جولوروخ التى كانت فى أوج تألقها بملابسها الفاخرة وحليها، وبدت تماما مثل "نجمة الصباح" تقدمت نحو الصحبة الملكية وهنا أدرك الشاه أنها ابنته وغمره السرور وفاضت عيناه بدموع الفرح! وتأثر الجميع بالموقف وهرولت الأختان لتعانقا جولوروخ.

وتنهد الشاه وقال: "حقًا ابنتى كم كنت أفتقدك!...فلم أتوقف يومًا عن التفكير فيك والندم على قسوتى معك، ولكن عندما حاولت أن أقتفى أثرك أخبرونى أنك اختفيت تمامًا واعتقدت أنك غادرت المملكة."

ضحكت جولوروخ وقبلت أباها قائلة: "ألم أقل لك أبى الحبيب إن العباءة هى التى تحمى المعطف وليس العكس؟ المرأة هى العباءة التى تحمى المعطف وليس العكس؟ المرأة هى العباءة بينما الرجل هو المعطف والمرأة هى التى تصنع الرجل وليس العكس." والآن اعترف الشاهنشاه بأن ابنته محقة، حيث إن دعم المرأة وحمايتها هى التى تكفل سعادة ونجاح الرجل.

أمر الشاه أن تعلق الزينات والمصابيح فى المدينة كلها استعداداً لإقامة الزفاف فى القصر الملكى، ودعا الجميع فى كل المساجد للعروسين الحديثين واستمرت الاحتفالات فى المملكة كلها سبعة أيام وليالٍ. ومنذ ذلك الحين عاش جولوروخ وحسن فى نعيم ورزقهما الله بنينًا وبنات.

والآن أنا على يقين أنكم تتساءلون من هم الغرباء الثلاثة. لقد كانوا حظ حسن. ففى الحياة تعتمد أمور كثيرة على الحظ، لكن لو كان حسن أحمق، أو لم ينصت إلى نصائح "الغرباء الثلاثة"، لما ظل على قيد الحياة كما كشفت أحداث القصة فيما بعد. يأتى الحظ متنكرًا فى أزياء عدة لكن أغلب الناس لا يدركونه ولا يستغلونه. تجلى حظ حسن أولاً بمجئ جولوروخ واقتنص الفرصة بدلاً من أن يمتطى مطية العناد، ويواصل العيش على نمط حياته القديم فى غياهب التنور كما كان الحال قبل مجئ جولوروخ، لذلك حالفه الحظ وعاد إليه عندما كان فى مسيس الحاجة إليه، حيث جاء فى شكل الرجال الثلاثة الذين قابلهم على قارعة الطريق.

لكن يمكنك أن تتساءل ما هو الحظ؟!

والآن تمت القصة ويمكنك أن تخلد للنوم رغم أن الطائر لم يعد إلى عشه بعد.

اللص والعروس الماكرة

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كان فى أصفهان منذ زمن بعيد تاجر لديه ابنة تدعى روشان ("مشرقة"). وكانت روشان ابنته الوحيدة، وقد أحبها أكثر من أى شخص فى هذا العالم. وتزوج هذا التاجر وهو لا يزال شابًا ووضعت له زوجته عدة أبناء، إلا أنهم جميعًا قد توفوا قبل أن يستطيعوا المشى. وفى تلك الأيام كانت وفاة الأطفال أمرًا شائعًا، بغض النظر عما تفعله الأسرة وعن مدى الرعاية التى يتلقاها الطفل. وقد اعتاد الناس أن يطلبوا من الشيوخ أن يكتبوا أدعية خاصة على قطع من الورق ليقوموا بربطها بملابس الصغار فى صدورهم، وهو ما كان يطلق عليه أحجبة ذلك بغرض حماية صغارهم من الأمراض والحوادث والحسد. وفى بعض الأحيان كانت تفلح هذه الوصفات الدؤوبة وينجوا الصغار، وأحيانًا أخرى كان الطفل يتوفى رغم أى شىء قد تم فعله للحفاظ عليه حيًا. وكانت روشان هى الطفلة الوحيدة التى نجت من الموت لأبيها وكبرت لتصبح فتاة شابة واعتاد أبواها أن يطلقا عليها لقب "ضوء عيونهما".

كبرت روشان وأصبحت فتاة جميلة فى الرابعة عشرة من عمرها وآن لها أن تتزوج. فقد اعتادوا أن يقولوا يجب أن تتزوج البنت قبل أن تنضج كأنثى، وإن الرجل يجب أن يتزوج ما إن يصبح رجلاً ليكونا بمنأى عن الرذيلة. تقدم الكثيرون لخطبة روشان ووجد أبواها صعوبة فى المفاضلة بين خطابها. وفى النهاية قبلا أن يزوجاها من سعيد ابن أحد التجار فى السوق، والذى بدا أنه اختيار مثالى فالرجل وسيم ومتواضع وراقٍ.

انتقلت روشان إلى بيت زوجها فى موكب زفاف، تتبعها عربات ثلاث محملة بشوارها بعد انتهاء مراسم حفل زفاف كبير دعى إليه نصف تجار السوق وأطعم فيه الفقراء أيضاً.

وكانت حماة روشان أرملة طيبة وقد قالت لها : "والآن وقد مر بعض الوقت على زفافك وتعلمت كيف تدبرى شئون المنزل، يمكننى أن أتركك وأرحل لزيارة أخى فى شيراز فقد بلغ من العمر أرذله وأود زيارته لأمضى بعض الوقت بصحبته."

حزمت الحماة أمتعتها بالقدر الذى يكفيها لإقامة طويلة وانضمت إلى قافلة متجهة إلى الجنوب.إلى شيراز.

كانت روشان كل يوم بعد رحيل زوجها إلى عمله فى الصباح تنغمس فى قضاء أعمالها اليومية وزيارة الأهل والأصدقاء وإعداد العشاء وانتظار عودة زوجها إبان غسق الليل. وفى عصر أحد الأيام

عندما أنهت مهامها ولم تكن ترغب فى نوم القيلولة، فتحت صندوق مصاغها وجعلت تنظر إلى محتوياته، وكان يروق لها قرط اللؤلؤ والفيروز الذى أهدته لها أمها لكى ترتديه فى المناسبات الخاصة، وأقمشة الكشمير والمفارش الفضية والذهبية التى أهدتها إياها لتكون مفارش وأغطية. سمعت عندئذ طرقًا بالباب وتعجبت من يكون الطارق.

قالت: "من؟" لكن لم يجب أحد، واستمر الصوت كما لو كان شخصًا ما يحاول كسر قفل الباب ليقوم باقتحام المنزل. انتابها الشعور بالخوف بشدة – فقد كانت بمفردها بالمنزل ولن يسمعها أحد ولن تستطيع أن تدافع عن نفسها لو حدث لها مكروه.

وتعجبت ماذا عساها أن تفعل!! ثم فتح الباب وخطا رجل شاب. عرفت روشان فى التو أنه لص، إذ كان يرتدى ملابس رثة وحافى القدمين حتى يتسنى له التسلل خفية، وكان يحمل حقيبة كبيرة فارغة وهو بلا شك يخطط لملئها.

أصيبت روشان بالهلع ولكنها تمكنت من ضبط نفسها وقامت على الفور لتقف وقالت: "مساء الخير، سيدى العزيز، عمى العزيز! مرحبا ! مرحبا! ألاليت عينى بساط تخطو عليه تفضل بالدخول.. سعدت كثيرًا برؤياك! أين كنت طيلة هذه السنوات؟ كنت أتحرق شوقًا لأسمع منك كل أخبار أسفارك. لقد افتقدناك كثيرًا خاصة فى حفل زفافنا، وكانت أمى تقول: "لم أرك منذ أن كنت طفلة – أراهن أنك لا تدرك من أنا! لماذا لم

ترسل إلينا لتخطرنا بنبأ وصولك؟، لو كنت فعلت ذلك لكان بإمكاننا أن نرحب بك بشكل لائق أكثر من ذلك، كنا قد ذبحنا خروفًا وأعددنا وليمة ضخمة ولكن سنجود بالموجود. تبدو متعبًا للغاية بعد رحلتك الطويلة كما تبدوا جائعًا. رجاءً اجلس واسترح على هذه الأريكة، وسأقوم بتدفئة المياه لأغسل قدميك وسأعد لك الطعام فى التو."

وما إن قالت ذلك حتى اندفعت روشان نحو المطبخ لتحضر ما تريد، أما اللص فقد ذهل لما قالته روشان وترحيبها به وبقائها بمفردها بالمنزل. كان على وشك الهروب ولكن عادت روشان حاملة إناء مياه ساخنة وقطعة صابون ومنشفة.

قالت: "أعرف جيدًا أنك متعب للغاية. لذا سأقوم أنا بغسل قدميك بنفسى." لم تعطه فرصة ليعترض على ما تقوم به، بل جلست وكشفت عن قدميه وقامت بغسلهما وتدليكهما وتجفيفهما تمامًا مثلما اعتادت أن تفعل مع زوجها، ثم قامت بغسل يديه ووضعت الحناء على أصابع يديه وقدميه ثم قالت: "امكث حتى تجف الحناء وسأذهب أنا لأحضر الغداء: بالإضافة إلى دفئها فإن الحناء تتمتع بلون جميل والعديد من المزايا الطبية المفيدة للجلد، فهى عندما تتخلل مسام جلد القدم تزيل التعب والإرهاق عن الجسد."

وجد اللص الأحمق يديه وقدميه مغطاة بعجينة الحناء السميكة وأراد مرة أخرى أن يفر، ولكنه وجد روشان قد جاءت تحمل صينية الطعام. أحجم اللص الذى كان يتضور جوعًا عن الرحيل: بل تناول

الطعام بنهم وتعجب، ماذا عساه أن يفعل الآن؟. بينما استمرت روشان فى الحديث بكل ود طيلة الوقت حتى لا تدع مجالاً للصمت. مما قد يشعر اللص بالحرج إزاء ماذا يجب عليه أن يقوله أو يفعله، وأخبرته بنبأ زوجها وكيف أن زوجها رجل يتمتع بالذكاء والجدية والكياسة، كما أن حماتها أيضاً امرأة بارعة وفطنة علمتها فنون الطهى والحياكة وما إلى ذلك من مهارات يجب أن تلم بها أى امرأة.

قرر اللص بعد أن اطمأن إلى ملابسات الموقف، أن يؤدى دوره من خلال التمثيل على روشان والتجاوب معها لبعض الوقت، حتى يتسنى له فى أسرع وقت أن ينتهز الفرصة ويسرق كل ما خف وزنه وغلا ثمنه، ثم يلوذ بالفرار فى التو. اطمأن اللص لهذه الخطة وجعل يستمتع بالأرجيلة التى أعدتها له روشان وسرعان ما غلبه النعاس. وبالفعل كان ذلك هو ما تطلعت إليه روشان - وهنا هرولت فى صمت مسرعة إلى الجيران وأخبرتهم بنبأ اللص. أقبل الجميع إلى بيتها وأمطروه بوابل من اللكمات حتى كاد يموت ضرباًثم فر هارباً.

وقد أعجب الجميع بروشان لما تتمتع به من الحضور الذهنى والذكاء وسرعان ما تلاشت ذكرى هذه الواقعة. وعاد اللص إلى بيته حامداً الله على نجاته بأعجوبة من الموت المحقق. فبعد أن التأمت جراحه لم يستطع أن ينسى لوهلة أن هذه الفتاة الشابة تمكنت من خداعه بدهائها وعزم على الانتقام منها.

مر الوقت وعادت حماة روشان من رحلتها الطويلة، وفى أحد الأيام بينما هى جالسة برفقة روشان بانتظار عودة سعيد إلى البيت سمعتا طرقًا على باب المنزل.

وتعجبتا من ذا الذى سيزورهما فى هذه الساعة، فلم تكونا بانتظار أى ضيوف. وعندما فتحتا الباب وجدتا رجلين معهما ثلاثة صناديق كبيرة تحملها عربة يجرها جوادان.

قال الرجلان: "لقد جئنا من محال الحاج أمين... أرسل هذه الهدايا ويرغب فى أن تحتفظوا بها فى بيتكم، بينما هو مسافر للخارج لعدة شهور، حيث تحتوى هذه الصناديق على أشياء ثمينة لا يرغب فى أن يتركها بالمخزن حتى لا يسطو عليها اللصوص."

همت روشان باختلاق عذر لرفض مطلبهما، فقد شعرت أن ثمة شيئًا مريبا فى الأمر لكن حماتها بادرت وقالت: "بالتأكيد أدخل هذه الصناديق وسأريك أين يمكنك وضعها."

قامت الحماة باصطحاب الرجلين إلى الغرفة الخلفية حيث كانت تحفظ الأسرة أشياءها الثمينة وبالفعل وضعا الصناديق ومضيا.

وما إن انصرف الرجلان حتى قامت روشان بفحص الصناديق، ووجدت أن اثنين منهما مغلقان والثالث غير مغلق فقامت بشراء قفل كبير وضعته على الصندوق الثالث واطمأنت إلى أن الصناديق الثلاثة موصدة تمامًا ومؤمنة.

والآن يرقـد بداخل كل صندوق رجل وهم أتبـاع اللص، وكـان مخططهم أن يخرج مساءً الرجل المختبئ فى الصندوق المفتوح ليخرج اللصين الآخرين من الصندوقين الموصدين ليقوموا جميعًا بالسطو على المنزل بالكامل ويلوذوا بالفرار. آوى الجميع إلى الفراش بعد تناول وجبة العشاء، وهنا تسللت روشان من فراشها خفية وذهبت إلى المطبخ حيث قامت بغلى قدر كبير من الزيت. ثم أحـدثت ثقبًا كبيرا فى كل صندوق من الصناديق الثلاثة، ثم قامت بسكب الزيت المغلى عبر الثقوب الثلاث. وهنا صـرخ الرجـال بداخل الصناديق من فـرط الألم وتوسلوا إليـها أن تعفـو عنهم وتنقذ حياتهم ولكن فات الميعـاد. فتحت روشان الصناديق الثلاثة بعد مرور عدة دقائق قليلة لتجد أن الرجـال الثلاثة قد أصيبوا بحروق خطيرة أفقدتهم الوعى. قامت بسحبهم واحداً تلو الآخرلخارج المنزل وأوصدت الباب وأوت إلى فراشها.

أطلت من النافذة فى صباح اليوم التالى لترى ما إذا كان الرجال الثلاثة مازالوا بالمكان حيث ألقت بأجسادهم وهم مغشى عليهم أم أنهم قد رحلوا. أما اللصوص الثلاثة فكانوا قد هرعوا إلى بيت كبيرهم بعد أن استعادوا وعيهم ليقصوا عليه نبأ السيدة الداهية وما فعلته بهم. شعر اللص بالإحباط والغضب وجعل يلعن هذه السيدة الداهيـة. ثم قرر أنه أصبح لزامًا عليه أن يضع خطة محكمة تمكنه من قتل روشان ليثأر لنفسه ولأعوانه وإلا سيذاع نبأ المرأة التى فاقته دهاءً وحيلة وسيفقد سطوته على صغار اللصوص وزعماء العصابات الأخرى.

والآن وقد جلبت روشان بفألها الخير لزوجها وصار ميسور الحال وهو بصـدد حج بيت الله الحـرام. وفى هذه الأيام كـانت رحلة الحج تستغرق وقتًا طويلاً فضلاً عن كونها محفوفة بالمخاطر، وكان لزامًا على الحاج أن يترك لبيته على الأقـل ما يسد حاجته من نفقات عام كامل وإلا تصبح الحجة غير واجبة. حزمت روشان أمتعة زوجها بكل عناية الزوجة المحبة، وتأكدت أن لديه كل لوازم السفر وصحبته فى يوم رحيله إلى بوابة المدينة حيث انضم إلى قافلة الحجاج متجهًا إلى بيت الله الحرام فى مكة.

ولم يمض على رحيل زوج روشان شهر، حتى جاءت أنباء غرق السفينة التى كانت تقل قافلة الحجاج؛ حيث هبت رياح عاتية مفاجأة مما أسفر عن غرق السفينة واختفاء القافلة بأكملها. أصبحت روشان أرملة وهى ما زالت فى العقد الثانى من عمرها، ولم يكن هناك شىء أو شخص بمقدوره مواساتها وتهوين الأمر عليها! يالها من فجيعة! بعد مرور الأربعين يومًا – فترة الحداد التى استمرت فى السوق وبين الأسر المكلومة، عادت روشان إلى بيت أبويها كما كان متعارفا عليه آنذاك وفقًا للعادات والتقاليد، وقررت حماتها أن تعود إلى شيراز لتقضى ما تبقى من حياتها مع أخيها وأسرته.

خلال تلك الفترة كان اللص قد تيسر وتمكن من جمع ثروة طائلة وذاع صيته وسط منافسيه. لكن الرجل لم يستطع أبدًا أن ينسى روشان وعندما علم أنها أصبحت أرملة وعادت للعيش فى بيت أبيها وضع خطة محكمة لينتقم منها على ما أذاقته من إهانة مريرة.

كان اللص يعرف امرأة داهية تدعى زرناج خانوم (سيدة ذكية) لها باع في العمل كخاطبة فضلاً عن الاتجار بالجواري، وقد عقد مع هذه السيدة صفقة. طلب منها أن تتقرب إلى روشان وأمها وتصبح صديقة للأسرة وتقنع روشان أن تصطحبها إلى المسجد، وهنا تحضرها إلى بيت اللص ويتولى هو باقي الأمر. أخبرها اللص أنه وقع في غرام روشان ويرغب في الاختلاء بها لمدة حتى يتسنى له أن يقنعها بالزواج منه. وعد اللص زرناج خانوم في حال إتمامها لهذه المهمة بمكافأه صرة ملؤها ذهبًا.

رفضت في بادئ الأمر زرناج خانوم هذه الصفقة، ذلك لأنها كانت بالفعل تعرف روشان وكانت تخطط لأن تزوجها برجل آخر لتجمع من وراء ذلك ثروة ضخمة، وخشيت أن يقوم ذلك الرجل بهتك عرضها أو على الأقل تلويث سمعتها، الأمر الذي من شأنه أن يقلل فرصة روشان في زيجة حسنة، خاصة وأنها أرملة أي ليست بكرًا. وبعد أن عرض اللص مضاعفة المكافأة لتصل إلى أربعة أضعاف العرض الذي طرحه في بادئ الأمر، انصاعت زرناج خاتون لرغبته في نهاية الأمر وقالت: "دع الأمر لي لكن يجب أن أخبرك أن الأمر سيستغرق بعض الوقت."

في بادئ الأمر قامت زرناج باستئجار حجرة بالقرب من بيت روشان حتى يتسنى لها أن تراقب المترددين على منزلهم. وفي صباح أحد الأيام بعد ذهاب أبي روشان إلى عمله، طرقت زرناج باب بيت روشان وقدمت نفسها على أنها جارة جديدة ترغب في التعرف عليهم.

رحبوا بها فى المنزل وقدموا لها كوبًا من الشاى وبعض الحلوى لكنها رفضت تناول أى شئ متعللة بالصوم. رغم أنه لم يكن شهر رمضان(١). وقد أوضحت أنها ما هى إلا أرملة فقيرة تصوم أغلب أيام السنة وتقضى أيامها بالمسجد تتعبد وتعيش فقط لعبادة الله وتطبيق شرعه. وكانت تمسك بيدها مسبحة جعلت تذكر اسم الله ورسوله والأئمة والقديسين، مرددة أن الآذان والألسنة الآثمة هى التى تخضع للغيبة والرذيلة ومن الأفضل أن نشغل أنفسنا بذكر الله والتأمل فى خلقه.

تأثرت كثيراً أم روشان بزرناج خانوم لما لمسته من تقواها وحكمتها وأخبرتها أنهم يرحبون بزيارتها فى أى وقت.

أما السيدة الماكرة فقد شكرتها قائلة: "اللهم أبق بيتك ويقيك أنت وابنتك الجميلة شر الأعين الحاسدة" وما إلى ذلك من الأدعية.

ومنذ ذلك اليوم جعلت تختلق الأعذار لتتردد على بيت روشان. فتأتيهم يومًا لتستعير الغربال حتى تنخل الدقيق وتصنع الخبز، ويومًا آخر تأتى لتتوضأ عندهم حيث نفد ما لديها من مخزون المياه، واليوم الثالث تحضر لهم الحلوى التى صنعتها، كل ذلك والمسبحة لا تفارق يدها وتهمس بالدعاء وترفع عينيها للسماء تدعو وتتظاهر بالرضا والخضوع لقضاء الله. كل ذلك ووالدة روشان التى كانت ساذجة بالقدر الذى تتمتع زرناج خانوم بالدهاء، كانت تعتبر زرناج بمثابة صديقة حميمة ذلك بعد أن خدعت بما تبديه الأخرى من نفاق.

قررت أم روشان بعد مرور عدة أشهر أن تذهب لزيارة أختها التى انتقلت للعيش فى الجانب الآخر من البلدة وتركت روشان بالمنزل لتأخذ على عاتقها القيام بالأعباء المنزلية.

حضرت زرناج فى صباح اليوم التالى لتنبئ روشان برسالة من أمها مفادها أن الأم تريد روشان أن تحضر على الفور، ذلك لأن ابنة خالتها بصدد الزواج على وجه السرعة، وأن الأسرة تصر على حضورها حفل الزفاف، وقد أرسلوا خيولاً ورجلاً لإحضارها وستكون زرناج خانوم بصحبتها. ووقفت أمام المنزل عربة بيضاء تتوج بالزينات وتجرها خيول أصيلة.

لم تكن روشان تعرف أن ابنة خالتها بصدد الزواج لكنها سرت كثيرًا لهذه الأنباء. وفى تلك الأيام كان الصغار لا يزالون يسمعون كلام الكبار حيث إن رغبات أمها كانت لديها بمثابة أوامر غير قابلة للنقاش ويجب تنفيذها.

انطلقتا وظلتا فى الطريق حتى وصلتا أبواب المدينة ولم يلح بالأفق أثر لبيت خالتها.

تساءلت روشان: "كم يبعد بيت خالتى؟"

فأجابت العجوز الداهية :"ليس ببعيد فقد أوشكنا على الوصول."

وصلتا بعد قليل إلى سور يحف أرضًا كبيرة. توقف قائد العربة أمام باب ضخم وفتحه بمفتاح كبير، وقادهما إلى حديقة غناء تناثرت بها أغصان أشجار الفاكهة وسواقى المياه وبيت جميل يلوح فى نهاية الممر.

توقعت روشان أن يكون البيت مكتظًا بالمدعوين يعج بالموسيقى والمرح ولكنها وجدته مهجوراً مظلمًا موحشًا. إذًا أين الزفاف؟ اتجهت لتسأل الخادم الذى اختفى بدوره من أمامها، وطلبت منها زرناج أن تتمهل لتذهب هى وتستطلع الأمر وتعرف ماذا يحدث وأين ذهبت أمها_ربما كان الزفاف فى بيت آخر بالقرب من هذا المكان.

وما إن غادرت زرناج الحجرة حتى أدركت روشان أنه ربما يكون اللص هو الذى حاك هذه المؤامرة ونصب لها ذلك الفخ بإدعاء أنه زفاف ابنة خالتها، وقد تكون تلك العجوز متآمرة معه. كانت دائمًا روشان بخلاف أمها الساذجة تشك فى أمر هذه السيدة وتعتقد أنها تبالغ فى التظاهر بالتقوى والورع.

لكن ماذا عساها أن تفعل الآن؟ أدركت فى تلك اللحظة أن الأمر قد حسم لصالح اللص الماكر. هرولت إلى الباب لكنها وجدت أن زرناج كانت قد أوصدته فور خروجها، فضلاً عن أن النوافذ كانت مغلقة بالأقفال هى الأخرى. جعلت روشان تنظر حولها فى أرجاء الحجرة فوجدت أن الأثاث فاخر ووجدت قارورة ملؤها لآلئ نفيسة وبعض الخناجر المرصعة بالجواهر.

لاح لها بصيص من الأمل عبر فتحة يخترقها الضوء بأعلى الباب. كسرت روشان القارورة وملأت جيوبها بأفضل وأقيم قطع الجواهر ووضعت الخنجرين فى حزامها. ثم اعتلت مقعدا قد ألصقته بالباب وتسللت من خلال فتحة الباب ونجحت فى الخروج من الغرفة.

نظرت حولها فوجدت الحديقة خاوية وامتطت فرسًا أبيض وفى هدوء تسللت إلى البوابة حيث كان الباب موصداً بقفل كبير فى حجم أنياب الأسد! لكن يبدو أن الفرس كان معتاداً على طريق آخر حيث توجه إلى باب آخر صغير تخفيه شجرة كبيرة كثيفة الأغصان حيث قام الفرس بدفعه برأسه وفتح الباب لتجد روشان نفسها خارج الأسوار لا تبعد عن الطريق المؤدى إلى المدينة.

هرول الفرس على الفور ما أن شدت روشان لجامه وسرعان ما وصلت إلى بوابة المدينة. وأخيرًا تمكنت روشان من الفرار وفك أسرها! قامت روشان بربط الفرس فى جذع شجرة بالميدان الرئيسى بالمدينة ولاذت بالفرار إلى بيتها وهى تعلم جيداً أن اللص سيقتفى أثر فرسه الأبيض ويتعرف عليها ويستعيدها.

والآن دعونى أنبؤكم بحال اللص، فهو يختبئ بركن فى أطراف الحديقة يسن خنجره ويعد العدة لقتل تلك السيدة "الفاجرة" التى سولت لها نفسها وتجرأت على تحديه - وهو أمهر لصوص الأرض وأعيت الشرطة السبل للإمساك به. وبعد أن تسلح بعدته ذهب إلى البيت حيث كان من المفترض أن تكون روشان محتجزة تجهل المصير الذى ينتظرها. فتح الباب ودخل..لكن ياللهول! لقد طار العصفور! مرة أخرى تجعل منه روشان أضحوكة- مرة أخرى تفوقه هذه السيدة مكرًا ودهاءً بل أكثر من ذلك لقد قامت روشان بكسر القارورة واستولت على أثمن ما لديه من جواهر وخناجر واستشاط الرجل غيظًا وغضبًا.

تذمر اللص وقال: "أين الساقطة الذليلة؟" وقام باستدعاء زرناج خانوم التى هرولت إليه وتعجبت لما ألم به وأخبرته أنها قامت بإغلاق قفل الباب تمامًا كما طلب منها وأنه لم يكن باستطاعتها فعل أكثر مما قامت به. وكانت زرناج غاضبة مما حدث تماما مثله.

وعندما لاحظا الكسر فى فتحة المروحة الموجودة بالجانب الأعلى من الباب، أدركا كيف خرجت روشان من الحجرة. وفور اكتشاف اختفاء الفرس استطاعا أن يقتفيا أثّرها. هرول اللص على ظهر جياده متجهًا إلى المدينة حيث وجد فرسه موثقًا بجذع شجرة فى الميدان الرئيسى بالمدينة. هكذا باءت خطته بالفشل مرة أخرى وأقسم أغلظ الأيمان أن ينتقم من روشان حتى لو كلفه ذلك أن ينفق باقى ثروته.

عندما عادت روشان إلى بيتها بعد أن تمكنت من الفرار وأنقذت حياتها لم تخبر أحداً بشىء عن مغامرتها الأخيرة. عادت أمها بعد أيام قليلة وعلى الفور أرسلت إلى صديقتها زرناج خانوم لتعلم أن تلك السيدة لم يعد لها أى أثر، واعتقدت أنها قد تكون سافرت لتؤدى فريضة الحج حيث إنها امرأة ربانية متأملة وحتمًا ستعود مع قافلة الحجاج.

أما اللص فقد وضع خطة بعيدة المدى حتى يتسنى له الإمساك بروشان وقد أقلع عن السرقة وانتحل اسم الحاج بوزروج (الحاج الكبير)، وأصبح صائغًا واشترى متجرًا فى سوق الصاغة وبدل هيئته تمامًا، فهو الآن الحاج التقى الورع ذو اللحية المعفاة والشارب والمسبحة لا تفارقه

والجلباب الحريرى ومعطفه الطويل ولن يفتضح أمره...لن يدرك أحد أنه هو نفسه ذلك اللص الماكر الذى ذاع صيته وتقشعر الأبدان فزعًا من بطشه وسطوته.

ذهبت روشان فى أحد الأيام إلى السوق بصحبة أمها، ولاحظت متجرًا جديدًا مفعمًا بالمصاغ والجواهر يجلس بداخله التاجر نفسه، وما إن رأته حتى أدركت أنه اللص وهمست: "ياإلهى إنه اللص" وتذكرت كيف أراد أن ينكل بها وكيف تغلبت عليه بدهائها وجعلت كيده فى نحره وهنا ابتسمت. وتعجبت هل يكون قد عزم على إصلاح حاله والسير فى الطريق المستقيم حتى وإن قدر الله عليه رزقه."

وتظاهرت بأنها لم تتعرف عليه ودخلت المتجر حيث قامت بارتداء بعض السوار والسلاسل وسألته عن سعرها وقامت بالفصال وداعبت الحاج بلطف. وقالت إنها ستأتى فى يوم آخر بصحبة أمها لتختار لها هدية لصديقتها وغادرت المتجر. شعر اللص بنشوة الانتصار فى أول جولة بينهما وقلب كفيه ضاحكًا حيث تمكن من خداعها ولم يتسن لها التعرف عليه وكشف هويته الحقيقية.

لم يكن فى هذه الأيام أمرا يسيرًا لأرملة حتى وإن كانت شابة جميلة أن تجد فرصة أخرى للزواج. فقد كان يصعب لامرأة ليست بكرًا أن تتزوج؟ فالأرملة ينظر إليها على أنها "بضاعة تالفة" أو عباءة مستخدمة يتسولها الفقراء، ففرصتها الوحيدة فى الزواج قد تكون فى

زيجة من مسن بلغ من العمر أرذله أو أرمل بحاجة إلى سيدة ترعاه هو وصغاره، لكن روشان كانت امرأة جميلة وثرية وحيوية، لذا فهى لديها الكثير من المزايا ولكنها تركت الأمر لأبويها، متعللة بأنها لا قبل لها بالزواج الآن لأنها مازالت فى حداد على فراق زوجها الحبيب سعيد.

قالت أمها يجب أن تتزوج المرأة وإلا فمن سيتولى أمرها بعد وفاة أبويها؟!"

حاولت روشان أن تهدئ من مخاوف أمها وتخبرها أنها يجب أن تثق بالله ورعايته وأنه فى يوم من الأيام سيأتى الرجل المناسب.

أرسل الحاج بوروج، اللص السابق والتاجر الحالى، فى أحد الأيام وسيطًا معروفًا لخطبة روشان. عمت الفرحة فى قلبى أبويها - بالتأكيد ذلك التاجر الشاب أحد أفضل فرص الزواج لابنتهما فى المدينة فهو يتمتع بصحة جيدة فضلاً عن ثرائه، ولحسن حظ روشان وقع اختياره عليها لتصبح زوجته ولكنهما فوجئا برفضها.

خاطبتها أمها ناصحة:"لا تهدرى فرصتك هذه فقد رزقك الله بزوج صالح والآن يمنحك رجلاً آخر - إذن لماذا ترفضين الاقتران به؟"

إلا أن أباها لم يوافق على رغبتها وقرر أن يقبل عرض التاجر سواء وافقت ابنته أو رفضت.

لم يكن لديها ما تفعله إزاء الموقف سوى الاستسلام لرغبة أبويها، وسرعان ما تم اتخاذ إجراءات الزواج. عندما اقترب موعد الزفاف شعر

اللص بنشوة الانتصار ولا يخفى على أقرانه فى السوق هذه الفرحة فهم لم يجدوا قط رجلاً تغمره هذه السعادة لمجرد قرب موعد زفافه.

وبدت روشان هادئة تعد شوارها ونفسها لمراسم الزفاف الوشيكة. ولكن فى قرارة نفسها كانت على يقين أنه مهما كانت خطة اللص فستتمكن من إحباطها والتفوق عليه. قامت بشراء فراء نعجة سرًا، وملأته بأشهى عصير فاكهة، وجعلت تحشو به جسد دمية ملأت أطرافها بأذرع ورأس وأقدام شمعية وظللت وجهها بمساحيق بحيث تبدو تمامًا مثلها طبق الأصل ثم قامت بإلباس الدمية فستان زفافها والطرحة السميكة حتى أصبحت مطابقة لها تمامًا فى الهيئة. ثم وضعت الدمية فى أحد حقائب شوارها وقامت بشحنها إلى بيت زوجها.

ذهلت روشان من فخامة العرس فلم يدخر اللص وسعا فى الإنفاق على مظاهر الترف والبذخ فى كل شيء، بدءًا من المصابيح المعلقة على الأشجار والأسماك الذهبية فى النافورات فضلاً عن وليمة ضخمة أعدها الخدم للمدعوين، بينما دقت المعازف وتمايلت الراقصات وصدح المطربون بأغانى الحب التى تذيب القلب. وأمضى الجميع وقتًا ممتعًا إلى ساعة متأخرة من الليل.

ثم انصرف المدعوون داعين للعروسين بدوام الرزق والصحة والرخاء وعمار البيت وما إلى آخر ذلك من الأدعية.

وكما جرت العادات آنذاك زفت العروس إلى غرفة عرسها تصحبها نساء أسرتها وأجلست على فراشها بانتظار زوجها. ثم ودعت النسوة

روشان بعد أن قبلنها متمنين لها حياة مديدة سعيدة وأن يرزقها الله بالذرية الصالحة ثم انصرفن.

وما إن اختلت روشان بنفسها في الغرفة حتى أخرجت الدمية من حقيبتها وأجلستها فى مكانها بينما اختبأت هى خلف الستائر وقد ربطت خيطا بعنق الدمية، كلما جذبت الخيط تومئ الدمية برأسها كما لو كانت تجيب بنعم.

دخل الآن العريس الغرفة فى أبهى حلله مستعطرًا بشعره ولحيته الأسودين وبريق عينيه يتأجج. بينما تستلقى على الفراش عروسه الشابة التى بلغت الآن عامها العشرين متألقة فى ثوبها الأبيض وطرحتها الحريرية التى تستر وجهها وكفيها، والتى سيرفعها ليكشف عن وجهها لأول مرة كما هو معتاد آنذاك. وقد ذكى ضوء الشموع وجهها الذى بدا أكثر جمالاً واعتقد أنها تغض طرفها خجلاً كدأب أى عروس فى ليلة زفافها.

ثم همس عابثًا: "وأخيرًا تقابلنا..والآن سنرى كيف ستتمكنين من الفرار منى أيتها الساحرة الشريرة الماكرة الصغيرة! هل اعتقدت حقًا أنك ذكيةٌ؟!" ثم هزت رأس الدمية مومئة بالإيجاب.

زاد سكوتها من كيده حيث تذمر اللص قائلاً: "لم يغلبنى أحد ولم يفقنى أحد قط مكرًا ودهاءً هل تسمعيننى؟"

شدت روشان الخيط مرة أخرى لتحرك رأس الدمية ردًا عليه بالإيجاب.

ثم أضاف: "هل حقًا ظننت أننى أرغب فى الاقتران بامرأة مثلك؟"

أومأت الدمية ردًا بالإيجاب مما جعله يستشيط غضبًا.

"لماذا لا تتكلمين؟ ماذا حدث لكلامك المعسول والثرثرة الماكرة التى اعتدت عليها منذ أول مرة جئت إلى منزلك؟ سأريك كيف يجب أن تعامل من هى مثلك!"

وما إن قال ذلك حتى أشهر خنجره وانقض على الدمية ليطعنها فى قلبها، وما إن فعل ذلك حتى انهمر سائل أحمر شفاف وانتشر على الفراش. ملأ اللص يده بدماء روشان ليشرب منها ويروى ظمأه للانتقام منها. وما أن تذوق طعم الدماء المحلى بالسكر حتى توقف. لم يكن دمًا هذا عصير فاكهة! شراب الآلهة! إنه لذيذ كما وكأنه مياه الكوثر(٢) فى جنة الخلد! لم يتذوق فى حياته شرابًا حلو المذاق كهذا ثم توقف فجأة وشعر أنه قد أتم مهمته.

ثم ألقى بنفسه على الدمية بدأ ينعى حظه قائلا: "آه حبيبتى! ما هذا الذى ارتكبته؟ فإن دمك حلو المذاق تمامًا مثلك! لقد وقعت فى غرامك ما أن وقعت عيناى عليك أول مرة! لكن ماذا عساى أن أفعل فأنا لص جريح أين منى الفوز بمن هى مثلك؟ لو لم أقتلك أنا لقمت أنت بقتلى! إلهى! آه نبيى! أولياء الله الصالحين! أغيثونى! ما هذا الذى فعلت؟"

ثم جعل يبكى وضرب صدره بينما الدمية بدت ملقاة ميتة بجواره. لم يعد يحتمل شعوره بالحزن والأسى الذى اعتصر فؤاده وبدأ ينتحب:

"لا أستطيع العيش بدونك حبيبتى روشان يانور عينى سألحق بك فى العالم الآخر."

وما إن قال ذلك حتى أشهر خنجره ليطعن قلبه ويلقى حتفه مستلقيًا بجوار المرأة التى أحبها، وفى نفس اللحظة هرولت إليه روشان وقبضت على معصمه.

ثم قالت:"ماذا ستفعل عروسك إذا مت أنت؟" وضحكت قائلة: "هل ترغب فى أن أكون أرملة للمرة الثانية؟"

عندما اكتشف اللص أن روشان ما زالت على قيد الحياة وعلى مايرام، انحنى على قدميها وتوسل إليها أن تسامحه لما سببه لها من مشكلات. وكان كل ذلك بسبب حبه لها واستحالة وصوله إليها. أنهضته برفق وقبلته بكل دلال وقضيا ليلة عرسهما سويًا يمارسان الحب بكل نشوة حتى لاح الفجر.

وظل اللص هو التاجر المعروف فى السوق وازدهرت تجارته. وكفر عما ارتكبه فيما مضى من جرائم حيث أغدق الأموال بكرم على الفقراء والمحتاجين وكان دائم الشكر لله الذى أغدق عليه خير متاع الدنيا... الزوجة الصالحة ومنذ ذلك الحين عاش اللص وزوجته الذكية حياة سعيدة وأنعم الله عليهما بذرية كبيرة.

الجمجمة الناطقة

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن كان هناك تاجر ثرى يعيش فى خراسان بمدينة شهد المباركة. جمع أموالاً طائلة وعندما بلغ من العمر أرذله قرر أن يشبع رغبة كانت تعتلج بصدره منذ زمن بعيد، حيث كان يتوق شوقًا إلى أن يجوب العالم بأسره. فقد كان تحقيق ذلك بمثابة حلم يراوده منذ سنوات عدة: فقد كان يحلم أن يتجه إلى الغرب ويزور مكة المكرمة ويثرب، فرحل على متن سفينة عبر بحر العرب متجهًا إلى فارانجستان، واستغرق هناك بعض الوقت فى التعرف على الناس وعاداتهم ثم أبحر عبر المحيط الهندى متجهًا إلى زانزبار وأسواقها المعروفة، وفى نهاية المطاف سافر إلى الهند والصين قبل العودة إلى وطنه على أمل أن يحضر بضائع غير مألوفة فى بلاده من هذه الأراضى العجيبة.

وقد أوصى ذلك التاجر زوجته وابنته التى تدعى أختار ("نجمة") والتى أوشكت على البلوغ فى يوم إخطارهما بنبأ خطته للسفر والغياب لفترة طويلة خارج البلاد، وأوصاهما بالحذر وأن يحفظن أعراضهن

ولا يفعلن شيئًا من شأنه الإساءة إلى سمعته، حيث كان معروفًا بالاستقامة، تلك السمعة التى اكتسبها عبر سنوات طويلة من العمل بشرف ونزاهة فى مجال التجارة.

وقد اعتاد الناس آنذاك أنه فى حال غياب رب الأسرة خارج البلاد أو وفاته يقوم أقرب قريب للرجل برعاية أهل بيته. لذا فى ليلة رحيله ذهب التاجر لأخيه ليودعه ويوصيه أن يرعى أسرته. وكان أخوه يعيش في قرية تبعد عن مدينته بعدة أميال، وإبان عودته لبلده سلك التاجر طريقًا مختصرًا وسط صحارى شاسعة.

وبينما مضى يتأمل رحلته القادمة سمع صوتًا يناديه باسمه. توقف ونظر حوله ولم يجد سوى بيداء خاوية يخيم عليها الصمت والسكون. واستأنف الرجل سيره معتقدًا أن الأمر كله لم يكن إلا من صنيع خياله. لكنه مرة أخرى سمع نفس الصوت يقول: "لقد قتلت أربعين رجلاً وقبل أن أنتهى يجب أن أقتل رجلاً آخر."

اقتفى أثر الصوت حتى اكتشف لفاجعته أن الصوت ينبعث من جمجمة ملقاة على أرض صخرية. داهمه الشعور بالفزع من جراء هذه الظاهرة الخارقة التى أصابته بالخوف والتعجب، ما إذا كان ذلك حلمًا أم أنه يهذى! فكيف لجمجمة مدفونة فى الصحراء ربما لمئات السنين أن تتكلم شأنها شأن رجل من الأحياء؟ كما لو كانت الجمجمة مطلعة على ما يدور بخلده فكررت ما قالته وأضافت:"لا تشك فيما أقوله فأنا أقول الحقيقة."

وتعجب ماذا عساه أن يفعل، فبدلاً من أن يصلى ويدفن الجمجمة قام بالتقاطها ولفها فى منديله: "لا تشك فيما أقوله فأنا أقول الحقيقة" هكذا تمتمت الجمجمة. وبعد أن لف الجمجمة اصطحبها إلى بيته ودلف إلى حجرته وأوصد بابها ثم قام بطحن الجمجمة حتى صارت مسحوقًا أبيض، ثم صب هذا المسحوق فى دورق وأحكم غلقه ثم قال ساخراً: "سنرى إذا كان بإمكانك إخافة الناس بلسانك السليط أو قتل رجل آخر."

اعتاد الناس فى البيوت القديمة أن تكون هناك تجويفات فى الحائط يضعون فيها المصابيح الزيتية تماما كما هو الحال فى يومنا هذا حيث ترى الأرفف فى المنازل. ترك التاجر الدورق فى أعلى تجويف بالحائط بغرفة الجلوس حيث يعد ذلك الموضع موضعًا آمنًا. وفى صباح اليوم التالى أخبر زوجته وابنته أنه لا ينبغى لأى منهما أن يلمس ذلك الإناء أو يدع أى شخص آخر يفتحه حيث يحتوى على زهر الحلال أخطر سموم العالم الذى يودى بحياة أى شخص يلمسه ثم قبلهما وودعهما وانطلق مستهلاً رحلته الطويلة.

ومرت شهور قليلة على رحيل التاجر فى أسفاره، وبلغت ابنته المحيض. لم يكن فى هذه الأيام معتاداً أن تحيض الفتاة بلا ألم خاصة قبل الزواج وإنجاب الأطفال. فاليوم يقوم الأطباء بإعطاء المسكنات للتخفيف من وطأة الألم، لكن فى الماضى لم تكن النساء تملك سوى احتمال الألم حتى تتزوج وتنجب طفلاً، وتكون محظوظة إذا ما توقف

الحيض عن إيلامها بتلك الآلام المبرحة. وفى حالة ابنة التاجر كان الألم يفوق قدرتها على الاحتمال ومرت عليها أيام عديدة يعتصرها الألم حتى أنها باتت تنتظر فترة الحيض وتخشى ويلات آلامها وبمرور الوقت حلت بها التعاسة وقررت أن تضع حداً لآلامها وأن تنهى حياتها.

وفى أحد الأيام عندما فاق الألم كل حدود احتمالها تذكرت ما قاله والدها عن السم القاتل الموجود بالإناء. قامت باحتساء السم واستلقت تنتظر الموت ليحرر روحها. توقف الألم فجأة وبدلاً من أن تلقى حتفها شعرت بالانتعاش يغمر جسدها وأحست بالراحة ولكن تعجبت من موقف أبيها ولماذا قال إن الإناء مليء بسم قاتل من يلمسه سيلقى حتفه فى التو. ربما كانت هذه حيلة منه ليختبر إلى أى مدى سيطيعانه.

داهمتها فى الشهر التالى آلام مبرحة مصاحبة لقرب مجئ الدورة الشهرية ومرة أخرى احتست أختار ملء ملعقة شاى من المسحوق وحدث نفس الشيء - الشعور بالراحة والسعادة فور تناول المسحوق.

لم يكن هناك بد من أن تنفد كمية المسحوق يوماً ما، وشعرت أختار بالهلع ما أن جاءها هاجس آلام الحيض ولكن فى اليوم الموعود لم تحض الفتاة: لكن بدأ رحمها ينتفخ كما لو كانت حاملاً، وبعد مرور عدة أشهر لاحظت أمها أن بطنها قد انتفخت، وذهلت السيدة عندما جال بخاطرها أن تكون ابنتها تعرضت للإغواء من قبل نذل وفقدت عذريتها. ماذا ستقول لزوجها إذا عاد. قد يتهمها بالإهمال وأنها لم تكن أمينة على عرض ابنتها وحتماً سيعاقبها ولن يلومه أحد على ذلك.

واجهت الأم ابنتها وطلبت منها أن تعترف لها باسم الوغد الذى هتك عرضها، لكن الفتاة الصغيرة أقسمت أغلظ الأيمان بأنها بريئة ولم ينل منها أى رجل وأخبرتها عن محاولتها الانتحار بمسحوق السم وعرضت عليها الإناء الفارغ. أحضرت القابلة لتكشف على ابنتها وأكدت القابلة أن الفتاة ما زالت بكرًا ولم يقترب منها أى رجل. وهكذا ظهرت براءتها! وذاعت الأخبار فى المدينة بأن عذراء قد أوشكت على الوضع وفى موعد الولادة وضعت الفتاة طفلاً أطلقت عليه "خداداد" - أى (هبة الله) وعاملوا الطفل كأن يكون عطية من السماء فالسماء مليئة بالمعجزات وفى بعض الأحيان كانت تحدث معجزات ومولد "خداداد" واحدة منها.

ومر الوقت وكبر الطفل وأصبح غلامًا صغيرًا جميلاً ثم أصبح شابًا وسيمًا جذابًا ذكيًا وخدومًا أحبه كل الناس وبخلاف ذلك كله وهبه الله القدرة على الاطلاع على الغيب.

والآن وقد جاب التاجر العالم بأسره شرقه وغربه، ثم أرسل ليخطر أهله أنه بصدد العودة أخيرًا إلى وطنه. فقد الجميع صوابه فى المدينة فالسوق يعج بالأضواء والزينة وتم ذبح الشياه فى مواضع مختلفة ما بين بوابة المدينة وباب بيته. فكما جرت العادات ستعقد الحفلات فى السلاملك الخاص به لمدة سبعة أيام يأتى خلالها أعيان المدينة إلى داره يهنئون بالعودة ويسمعون نبأ مغامرات أسفاره. لم يكن لديه وقت ليقضيه مع أسرته فالبيت يعج دائمًا بالزوار والأقارب والمعارف والأصدقاء.

عندما دخل غرفة المعيشة وجد رجلاً جذاباً للغاية - أجمل رجل رأته عينه - يجلس بجوار ابنته ممسكاً بيديها ويقبل وجهها وما إن رأوه أقبل الجميع نحوه ليحيوه، وقبل أن يتساءل عن هوية الرجل أخبرته ابنته بالقصة برمتها بدءاً من تناول السم وحملها وصولاً إلى وضع الطفل ثم أشارت إلى ابنها قائلة: "ها هو ذا حفيدك ووريثك."

انحنى الشاب وقبل يد جده، لكن التاجر بدلاً من أن يعبر عن فرحه اكفهر وجهه وجلس على الأريكة واعترته حالةمن الحزن الرهيب. لم يستطع أحد أن يتفهم موقفه نظراً لأنه لا أحد يعرف القصة-قصة الجمجمة الناطقة - ولكنه هو نفسه تذكر كلمات الجمجمة: "لقد قتلت أربعين رجلاً وقبل أن أنتهى يجب أن أقتل رجلاً آخر." لا يهم الأربعين قتيلاً لقد كانوا فى الماضى لكن من سيكون القتيل المقبل؟. وتعجب الرجل من هذه القصة. هل سيصبح حفيده قاتلا؟ شعر بروحه تتعذب، واعترى زوجته شعور بالحيرة وشعرت ابنته بالأسى حيث كان استقبال أبيها لابنها بارداً للغاية.

لكن الحفيد خداداد كان هو الشخص الوحيد الذى لم يتعجب من حال جده، وطلب منهم أن يهدأوا، بالطبع سنوات السفر الطوال لها أثر على جده ومع مرور الوقت سيعود لسابق حاله مرة أخرى. والآن سيتولى الرجل رعاية شئون تجارته مرة أخرى، ففتح متجره وبدأ يبيع البضائع النادرة التى كان جده قد جلبها من أسفاره حول العالم.

ذاعت الأنباء حول افتتاح متجر يعج ببضائع جلبت من بلاد الشرق والغرب وهرول الناس جميعًا من كل حدب وصوب ليروا معروضاته وقد ذهلوا ليس فقط لجمال المعروضات، ولكن أيضًا لوسامة الشاب القائم على بيعها. لذا كانوا بعد الشراء يتلكأون لوقت طويل فقط للنظر إلى خداداد. فقد كان خداداد بمثابة يوسف جديد والنسوة المترددات على المتجر بمثابة زليخات جديدات فقدن صوابهن ولعًا به.

سرعان ماذاع صيت خدادات في كل مكان لما يتمتع به من وسامة وجمال خلاب، وفي نهاية الأمر وصلت الأنباء إلى القصر الملكي. وكان لدى الملك ابنة تدعى الأميرة شاهيناز اشتهرت بجمالها وحكمتها، فقد كانوا يصفونها بأنها "جميلة وندية تمامًا مثل الزهرة متعلمة وحكيمة كأن تكون واعظة." كانت شاهيناز قد علمت بنبأ خداداد فأرسلت يومًا ما وصيفتها الشخصية والتي كانت تثق بها وتكون دائما بصحبتها لترى هذا الشاب الوسيم بنفسها وتعود إليها وتقص انطباعاتها عن هذا الخداداد. وما إن وقعت عين الوصيفة على خداداد حتى سقطت على الأرض مغشيًا عليها لما لوسامته من أثر ووقع في نفسها تمامًا كما حدث للنسوة عندما رأين يوسف. ذهبت الوصيفة إلى متجره وتعمدت أن تقف في آخر صفوف المشترين حتى تملأ عينيها بوسامته لوقت أطول ثم أفاقت من نشوتها على صوت أذان الظهر، وأدركت أن الوقت قد تأخر وماذا عساها أن تفعل لتعتذر عن تأخرها؟! أسرعت إلى القصر وهناك اندفعت نحو جناح الأميرة شاهيناز وقد ضربت الحمرة وجهها وكانت بالكاد تلتقط أنفاسها.

سألتها الأميرة عن سبب تأخيرها فأجابت: "إذا كنت أنا قد ذهبت في الصباح وعدت في الظهيرة فستذهبين أنت وتظلين هناك للأبد لن تعودي أبداً." ثم أخذت تصف خداداد ووسامته وجاذبيته ودماثة خلقه وصوته الساحر حتى قالت الأميرة: "كفي" وسامحتها على التأخير.

قررت الأميرة شاهيناز بعد أن استبد بها الفضول أن تذهب لتلقى نظرة على هذا الشاب بنفسها فهي تعرف نفسها جيداً، فهي تختلف عن هؤلاء النسوة، فلا يستطيع رجل أبداً أن يخطف لبها مهما بلغت وسامته. تزيت بملابس سيدة راقية لكنها أمعنت في إخفاء معالم انتمائها للأسرة الملكية، وتسللت في صباح اليوم التالي إلى خارج القصر من باب خلفي للقصر تجنباً لأن يقتفي أثرها أحد الحراس وذهبت إلى متجر خداداد. وكان ذلك قبل أن تجعل ثورة الفوتوغرافيا وجوه الجميع مألوفة للعالم بأسره. بالطبع كانت هناك صور زيتية للملوك والأمراء والوزراء ولكنها كانت أمراً نادراً، ويطالعها فقط القليل من الناس. لذلك لم يدرك هويتها كأميرة أحد من العامة وبوجه عام كان الجميع مبهوراً بخداداد بصورة تصرفهم عن النظر إلى أي شخص آخر. وما إن وقعت عيناها على هذا اليوسف الجديد حتى ذهلت شاهيناز أيضاً بمظهره البراق، لكنها تحكمت في شعورها ولم تبده، واشترت بعض البضائع خاصة الحرير النادر ودفعت له ضعف ثمنها. أما خداداد الذي عرف بأمانته فقد أصر أن يعيد لها باقي النقود مما أثار إعجابها به لما يتسم به من رقي وعزة نفس.

والآن عزيزى القارئ تتبع معى خيوط القصة عندما أخبرك بنبأ الملك فقد كان حاكمًا عادلاً وخيراً يهتم برفاهية رعيته. اعتاد الملك أن ينزل إلى الأسواق بصحبة وزيره فى زى درويشين متجولين يجوبان الشوارع ليلاً ليستمعا لأحاديث الناس ويطرحا بعض الأسئلة لجمع المعلومات، حتى يتسنى للملك أن يطمئن على رعيته وأن العدل هو السائد وأنه لا يوجد من يمارس عليهم نفوذًا ويستبد بهم. وكما جرت عليه العادة كان الناس يفتحون قلوبهم ويطلقون العنان لألسنتهم أمام الغرباء وعابرى السبيل أكثر منه الحال مع الأشخاص المعروفة، ذلك لأن الغرباء سرعان ما يرحلون دون أن يفشوا أسرارهم. لذا فقد كانوا يتحدثون بحرية لهذين الدرويشين العابرين بمدينتهم، معتقدين أنهما من رجال الدين بمنأى عن الأمور الدنيوية، ولا يحتمل أن يفشيا أسرارهم ويتسببا لهم فى وقوع الضرر. وهكذا يستطيع الشاه أن يطبق العدل ويرضى رعيته. ولكنه هو نفسه كان حزينًا. فقد كان يتطلع إلى أن يزوج ابنته الوحيدة لتلد له وريثًا شرعيًا، ولكنها دائمًا ما ترفض خطابها لسبب أو آخر متعللة فى ذلك بأنها راضية بحياتها معه ولا تتطلع لوجود أى رجل آخر فى حياتها.

وفى إحدى الليالى وقبل موعد إغلاق المتجر كان الملك ووزيره يجوبان الأسواق متنكرين ويتعمدان مخالطة العوام. اقتربا من أحد المحال حيث وجدا حوضاً كبيراً تغمره المياه وتسبح به سمكتان ذهبيتان واحدة ذكر والأخرى أنثى وبينما تميل الأنثى وتسبح مراوغة للذكر، وبعد قليل

استسلمت له ضحك الملك. وكان الوزير رجلاً محنكًا فاقترح على الملك شراء هذا الحوض وإهداءه للأميرة شاهيناز. وستدرك الأميرة على الفور نظرًا لما تتمتع به من ذكاء حاد، أن الزواج أمر طبيعى وحتمى لا تستقيم بدونه الأمور، وسوف تقبل أيا من خطابها الكثيرين ووافق الملك على هذه الفكرة.

وعندما عاد إلى قصره استدعى الملك ابنته حيث أراد أن يزور جناحها ويقدم لها الهدية. فرحت شاهيناز بحوض السمك. وسرعان ما رأت كيف حاصر الذكر الأنثى وكيف تقاوم هى بكل كبرياء قبل أن تستسلم له فى نهاية الأمر. وابتسم الملك لابنته معلقًا أنه ربما هى أيضًا قد يأتى عليها يوم وتستسلم لقانون الطبيعة وتختار شريكًا لحياتها. وبدلاً من أن توافق أبيها على رأيه كما اعتادت أو تلتمس بعض العذر له ثارت غاضبة وضربت أبيها بمعصمها قائلة: "أحمق لدينا ما يكفينا!" ثم غادرت الحجرة مسرعة.

حسنًا! يمكنك أن تتخيل كيف استشاط الملك غضبًا وغيظًا! فابنته البارة المحبة قرة عينه تجرأت عليه قبالة وزيره وقامت بضربه! هذا أمر لا يُصَدق. وهنا أمر بإلقاء القبض عليها وحبسها فورًا ثم إعدامها وإلا سيفقد سلطانه وسطوته للأبد. استدعى الشخص القائم على تطبيق أحكام الإعدام -العشماوى- والذى كان على أهبة الاستعداد بصحبة سيفه المسنون لحصد رأس من تسول له نفسه إثارة غضب الملك وطلب منه الملك أن يقف وينتظر ما يتلقاه من أوامر.

والآن لاذت الأميرة بالفرار بينما يبحث عنها كل الخدم في جميع أرجاء القصر، الأمر الذي أشعل غضب الملك وثورته. فشاهيناز ابنته الوحيدة التي ملكت عليه فؤاده حيف سيعيش بدونها؟ لطالما كانت مضرب الأمثال في برها بأبيها واحترامها له -ماذا ألم بها... وهكذا فجأة يتبدل حالها؟ يجب أن يكون لديها سبب إلى حد ما مقنع قد دفعها إلى إتيان هذه الفعلة المشينة، فهو على يقين من ذلك إلا أنه أعيته السبل في أن يدرك حقيقة الأمر. ولكنه في نفس الوقت إذا عفا عنها إثر ما بدر منها من إهانة له، ستهتز أركان عرشه وسيفقد سطوته وسيطرته على مقاليد الأمور في البلاد، لقد كان موقفه حرجًا للغاية. ولكن تبادر إلى ذهنه عبارتها: "الموجود يكفي!" وتعجب لقد كانت هذه العبارة بمثابة لغز وبما أن حله قد يلقي الضوء على سبب غضبها واندفاعها وربما يعينه على إنقاذ حياتها.

طلب الملك من وزيره شرح هذه العبارة وتعجب الوزير بدوره لوهلة واعترف أنه طيلة حياته هو الآخر لم يكن بمقدوره تبرير سلوكها أو ما تنم عنه كلماتها.

صب الملك جل غضبه ويأسه على وزيره حيث حذره وأعطاه مهلة أربعين يومًا لحل ذلك اللغز، وفي حالة فشله سيقوم الملك بإعدامه هو نفسه في ميدان عام. وكان الملك مقتنعًا تمامًا أن وزيره الداهية سيجد حلاً لإنقاذ حياة ابنته الحبيبة وإعادة سلطته المطلقة على البلاد وهنا هدأ الملك قليلاً.

استدعى الوزير المغلوب على أمره كل حكماء المملكة رجالاً ونساء- فلاسفة ورجال دين ومسنين - لكن أيا منهم لم يستطع أن يحل المشكلة ويحسم الأمر بتفسير ذلك اللغز. مرت تسعة وثلاثون يومًا وما زال اللغز غامضًا. وسيتم استدعاء الوزير فى اليوم التالى إلى المحكمة ليتم سحبه بعد ذلك وإعدامه فى ميدان عام على مرأى من الجميع وقد غلبه اليأس هو وأسرته وعموم أهله.

كان الوزير أيضًا لديه ابنة جميلة وذكية تدعى ماهيناز وكانت قرة عينه. اقترحت ماهيناز على أبيها أن يلجأ إلى خداداد ذلك لأن الجميع يشيدون بذكائه ورجاحة عقلة ومعرفته ببواطن الأمور. تردد الوزير فى بادئ الأمر حيث فشل الحكماء فى حل ذلك اللغز، كيف سينجح شاب فى هذه المهمة.. لكن ابنته أصرت على أن ذلك هو المخرج الأخير وعليهم أن يحاولوا فلم يعد يتبقى سوى إحدى عشرة ساعة.

وصل الوزير فى ساعة متأخرة من الليل إلى بيت خداداد وطرق باب البيت. فتح خداداد الباب وحياه دون أن يبدى أى دهشة من زيارته كما لو كان يتوقع هذه الزيارة. قال: "أعرف ماذا تريد...عد إلى بيتك ونم سأكون أول شخص تراه صباح غد."

لم ينم الوزير وأسرته بالطبع طيلة الليل حتى سمعوا صياح الديكة فى الفجر، وسطعت الشمس بين قمم المرتفعات ثم سمعوا طرقًا على الباب.

شهق الوزير قائلاً: "إلهى" واعتراه الهلع فربما يكون هؤلاء مبعوثى الملك قد أتوا ليحضروه ليتم تطبيق حكم الإعدام عليه. ولكن خداداد كان هو الطارق فقد وفى بوعده وجاء! وعندما جاء رجال الشاه بعد ذلك ببضع دقائق لأخذ الوزير فصحبه خداداد.

كان الملك قابعًا فى قاعة العرش بقصره الملكى. ثم قال الملك: "حسنًا... هل استطعت أن تحل لغز كلمات ابنتى؟"

أشار الوزير إلى خداداد قائلاً: "أعتقد جلالتك أن ذلك الشاب لديه الإجابة."

ذهل الملك عندما وقعت عيناه على خداداد لما يتمتع به من طلعة بهية وشعر بالارتياح وأنه ثمة مخرج للأمر دون أن يخسر ابنته الحبيبة أو وزيره الوفى.

طلب خداداد أن تحضر الملكة أم شاهيناز واصطحبها هى والملك والوزير وذهب برفقتهما إلى جناح الأميرة شاهيناز. لم تكن الأميرة هناك ولم يعرف أحد بعد أين ذهبت. ولكنه وجد على الحافة التى تعلو باب الغرفة مفتاحًا مُخبأ. استعان به ليفتح خزينة صغيرة مصنوعة من اللؤلؤ والذهب، وكانت أكثر التحف جمالاً فى الجناح. وفى داخل الخزينة وجد سلسلة من المفاتيح استخدم أحدها لفتح باب سرى عثر عليه فى الجناح يخفيه ساتر كثيف وقاده هذا الباب إلى غرفة كبيرة. وجد فى نهاية هذه الغرفة بابًاآخرخفيًا يؤدى إلى غرفة أخرى... لكل منها باب

خفى ومفتاح خاص تضمه سلسلة المفاتيح، حتى وصلوا إلى نهاية المبنى حيث وجدوا دولابًا صغيراً ونبش خداداد الأرض حتى ظهرت حلقة حديدية كبيرة متصلة بحجر ضخم، ولاح سلم متجه لأسفل مؤد إلى زنزانة مظلمة. وطلب خداداد من الآخرين أن ينتظروا حتى يستكشف الأمر وإذا لم يعد حتى الظهيرة عليهم أن يدركوا أنه قد واجه خطراً ما ويسعوا لغوثه.

نزل خداداد الزنزانة ومعه شمعة لإضاءة طريقه إلى الزنزانة المظلمة والتى وجد فى نهايتها بابًا قام بدفعه وفتح الباب. وخطا خداداد بالداخل وإذا به يفاجأ بعالم آخر جديد فهو الآن أمام أكبر وأفخم قصر...قصر يفوق قصر الشاه فى عظمته وفخامته. تسلل عبر دهاليز القصر وجعل ينظر من خلال ثقوب المفاتيح ليستطلع ما بداخل هذه الغرف. كانت كل الغرف مضاءة بأنواَرباهرة وينتشر بأرجائها أثاث فاخر - سجاجيد حريرية ومشغولات يدوية وتحف ومرايا وشمعدانات. تترامى المقاعد الذهبية وثيرة تكسوها مفارش ومساند، وفى كل ركن رجلان مستغرقان فى لعب الشطرنج.

دفع الباب الأول برفق وما أن فوجئ به اللاعبان حتى وقفا فى التو وأشهرا سيوفهما فى وجهه. هدأ خداداد من روعهما، أما عن هويتهما وكيف وصلا إلى ذلك المكان فقد أخبراه بالقصة برمتها.

بدأ الرجل حديثه قائلاً: "انظر إلى هيئتنا، قد يتبادر إلى ذهنك أننا أحد رجال البلاط الملكى، ولدنا وكبرنا بالقصر منذ الصغر وحقيقة الأمر

أننا قطاع طرق بدأنا حياتنا أيتاماً، وعانينا من الفقر المدقع ولم ينتظرنا في المستقبل سوى ضيق ذات اليد والحرمان، لذلك قررنا أن نخرج إلى الطرق لممارسة السرقة وأصبحنا قطاع طرق نسرق القوافل والمسافرين ونعيش في الغابات وفي نهاية المطاف وقعنا تحت طائلة القانون وصدر علينا الحكم بالإعدام.

"لكن في يوم تطبيق حكم الإعدام في ميدان عام ظهر فجأة رجل خصي لا يعرفه أحد، ولكنه دفع فدية كبيرة لينجي أرواحنا على أن نغادر البلدة بلا رجعة. غمرنا السرور ووضعنا أنفسنا تحت إمرة ذلك الرجل الذي أنقذ أرواحنا وعاهدنا أنفسنا على أن نكون خدمه المخلصين طيلة حياتنا، وطلبنا منه أن يفعل بنا ما يحلو له. وهنا اصطحبنا على ما يبدو في رحلة طويلة معصوبي الأعين، وعندما أزال العصابة عن أعيننا وجدنا أنفسنا في قصر رائع حتى كدنا نظن أننا قد متنا وبعثنا، وأن ما نحن بصدد رؤيته هي الجنات العلى، وما إن ظهر ذلك الرجل الخصي حتى أدركنا أننا مازلنا أحياء. قام هذا الرجل بإلباسنا ملابس الوجهاء وتعليمنا سلوكيات علية القوم وتركنا عندما تأكد أننا أصبحنا نسلك مسلك النبلاء، وحينها قال: "سرعان ما سيتضح لكم حقيقة الأمر."

"عندما انتصف المساء في هذه الليلة جاءتنا سيدة جميلة تماماً مثل البدر لتزورنا وطلبت أن نلاعبها شطرنج وكانت تقضي الليلة مع الغالب منا. لم نكن نعرف من تكون هذه السيدة ولكننا كنا نعيش في انتظار زيارتها، وكنا نلعب الشطرنج على أمل أن نحسن أداءنا في هذه اللعبة

وتزيد فرصتنا في الفوز ذلك لأن قضاء دقيقة واحدة فى أحضان هذه السيدة هى بمثابة نشوة لا تعرف حدوداً."

كان الرجلان قد انتهيا من رواية نبأ هذه السيدة، وأضافا أنهما رغم أنهما لا يسمح لهما بمغادرة هذا القصر السفلى إلا أنهما كانا دائمى السعادة، لأن هذه السيدة الشابة كانت أكثر النساء بهجة بما لديها من خزائن نفيسة من المعرفة والمتعة فهى امرأة لا مثيل لها فى هذا العالم. لكن خداداد الذى كان قد اخترق خصوصيتهما واكتشف سرهما لم يكن لديهم خيار سوى قتله.

فقد قالا :"هكذا أوصتنا سيدتنا نفسها أن أى شخص غريب يكتشف سر هذا المكان يجب أن يتم قتله فى الحال وإلا سيفشى سرها ويفتضح أمرها."

وعد خداداد ألا يفشى سرهما فى حال عتقه وإنقاذ حياته وتركه يرحل، لكنهما رفضا وهنا حاولا الإمساك به وقتله، ولكنه سرعان ما تراجع واستدار واعتلى الأريكة وأعيتهما السبل عن الإمساك به وكان فى موضع قوة حيث إنه يبارزهما من مكان مرتفع ممسكًا بسيف فى يد وخنجر فى اليد الأخرى ونجح فى قتل الرجلين وقطع أذنيهما.

لاح بالأفق مرة أخرى نفس المشهد ففى كل غرفة كان خداداد يلتقى برجلين يرغبان فى أن يفتكا به، ثم يتوسل إليهما لينجو بحياته ويرفضان، فيقوم هو بدوره بمبارزتهما حتى يقضى عليهما وفى نهاية

الأمر قتل الأربعين رجلاً الذين عثر عليهم. اصطحب معه كيس الوسادة الذى ملأه بأربعين زوجًا من الآذان وعاد يخترق الحجرات والأبواب الخفية حتى وصل إلى الزنزانة والسلم.

وما إن عاد حتى وجد كلا من الملك والملكة والوزير بانتظاره على مضض، يعدون الدقائق فى قلق وتعجب ماذا عساهم أن يفعلوا إذا لم يعد خداداد. عادت الأميرة شاهيناز إلى جناحها بصحبة وصيفتها غير عابئة بعواقب الموقف. كانت شاهيناز على يقين من أن خداداد سيكشف سر قصرها السفلى، وسيقتله أول شخص يقابله من عشاقها السريين فكلهم رجال فتية مفتولو العضلات قطاع طرق مدربون على القتال لا قبل لخداداد بهم! وهذا هو مصير أى شخص آخر قد يرسله الملك لاستطلاع الأمر ومعرفة ماذا حدث لخداداد.

وقف الملك بجوار النافذة وعيناه على الشمس فى الحديقة حتى تحركت فى موضع الظهيرة. هكذا انتهت المهلة ولا يوجد أثر لخداداد وما إن هم الملك ووزيره بالتصرف حتى سمعا صوت خطى خداداد يعتلى أدراج السلم وظهر الآن خداداد حاملاً حقيبة الآذان على كتفيه.

وبعد أن حكى خداداد كل ما مر به منذ لحظة نزوله القبو، قام بفتح الحقيبة ووضع الآذان أمام أقدام الشاه قائلا: "هذا هو حل اللغز عندما قالت "أبله! الموجود بالفعل يكفى!" حيث كانت تشير إلى أنها بالفعل

لديها كل هؤلاء العشاق وليست بحاجة إلى أى رجل آخر، "وإنك إذا لم تكن تدرك ذلك إذن فعقلك ليس راجحًا." وهنا صاح "الخصى" قائلاً: "كذاب!" وقفز من وراء الستار وأراد أن يطعن خداداد بخنجره المسموم. لكن الخنجر انثنى كما لو كان قطعة مطاطية وسقط على الأرض. فأخرج خنجراً آخر وهاجم خداداد مرة أخرى فسقط السلاح من يده هذه المرة أيضًا. انتصر خداداد فى نهاية الأمر على عدوه حين لكمه ضربة قوية أودت بحياته. أمر الملك أن تقطع رؤووس الأحد وأربعين رجلاً وتعلق على أبواب المدينة كعبرة للمجرمين.

عندما وصلت الأنباء إلى جد خداداد أن حفيده هزم واحداً وأربعين من قطاع الطرق وقطع رؤوسهم بالنيابة عن الملك تنفس الرجل الصعداء. فقد تحققت نبوءة الجمجمة الناطقة أخيراً: "لقد قتلت أربعين رجلاً وقبل أن أنتهى سأقوم بقتل رجل آخر!"

سر الملك كثيراً لما آلت إليه مجريات الأمور وأعاد تشغيل وزيره وسامح ابنته على أن تحيا حياة العفة والفضيلة من الآن فصاعداً وأن تتزوج فى غضون عامين. انحنت شاهيناز وقبلت قدمى أبيها وبكت وتعهدت أن تكون جديرة بعفوه.

والآن وقد اجتاحت شاهيناز عاطفة نحو خداداد وشعرت أنها وجدت فيه أخيراً رجلاً جديراً بحبها وثقتها، قررت أن تنال قلبه. استدعت شاهيناز خداداد إلى قصرها وقررت أن تجتمع به.

لم يستطع خداداد أن يرفض دعوتها، لكنه كان قد قرر أن يقاوم فتنتها. أخبرته الأميرة أنها قد اتخذت هؤلاء الرجال عشاقًا لأنها وجدت أنه ليس بين خطابها من هو جدير بقلبها، فقد كان دافعهم الأول والأوحد لخطبتها هو تطلعهم إلى مصاهرة الملك وإرث ملكه، بينما أحبها قطاع الطرق دون العلم بهويتها الحقيقية وكانوا يكتفون بما ينالونه منها.

أخبرها خداداد أنه يصدقها فيما تقول لكن هو الآخر بدوره كان لزامًا عليه أن يختبرها قبل أن يقدم على الزواج منها.

قالت: "أخبرني ما هذا الاختبار؟ ذلك لأنك إذا طلبت حياتي فسأضعها أمام قدميك."

فأجابها خداداد بأن عليها أن تثبت ولاءها وأن تكفر عن خطاياها بقضاء عامين كاملين في العبادة والصوم. وأن تغدق على الفقراء ما يعادل وزنها ذهبًا. وسينظر بعد ذلك ماذا يفعل بشأنها.

وافقت الأميرة شاهيناز وأصبحت أكثر عفة وفضيلة وكرست كل ما لديها من ثروة وذكاء لخدمة الفقراء والمحتاجين... كل ذلك تلبية لما أوصى به خداداد وحبًا فيه.

لان خداداد لجانبها في نهاية العام الأول، أما عن الملك أبيها فلم يكن فقط موافقًا على اختيار ابنته، بل كان فرحًا بهذه الزيجة حيث إنه كان يعلم أن خداداد مثال للنبل والشرف وإنه الآن إذا لقى حتفه ستكون مملكته بأيد أمينة.

تزوجت الأميرة شاهيناز من خداداد فى حفل زفاف أسطورى، حيث أعدت الولائم وحلوى "البيلو الألماظية"(١) التى استعان الطهاة فى إعدادها بآلاف الأطنان من الأرز والفاكهة ليتم تقديمها لأهل البلدة ودعا الجميع بالسعادة والعمر المديد للعروسين.

توفى الملك بعد أن اطمأن أن رجلاً حكيمًا ستوكل إليه مقاليد الحكم من بعده وحلت بركة خداداد على البلاد وعاش الناس عهداً من الرخاء والعدالة.

الإناء السحرى وقطعة من ذيل الضأن

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كان هناك أرملة تدعى راشت مرت بأوقات عصيبة وأصبحت فقيرة فقرًا مدقعًا. وكان لديها ابن يدعى صادق تحبه حبًا جمًا فقد كان طيبًا حنونًا يمد يد العون لكل من حوله، إلا أنه كان ساذجًا إلى حد ما بطبيعته يلزمه أن يتحلى بشئ من الحيطة والدهاء. أراد صادق أن يلتحق بعمل لكن أعيته السبل فى الحصول على وظيفة. فقد بذل قصارى جهده ليحصل على فرصة عمل، إلا أن جل محاولاته فى هذا الصدد باءت بالفشل، فلم يستطع أن يجد عملاً سواء فى قريته أو أى من القرى الأخرى المجاورة.

أخبرته أمه فى يوم من الأيام أنه لم يتبق بالبيت ما يمكنهم بيعه ولا يوجد من المال حتى ما يعينهم على شراء رغيف خبز. ورد الابن قائلاً إن السبيل الوحيد الذى قد يضمن لهم دخلاً متواضعًا، أن يبدأ الابن فى عمل مشروع صغير خاص به يبيع ويشترى ضروريات الحياة اليومية لأهل القرية. وافقت الأم ولكن كيف سيدبرون رأس المال؟

أجاب صادق: "لقد فكرت فى ذلك كثيراً... حيث اقترضت نقوداً من جيراننا على أن أقوم بردها وأنوى شراء دونبة[1] (ذيل ضأن) وبيعها بضعف ثمن شرائها وستكون هذه البداية."

واطمأنت أم صادق - أخيرًا سينجلى ما يعانون منه من فقر وعوز؟ ربما يستطيع ابنها أن يرسى البنيان لتجارة يذيع صيتها فيما بعد ويصبح تاجراً مرموقًا يحج إلى مكة ويعود حاملاً لقب حاج. أرسلت ابنها ليشترى بضاعته من الدونبة (لحم الضأن) وكلها آمال عريضة فى أن يتحقق ما تتطلع إليه.

ذهب صادق إلى جزار القرية ومعه النقود حيث اشترى كمية كبيرة من دهن الضأن ووضعها فى صينية وبدأ يجوب السوق منادياً: "أقبل اشتر دهن الضأن الشهى وأضف نكهته إلى العصيدة.... تعالى ألق نظرة على ما لدى من دهن الضأن الصافى." وهكذا جعل ينادى داعيًا الناس لشراء بضاعته وإبان تجمع الناس ليروا بضاعته هبط عليه طائر ضخم سطا على بضاعته ولاذ فى التو بالفرار.

هرول صادق ملاحقًا الطائر بعزم قوته لكن الطائر حلق عاليًا فى السماء ولم يستطع صادق الإمساك به وهنا صاح صادق: "أعد لى دهن الضأن أو حتى نقودى أنت أيها الطائر الجشع!" إلا أن الطائر لم يلق له بالاً وازداد تحليقه فى السماء بينما تدلى من منقاره دهن الضأن وهرول صادق متوسلاً إليه بالله ونبيه.

ومر الوقت بينما الطائر الذى تضور جوعًا ملأه النهم والرغبة فى التهام غنيمته من الضأن، بينما صادق أوشك على التوقف عن مطاردة الطائر توقف الطائر على حين غرة وهبط فى بئر بأحد أركان الحقل.

أخذ صادق يحملق بعينيه داخل البئر لكنه لم يستطع أن يرى سوى نفق مظلم عميق لا يدرك البصر آخره، كما لو كان تتين قد قام بحفر حفرة تنتهى عند مركز الأرض. جلس على طرف البئر وبدأ يبكى ويفكر فى أمه الجائعة والنقود التى استدان بها لجيرانه وأخذ يندب حظه قائلاً: "أيها الطائر الظالم أعد لى الضأن أو النقود!"

ذهل عندما خرجت من البئر يد حاملة الإناء الفضى والملعقة بداخله حلة كريستال، واعتقد صادق فى بادئ الأمر أن هذه الواقعة برمتها لا تعدو أن تكون وهمًا أو قد تكون بفعل شعوره بالجوع الشديد. لم ينته الأمر عند ذلك فقد أحكم قبضته على الإناء، وعلى الفور جاءه صوت من باطن البئر يقول عندما ترغب فى تناول الطعام فقط كل ما عليك أن تنقر بواسطة الملعقة على الإناء ثم اذكر صنف الطعام الذى ترغب فى تناوله.

ما معنى ذلك؟ هل كان ذلك شركا يتم إعداده؟ هل سيصيبه مكروه إذا فعل ذلك؟ واعتراه الشعور بالخوف لكن عندما داهمه الجوع قرر أن يجرب الملعقة والإناء وليحدث ما يحدث. أمسك بالإناء الفارغ وجعل ينقر عليه بواسطة الملعقة وسمى حاجته: "أرز مبهر ولحم

ضأن!"..... "أرز مبهر ولحم الضأن!"... وياللمفاجأة فقد ملئ الإناء بالأرز المبهر ولحم الضأن الساخن الشهى وهنا هم صادق بتناول ملعقة من الطعام وشعر أن ما تذوقه هو أشهى ما تناوله فى حياته.

ثم نقر إناء الكريستال بالملعقة وقال:"عصير برتقال" وامتلأ الإناء بعصير البرتقال الشهى اللذيذ بلون زهر عباد الشمس. شرب صادق البرتقال وشكر الله على هذه المعجزة ووضع مقتنياته الجديدة الثمينة فى حقيبته وعاد إلى المنزل... عاد إلى أمه.

عندما رأت أمه الإناء والملعقة وسمعت قصة صادق المثيرة لم تستطع أن تصدق، ولكنها هى الأخرى كانت جائعة فطلبت منه أن يحاول مرة أخرى مع إنائه العجيب - ربما تتكرر المعجزة. نقر صادق بالملعقة على الإناء طالبًا أصناف الطعام المفضلة لدى أمه "الأرز المبهر وعصيدة الضأن!" ليأتى مطلب أمه وفى التو التهمت أمه وجبتها الشهية فرحة بذلك.

حسنًا أصبح الإناء السحرى هو مصدر دخلهما. فقد كان صادق كل يوم فى وقت الغذاء يعد كمية طعام شهى مستخدمًا إناءه السحرى فضلاً عن العصائر ثم يحملها ليبيعها فى السوق.

وسرعان ما ذاع صيته وعُرِفَ عنه أنه يبيع أشهى الطعام بأرخص الأسعار وأقبل الجميع على متجره يشترون وجباته وكان زبائنه من التجار الأثرياء والباعة الجائلين على السواء. استطاع صادق بعد عدة

شهور أن يجمع ثروة لا بأس بها، تتيح له شراء متجر فى بقعة متميزة فى السوق، وبالفعل اشترى متجراً عند تقاطع أكبر شارعين فى السوق وأصبح مشهوراً وازدهرت تجارته. وفاق طعامه فى جودته ما تقدمه المطاعم الأخرى تلك المطاعم التى انصرف عنها بعض زبائنها وآثروا التعامل مع مطعم صادق. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح صادق رجلاً ثرياً ثراء فاحشاً. فقد أصبح يمتلك قصراً فرشه بأفخم الأثاث والزينة. وتحيط قصره حديقة ملؤها الأشجار والأزهار والنافورات وحمامات المياه.

شعرت أمه بالرضا وكانت تصلى كل يوم لله شاكرة إياه على هذا الترف والنعيم الذى أصبحت تحيا فيه بصحبة ابنها. وكما جرت عليه الأمور، ما أن يستقر حال الرجل فيما يتعلق بالمادة حتى يبدأ فى البحث عن زوجة! وكان صادق شاباً لديه طموح جامح. وفى أحد الأيام طرح صادق موضوع الزواج على أمه. سرت أمه لذلك ورشحت له فتاتين من بنات الجيران كانت ترى فى كل منهما خياراً أمثل له، ولكن تطلعات صادق كانت قد فاقت ذلك بكثير. كان قد رأى ابنة الشاه الأميرة "دورنا" (شبيهة اللؤلؤ) إبان مرورها فى هودجها بالمدينة وقد ملكت عليه الأميرة فؤاده. والآن وبما أنه أصبح تاجراً ثرياً يحظى باحترام الجميع إذن لماذا لا يتقدم لخطبتها.

شعرت أمه أن هذه الفكرة فكرة حمقاء، فهى بمثابة حلم لا يمكن تحقيقه وحاولت أن تقنعه معللة ذلك بأن الطموح الجامح لا يؤدى إلى

شيء سوى إحباط صاحبه، وأن الفتيات الأقل من الأميرة مقامًا سيكن أفضل له؛ ولكن عبثًا تحاول الأم، فالأميرة كانت قد ملكت على صادق لبه وفؤاده وتعهد..."إما أن أقترن بها أو أصبح أعزب للأبد." واستسلمت أمه واقترحت أن يقوما في بادئ الأمر بدعوة الشاه وحاشيته إلى العشاء ليرى الملك صادق.

ذاعت أنباء ازدهار تجارة صادق ووصل الأمر إلى القصر الملكي وكان الملك دائما ما يشعر بالسرور عندما يسمع قصص نجاح رعيته وقد قبل الملك دعوة صادق. وفي ليلة الوليمة جاء الملك بصحبة وزيره واثنين من حاشيته ذوي المراكز المرموقة إلى بيت صادق وتم إدخالهم إلى ساحة الوليمة التي كانت معدة لاستقبالهم فقد فرشت السجاجيد الحريرية والشمعدانات. وبعد التحية قدم للضيوف الملكيين أكثر الولائم تنوعًا ولذةً وقدمت جميع أنواع عصائر الفاكهة تبعتها باقة متنوعة من الحلوى والمثلجات وانتهى الجميع من تناول الوجبة وشكروا صادق وأثنوا على مهارة الطاهي وانصرفوا.

وتعجب الشاه كيف لشاب مثل صادق أن يصبح غنيًا بالقدر الذي يتيح له امتلاك مثل ذلك القصر وإغداق وليمة ثرية مثل هذه الوليمة. اعتاد الناس في تلك الأيام أن يستغرقوا وقتًا طويلاً لجمع الثروات بخلاف يومنا هذا حيث يمكن أن يصبح الرجل ثريًا في وقت قليل. لذلك كان الحجاج دائمًا رجالاً كبارًا في السن. اعتقد الملك أن ثمة سرًا في أمر صادق وتجارته ربما مكونات خاصة أو وصفة ما لا يستطيع أحد

مقاومتها من زبائنه وتمنى لو اكتشفها. استدعى الملك اثنين من أكثر جواسيسه دهاءً وأمرهما أن يتقصيا الأمر لمعرفة سر مصدر ثروة صادق وهدد بسجنهما مدى الحياة إذا فشلا فى مهمتهما.

بدأ الرجلان فى تقصى الأمر وقد عرفا جيداً من البداية أن "صادق" نفسه لن يبوح بحقيقة الأمر لذا عمدا إلى توطيد علاقة صداقة مع مساعده المخلص الذى يدعى "حسن"، وسرعان ما استطاعا أن يكسبا ثقته. كشف لهم حسن أن الطعام يأتى من غرفة صغيرة خلف المطعم ولا أحد يمكنه دخول هذه الغرفة سوى صادق نفسه. وهنا قام الجاسوسان بمدحه وتوسلا إليه أن يتيح لهما دخول هذه الغرفة الخاصة بصادق مؤكدين له أنهما لن يحدثا أى ضرر بالمكان: فقد أكدا لحسن أن جل همهما هو أن يعرفا ما هى المكونات السرية التى يستخدمها صادق حتى يصبح طعامه طيباً شهيًا على هذا النحو. أما حسن الساذج فقد صدقهما وفى إحدى الليالى بعد انصراف سيده أتاح للجاسوسين إمكانية التسلل إلى الغرفة خلسة.

وما أن دخلا الغرفة حتى اختبأ جاسوسا الشاه خلف ساتر وظلا هناك فى انتظار صادق. جاء صادق فى وقت الظهيرة ودخل الغرفة ثم أوصد الباب. هم بإحضار إنائه السحرى وهمس "أرز مبهر وعصيدة!"..."أرز مبهر وعصيدة!" وفى التو امتلأ الإناء بطعام ساخن تنبعث منه رائحة ذكية. وتعجبا ياله من سحر؟ كتما أنفاسهما وظلا بمخبئهما..أرسل صادق الطعام وامتلأ الإناء مرة أخرى كما طلب

صنوفًا أخرى من العصائر وقدمها لمرتادى المطعم وهكذا حتى انصرف الزبون الأخير وهنا خبأ صادق عدته الثمينة وودع معاونه حسن ثم انصرف إلى بيته.

تسلل الجاسوسان من مخبئهما وذهبا فى التو إلى قصر الشاه ليخبراه بحقيقة الأمر. حسنًا عزيزى أنت تعرف جيداً جشع البشر كلما زاد ما لديهم زاد نهمهم. شعر الباديشاه بالحسد والحقد الشديدين وود لو استحوذ على هذا المصدر السحرى للثراء، فقد أراد أن يستحوذ على عدة صادق السحرية. إذا استطاع رجل شاب بسيط أن يجمع كل هذه الثروة فى مثل هذه الفترة الوجيزة إذن ماذا يمكن أن يفعل هو بهذه العدة! بدلا من أن يفرض الضرائب ويجازف بإغضاب رعيته سيستطيع أن يطعم البلدة كلها ويزيد حب الناس وإعزازهم له. أرسل الشاه الجاسوسين مرة أخرى ليحضرا الإناء الفضى والملعقة وبالفعل أنجزا تلك المهمة حيث قاما بالسطو على المطعم ليلاً.

عندما وصل صادق إلى مطعمه فى الظهيرة كالمعتاد فى اليوم التالى ذهب إلى الغرفة الخلفية ليطهو طعام الغداء أصابه الذهول عندما وجد أن عدته السحرية – الإناء الفضى والملعقة – قد اختفت! ياللهول ماذا حدث؟ استدعى حسن واستجوبه وفى نهاية المطاف اعترف حسن أنه قد سمع لرجلين – صديقين – أن يختبئا خلف الساتر ليتعلما من صادق سر حنكته فى الطهى.

ضرب صادق بكلتا يديه على رأسه وجعل يندب حظه ويقول:"ماذا فعلت يا أحمق؟ لقد دمرتنا جميعًا!" من هما هذان الرجلان وكيف وأين يمكنني العثور عليهما، ولم يكن لدى حسن أى إجابة على تساؤلات صادق فقد أخبراه أنهما لا ينويان إحداث أى ضرر وصدقهما. وأثناء مشاجرة حسن وصادق جاءهما رجل ليعلن أن الشاه بصدد طرح وليمة مجانية ويدعو إليها أهل البلدة جميعًا. أدرك صادق على الفور ما حدث وبحوزة من أصبحت عدته السحرية. هرع الآن إلى القصر الملكى ووجد بالفعل أن الطعام الذى يقدم فى الوليمة الملكية يتسم بالرائحة الذكية والنكهة الشهية التى يسيل لها اللعاب. طلب صادق مقابلة الملك ليطالب بإنائه وملعقته وعلا صوته منددا وأحدث ضجيجًا وهنا أمر كبير الوزراء رجاله أن ينقضوا على صادق بجيادهم ويطاردوه حتى يغادر المكان وإن عاد وكرر فعلته سوف يعاقب بالإعدام شنقًا.

انسحب صادق من المكان بعد أن أوسعوه ضربًا وأخبر أمه بالأمر. حاولت أمه أن تهدئه وتخبره أنه يجب أن يثق فى العناية الإلهية، ولكن بداخلها كانت تشعر باليأس خاصة كلما تبادر إلى ذهنها ذكرى ما كانا يعانيان من شظف العيش، تلك الحال التى لا مناص سيعودان إليها.

وما إن استوعب صادق الطامة التى ألمت به حتى هرول إلى البئر الذى اختفى به المارد وجعل يبكى ويندب حظه على طرف البئر ويقول: "اعطنى نقودى أيها الطائر الماكر!"

والآن برزت له من البئر يد وأعطته لجاماً وما أن أخذه حتى وجده قد وثق بحمار ثم اختفت اليد التى ناولته اللجام..وكان الحمار الموثق باللجام سميناً فى تمام العافية والقوة وفكر صادق فى الحال أن بإمكانه الآن أن يأخذه ليبيعه فى السوق بثمن جيد ليبدأ بثمنه تجارة جديدة.

وما إن امتطى الحمار ومضى حتى توقف ليقطف تفاحة من إحدى الأشجار على قارعة الطريق أمسك بلجام الحمار وقال: "حا!" وهنا أصدر الحمار نهيقًا وسقطت من مؤخرته ثلاث قطع ذهبية. التقط صادق الذهب ووضعه فى حافظته واستأنف قيادة الحمار حتى وصل إلى بيته متعجبًا من ذلك الحيوان السحرى الذى أخرج القطع الذهبية من مؤخرته بدلاً من الفضلات. دخل المنزل وأخبر أمه بنبأ الحمار وأن معجزة الحمار قد تخطت إعجاز عدة الطهى وأراها كيف يخرج الحمار ذهبًا من مؤخرته. مرة أخرى بعد أن يصدر عن الحمار ضوضاء يخرج من مؤخرته ثلاث قطع ذهبية.

سرعان ما أصبح صادق ثريًا مرة أخرى لكن هذه المرة حرص على أن يظل الحمار مُخبَئاً بأحد أركان حديقته حيث لن يتسنى لأى شخص معرفة أن الحمار موجود حتى مساعده العزيز حسن.

أراد صادق فى أحد الأيام أن يذهب إلى الحمام ورغم أنه كان يعتاد الذهاب إلى هناك سيرًا ولكنه كان يشعر بالتعب فقرر أن يصطحب حماره بدلاً من السير. وما إن وصل هناك حتى قام بربط

الحمار بشجرة خارج الحمام حيث كان يلعب الصبية أمام الحمام وأوكل إليهم مهمة حراسة الحمار ومشدداً عليهم ألا يجب أن يشده أحدهم من لجامه لأن ذلك من شأنه أن يجعله ينقض عليهم ويركلهم بعنف ويفتك بهم. ومضى صادق إلى الحمام حيث استحم ودخن الأرجيلة وتناول مشروباً فى غرفة الراحة ثم خرج تنتابه رغبة فى النعاس.

أما الصبية ما إن غاب عنهم صادق حتى دفعهم الفضول إلى اللعب بالحمار وفعلوا تمامًا عكس ما أمرهم به صادق وعلموا بنبأ معجزة الحمار فما إن جذبوا اللجام وصاحوا فى الحمار ليمشى حتى أخرج الحمار من مؤخرته القطع الذهبية الثلاث وصاحب الحمام الذى كان يرقب كل ذلك قام بدوره باستبدال الحمار بحمار آخر له نفس الهيئة وقام هو ومساعده بربطه مكان الحمار السحرى.

خرج صادق من الحمام ووجد حماره ليمتطيه ويعود إلى بيته. وقبل أن يربطه فى مخبأه شد اللجام وصاح "حا" ولكن بدلاً من أن يخرج الحمار القطع الذهبية الثلاث كعادته ظل الحمار فى مكانه لا يحرك ساكنًا.

استشاط صادق غضبًا وهرول إلى الحمام وسأل الصغار ماذا فعلوا بحماره أثناء غيابه. ولكنهم أنكروا معرفتهم بنبأ الحمار السحرى بل أخبروه أن صاحب الحمام أخذ الحمار لبيته وأعاده مرة أخرى. أدرك حسن ما حدث وذهب إلى مالك الحمام وطلب استرداد حماره. ضحك صاحب الحمام ومساعده وأخبراه أنهما تخلصا من الحمار.

ماذا عساه أن يفعل الآن؟ مرة أخرة يقع صادق ضحية لسذاجته. عاد صادق إلى البئر وقد تملكه الشعور باليأس وخاطب العفريت قائلاً: "أعد إلى نقودي أيها الطائر الشرير". وجعل يبكي يأسًا وألمًا. وهنا تدلت يد من البئر لتعطيه صندوقًا بداخله عصا وانبعث من البئر صوت يقول: "اضرب – واقتل!"..."اضرب – و – اقتل" لو لم تكن تقصد ذلك بالفعل.

أخذ صادق الصندوق وعاد إلى بيته وما أن دخل غرفته حتى أوصد الباب وقام بفتح الصندوق وضرب عليه بالعصا قائلاً: "اضرب واقتل"... هنا ظهر في التو ثلاثة فرسان محاربين مسلحين في تمام عدتهم بزي المحاربين شاهرين سيوفهم حيث وقفوا قبالته وقالوا: "سيدي اؤمر تطاع! من تريدنا أن نضرب؟ من تريدنا أن نقتل؟"

ذهل صادق! وأمر الجنود بالانصراف إلى حيث أتوا وأن ينتظروا حتى يأتيهم أمر منه وهنا تحول الجنود إلى نقاط صغيرة واختفوا داخل الصندوق.

خبأ صادق صندوقه المعجز في دولاب واتجه إلى القصر الملكي. وهناك أخبر الباديشاه أنه يريد إناءه الفضي وملعقته على أن تعود إليه عدته في غضون أيام ثلاثة وإلا سيعلن عليه الحرب، وهنا سخر منه حرس الشاه واعتبروا أنه فقد صوابه ولكن صادق لم يعبأ بما قالوا وتلميحاتهم المهينة وعاد إلى منزله.

وبعد مرور ثلاثة أيام عاد وفى هذه المرة كان قد أحضر صندوقه السحرى وطلب إناءه الفضى وملعقته ومرة أخرى لم يعبأ حاشية الباديشاه بوعيده وأمعنوا فى السخرية منه والاستهزاء به.

قال صادق: "حسنًا إذا كان ذلك هو رد الباديشاه... فلتكن حربًا!"

مضى صادق إلى حقل بمكان ناءٍ وأخرج صندوقه السحرى وضرب عليه بالعصا قائلاً: "اضرب - و - اقتل!"اضرب - و - اقتل."

وفى التو ظهر ثلاثة جنود فى تمام عدتهم قائلين: "أؤمر تطاع سيدى!..من تريد أن نضرب؟ من تريد أن نقتل؟"

مرة أخرى ضرب الصندوق بالعصا وردد نفس المقولة وظهر ثلاثة جنود أخرين فى تمام عدتهم. جعل يعيد الكرة عدة مرات حتى أصبح جيش ضخم تحت إمرته ثم توجه إلى قصر الباديشاه. ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين حرس القصر وبين جيش صادق انتصر فيها صادق. وفى نهاية الأمر أسر الملك واستعاد صادق الملعقة وإناءه السحرى ثم أمر صادق جيشه بالانصراف وفى التو عاد الجنود إلى الصندوق السحرى.

وفى صباح اليوم التالى ذهب صادق إلى الحمام وطلب استعادة حماره. ضحك صاحب الحمام وجعل يضرب وجهه وعندما أصر صادق على مطلبه استدعى صاحب الحمام صبيانه ليأتوا ويلقنوا صادق درسًا عندما يوسعونه ضربًا. ولكن صابر لاذ بالفرار وما إن وصل إلى الحقول

حتى أخرج العصا من الصندوق السحرى وجعل يعد عدته من الجنود وعاد مرة أخرى إلى الحمام حيث دارت رحى المعركة وما إن شعر صاحب الحمام الماكر أن نهايته وشيكة حتى استسلم وأعاد لصادق حماره.

أصبح صادق بفضل ما لديه من الإناء السحرى والحمار والصندوق رجلاً ثريًا وقويًا على نحو يضاهى ثراء وقوة الشاه نفسه. بنى صادق قصرًا ضخمًا ملأه بشتى مظاهر الترف والرفاهية من أثاث وسجاجيد وفور اكتمال بنائه وتأثيثه دعا الشاه لوليمة عشاء. وفى هذه المرة كان القصر معدًا على نحو أكثر ترفًا وفخامة. وبعد تناول العشاء تقدم صادق بكل الاحترام لطلب يد الأميرة دورنا وقبل الشاه مصاهرته بكل فخر. فبعد ما آلت إليه مجريات الأمور لن يجد لابنته زوجًا أفضل منه.

وكان زفاف صادق وابنة الشاه هو زفاف القرن حيث استمر أربعين يومًا وليلة وكان حفلاً عامًادعى إليه جميع أهل البلدة وعاش العروسان فى سعادة دومًا ورزقهما الله أطفالاً كثيرين.

جارية هارون الرشيد الأثيرة

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن الخليفة الأعظم هارون الرشيد كان فى أوج سلطانه وحكم أكثر من نصف العالم، وكان جملة حريمه تزيد على أربعمائة سيدة ما بين زوجات وجوار. وعشن جميعًا فى قصره ببغداد عاصمة إمبراطوريته. وكان فى كل مساء ما إن ينتهى من عمله يغادر ديوان الدولة ويتجه إلى الحرملك حيث يلتقى بنسائه ويقضى بينهن الليل يستمتع بصحبتهن. يمكنك أن تتخيل كيف تتبارى النسوة حتى يستأثرن به ويحزن إعجابه بملابسهن المثيرة وبأن يُجَمِّلن وجوههن بالمساحيق بصورة مثيرة فضلاً عن التعطر بالروائح الذكية. ثم يقدم العشاء ويعزف الموسيقيون مقطوعاتهم وترقص الجوارى بينما يمعن الخليفة النظر فيمن حوله من النساء بعينيه الخبيرة بشئونهن، فيغازل هذه ويدلل تلك وفى نهاية المطاف يقع الاختيار على إحداهن فيصطحبها إلى جناحه الخاص بينما تظل باقى النسوة يحسدنها.

وكانت هناك امرأة تدعى زينب تقيم وسط الخدم والجوارى فى الحرملك، وكانت زينب امرأة محنكة خبيرة بكل ما يتعلق بالجمال:

كيفية استخدام النباتات والأعشاب والبذور لصناعة الدهانات والمستحضرات؛ وكيفية إعداد مستحضرات التجميل وتصفيف الشعر بالشكل الذى يناسب كل امرأة ويجعلها تبدو فى أوج تألقها وجمالها فهى قادرة على أن تجعل من فتاة عادية متوسطة الجمال امرأة جميلة كالبدر فى تمامه، وهكذا تجعل زينب من نساء الهارون اللائى تم اصطفاؤهن من بين نساء الإمبراطورية أو جلبهن من سوق الجوارى فى زانزبار ودمشق تجعل منهن حوريات.

وكان لدى زينب حفيد يدعى أكبر تقر به عيناها، وهو الشخص الوحيد القادر على إسعادها فى هذه الحياة: قامت زينب بتربية أكبر بعد وفاة أبويه عندما كان صغيراً وقد غمرته بحبها ورعايتها. وعندما اشتد عود أكبر ألحقته بحانة جزار ليعمل لديه صبيًا، وكان الجزار يحسن معاملته وتولى تدريبه على نحو محترف. والآن وقد بلغ أكبر العشرين من عمره وأصبح شاباً وسيماً عرف عنه حسن الخلق، فهو موضع ثقة الجزار صاحب المتجر حتى إنه يوكل إليه إدارة متجره أثناء غيابه خارج البلاد لإقامة شعائر الحج كل عام فى مكة. تحمد جدة أكبر الله كل يوم على ما يتمتع به حفيدها من حسن الخلق والحنكة فى مهنته وبدأت تبحث له عن عروس تكون له زوجة تقر بها عينه.

كان عالم الحريم عالمًا مغلقًا تحدوه حفنة من الخدم والعبيد يحرسون الغرف والأقسام والمداخل والمخارج. تخرج من أن لآخر إحدى حريم الهارون من معقل الخلافة لتجوب المدينة فى نزهة أو تشترى شيئًا

ترغب فيه: وهنا يلزم أن تكون بصحبة جاريتها الأثيرة أو حارس "خصى" يقوم على مراقبتها. يقف الناس للنظر إلى العربة الملكية الجميلة، لكن تبقى النساء بالداخل يتوارين خلف ستائر الهودج ولا يستطع أحد أن يتطلع إلى وجه أى من حريم الهارون.

وفى يوم من الأيام توقفت العربة أمام محل الصائغ بجوار محل أكبر ونزلت جارية الهارون ليلتقط أكبر بطرف عينيه كعبها النحيل بزينة الخلخال. لاحظت المرأة الرجل الشاب الذى كان يقف أمام متجره تزين لحيته وجهه الوسيم، وعيناه السوداوان تشتعلان بنيران الرغبة. وهكذا جاء الحب من أول نظرة تمامًا كأن يكون سهمًا أصاب القلب فوقع الرجل فى غرامها وهى الأخرى شعرت بطعنة الحب وتدفقت بداخلها مشاعر لم تعرفها من قبل. استغرقت دقائق قليلة داخل متجر الصائغ ثم غادرت المكان.

حاول أكبر قدر استطاعته أن ينسى هذه المرأة ولكنه لم يستطع. أصبح بالكاد ينام وفقد شهيته وأصابه الذبول وأصبح نحيفًا. لاحظت زينب ما ألم بحفيدها من تغير حاله... وسألته ما الأمر. فى بادئ الأمر لم ينبس أكبر ببنت الشفة ولكن أسر لجدته بالحقيقة: أخبرها بحبه اليائس لامرأة لا تعدو أن تكون واحدة من زوجات الهارون.

وما إن سمعت زينب لوصفه للخلخال حتى أدركت فى التو من هى هذه السيدة التى يحكى عنها حفيدها تلك التى ملكت عليه لبه وفؤاده. وضربت وجهها بكفيها قائلة: "يا إلهى... استر يارب.. إنها أمينة خاتون

جارية الخليفة الأثيرة حاليًا! يمكنك أن تصل إلى نجوم السماء فذلك أيسر من الوصول إليها! يوجد الكثير من النساء الجميلات فى المملكة اختر أيا منهن. لماذا تسعى لتحقيق المستحيل؟" وهكذا وقع الخبر على الجدة وقع الصاعقة.

لكن أكبر كان عنيداً: إما أن يتزوج السيدة التى وقع فى غرامها أو يموت. وتعجبت جدته فالأمر ميئوس منه تمامًا وفى نهاية الأمر قالت: "سأرى ما يمكننى فعله ولكن عليك أن تلتزم بفعل ما آمرك به بحرفيته ولا تناقشنى فى شيء إطلاقًا." ووعدها أكبر أن يفعل ذلك.

أخبرته أنه بما أنه ليس بإمكان أى رجل أن يدخل الحرملك سوى الهارون نفسه، فإن السبيل الوحيد لأكبر ليدخل الحرملك هو أن يتنكر ويتزيا بزى الهارون. وحتى يتسنى له أن يكون صورة طبق الأصل من الهارون فإنه لزامًا عليه أن يطلق لحيته وأن يمتلئ قوامه قليلاً. ثم عليه أن يرتدى ملابس تشبه تمامًا ملابس الهارون، كما عليه أن يتعلم كيف يسلك تمامًا كما يسلك الخليفة. وبوصفها أخصائية ومستشارة تجميل فى القصر لفترة طويلة استطاعت زينب أن تحصل من إحدى الحريم على مجموعة من ملابس الهارون وصنادله القديمة وحلوى النقل المصنوعة، من اللوز والسكر تلك التى يحتفظ بها فى جيوبه ويوزعها عندما يستلزم الأمر.

وما إن ارتدى ملابس الهارون وبدا بلحيته السوداء اللامعة وبشرته العفية حتى بدا أكبرتماما مثل الخليفة، ودربته زينت كيف سيمشى ويتكلم

ويتصرف فى الحرملك حتى تأكدت تماماً أنه معد لخوض هذه التجربة. والآن لا يلزمهما شيء سوى الفرصة. وسرعان ما سنحت الفرصة عندما جمع الهارون حريمه فى إحدى الليالى وأخطرهن أنه سيسافر فى رحلة لصيد الغزلان فى الصحراء وسيغيب عنهن ليلتين. وفى الليلة الثانية بعد الغروب اصطحبت زينب أكبر إلى القصر وأدخلته من خلال باب سرى وأمرته أن يذهب ويتظاهر أنه الهارون ويدعى أنه قرر أن يؤجل رحلة الصيد التى كان قد عزم على القيام بها.

والآن كانت أمينة خاتون قد ملك عليها فؤادها حب أكبر ولكنها مهيضة الجناح- فهى تشبه تماماً الطائر حبيس القفص: فبعد شهور قليلة قد يزهدها الهارون ليلقى بها مثل نسائه الأخريات فى الحرملك وتظل تذبل وتهرم وتهدر حياتها هناك. وتنهدت وظلت شاردة ولم يكن هناك من يعلم بما يجول بخاطرها بل تعجب الجميع لماذا تملكها الحزن وتبدو تعيسة بدلاً من أن تزهو بحظها السعيد.

تمكن أكبر من الوصول إلى الحرملك وتصرف كما لو كان قد ولد فى قصر الخلافة تماماً كما دربته جدته. فى بادئ الأمر تقدم بكل ثقة فى ممر طويل. طرق الباب ثلاث مرات كأن تكون يد خفية قد قامت بفتح الباب ثم دخل إلى ممر آخر ومشى حتى وصل إلى قاعة كبيرة حيث وجد جرساً قام بضربه بقوة تماماً وفقاً لتعليمات جدته.

أقبلت عليه حينها زمرة من النساء لتحيته وإخباره كم هن سعيدات بعودته وأنه ألغى رحلة الصيد. مسح على رأس إحداهن وربت على

وجنة الأخرى، بينما كان يمعن النظر بأرجاء المكان باحثًا عن تلك التى من أجلها أتى.

وقفت فى الخلف شابة جميلة للغاية وممشوقة القوام وكانت ترمقه بعينيها السوداوين الجميلتين وشفتيها تبتسم ابتسامة غامضة. وجدها مثيرة للغاية حتى كاد ينسى أن ينظر إلى كعبها وأشار إليها حتى تقبل عليه. ثم قام بنثر العملات الذهبية وحلوى النقل وسط النسوة لينشغلن بها حتى يذهب هو لمن سيقضى الليلة بصحبتها. اصطحب المرأة معه إلى جناحه ليمضى معها الليلة. وما إن عانقها حتى شعر بالخلخال يتدلى على كعبها: نعم نفس الحلى التى اعتاد ملاحظتها طوال هذه الشهور الماضية نعم إذن هذه هى أمينة خاتون تلك المرأة التى وقع فى غرامها منذ أول يوم رآها.

وهى بالطبع قد تعرفت عليه منذ الوهلة الأولى رغم تنكره وكانت تبتسم وتنظر فى أمره متعجبة. ثم مضت تتدلل وتضحك وتراوغه.

وقالت باسمة: "لقد ازددت شبابًا عما كنت فى زيارتك الأخيرة؟ كم أصبحت لحيتك ناعمة ولامعة." وهكذا جعلت تتحدث عن التغيير الذى اعترى هيئته.

استمتع أكبر بحديثها وأخذ أحد المواثيق من المنضدة الجانبية وأعطاها إياه وبموجب هذا الميثاق تصبح ضاحية ببغداد ملكًا لها تعبيرًا عن ولعه بها: "أى الأحياء تفضلين؟" هكذا سألها واختارت هى الحى الذى يقع فيه متجر أكبر.

جاءت الأنباء عن عودة هارون الرشيد الحقيقى الذى ألغى فى آخر لحظة رحلته بناءً على نصيحة أحد الفلكيين وعاد كعادته إلى الحرملك.

عندما دخل تحير الجميع وقالوا: "ما هذا اللغز... لقد جاءنا الهارون منذ ساعة مضت فذلك لم يحدث مطلقًا من قبل كيف خرج وعاد دون أن نراه؟ ثمة لبس فى الأمر."

وصل الهارون القاعة ودق الجرس وأسرعت نحوه النساء لتحيته متعجبات لماذا ترك غرفه نومه بهذه السرعة وماذا حدث لأمينة خاتون التى اصطحبها لجناحه فقط منذ ما يقرب من ساعة. عندما لم يجد هارون الرشيد جاريته الأثيرة بينهن سأل عنها، وعندما أشرن إلى غرفة نومه تركهن جميعًا وهرول إليها ليلقاها فرحًا لأنها توقعت شوقه إليها وأعدت نفسها للقائه. لكنه عندما دخل جناحه هاله ما رآه حيث وجد أن جاريته الأثيرة فى أحضان رجل آخر يشبهه تمامًا.

وسأل الهارون متعجبًا: "من أنت؟" وظل مترددًا لا يعلم ما هى حقيقة الأمر هل الأمر خيال أم ذلك الآخر جنى يراوغه.

أجاب أكبر:"أنا هارون الرشيد العظيم أمير المؤمنين."

وما أن تأكد الهارون أن أكبر إنسان وليس جنيًا حتى استشاط غضبًا وصاح قائلاً: "كيف تجرؤ أن تدعى أنك هارون الرشيد؟ أنا الخليفة وسأقوم بإعدامك فى الحال!"

دارت بينهما مشادة ساخنة أصر كل منهما أنه الخليفة الحقيقى. وفى نهاية الأمر استدعى الهارون عبيده وسألهم : "من منا هارون

الرشيد الحقيقي؟" اختار نصفهم أكبر بينما اختار النصف الآخر الهارون. عندما يئس الهارون استدعى زوجاته وجواريه وطرح عليهن نفس السؤال. ومرة أخرى اختار نصفهن هارون الرشيد بينما اختار النصف الآخر أكبر.

وهنا فقد هارون الرشيد صوابه وانقض على أكبر غريمه ولكن أكبر كان أكثر قوة وشباباً وسرعان ما تفوق على الخليفة وأرداه على الأرض وجثم على صدره.

أدرك الهارون أنه هزم وأن أكبر بإمكانه قطع رقبته والاستحواذ على ملكه. لذا جعل يتوسل إليه أن يصفح عنه وينقذ حياته. لم يكن أكبر يطمح لأن يكون خليفة وأن يتولى مسئولية إدارة شئون البلاد وهنا قال أكبر: "سأنقذ حياتك فقط إذا وعدت أنت أن تعفى عنى وتنقذ حياتى." أقسم الهارون وتعهد ألا يعاقب أكبر.

وما إن هم الرجلان بالوقوف حتى سأل الهارون عن سبب انتحال أكبر لصفته وما هى بغيته من ذلك. أخبره أكبر بالقصة كلها وأضاف أنه سعيد وراض بكونه جزاراً وكل ما يطمح إليه فى هذه الحياة هو أن يتزوج أمينة خاتون ويظل يعيش معها ويحبها حتى آخر يوم فى حياته.

وتوسل إليه قائلاً: "مولاى أمير المؤمنين يمكنك أن تستحوذ على كل النساء الجميلات فى هذه الدنيا فأنت فى غضون شهور قليلة ستزهد أمينة خاتون ويقع اختيارك على امرأة أخرى بينما سأظل أنا أعشقها للأبد ولن أنظر أبداً لامرأة أخرى."

تأثر هارون الرشيد بولاء أكبر ووفائه ووافق أن يتنازل له عن جاريته الأثيرة أمينة خاتون، فقد كان الهارون على وشك أن يمل منها. وأخبر الهارون أكبر أنه سيكافئه لأنه جازف بحياته من أجل الحب بكل جسارة حيث سيلبى له رغبته ويعتق أمينة خاتون ويمنحه عطية تكون مهراً مناسباً لعروسه. وما إن قال ذلك حتى مد يده والتقط "عقدا ملكيا" وهم بتوقيعه فهذه الوثيقة بموجبها تصبح ضاحية بالكامل ملكًا لأكبر.

وسأل الهارون: "أى جزء من عاصمتى تفضلا؟" هكذا سأل الهارون كلا من أكبر وأمينة ووقع اختيارهما على الحى الكائن به متجر أكبر. وقالا: "ولكننا بالفعل قمنا بتوقيع ذلك العقد." وعرضاعليه الوثيقة التى قام أكبر مسبقًا بتوقيعها واعتمادها. تناول هارون الرشيد الوثيقة وسلمها لهما مباركًا الأمر.

أصبح أكبر الآن رجلاً ثريًا وعندما عاد صاحب المتجر من رحلة الحج سلمه المتجر. وذهب ليعيش مع عروسه وأمه العجوز فى بيت كبير بالقرب من الحى وتعهد أن يكرس حياته للأعمال الحسنة. وعاشت زينب فترة الشيخوخة على نحو مريح وكرست حياتها للعمل التطوعى وخدمة كل من يستشيرها بدون مقابل. وكانت أول من أطلق مقولة: "الحب يفتح أى طريق."

سـر الضحكـة

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كان فى بلدة الهند أرملة لديها ابن يدعى شجاع، وقد عاشا معًا فى كوخ متواضع بأطراف مدينة صغيرة وبعيدة بالقرب من الغابة. كانت هذه الأرملة فقيرة وأمية. لم يكن لديها مال أو ممتلكات لكنها كانت أبية مكافحة، وكانت على يقين أنه فى يوم من الأيام سيكبر ابنها ويشتد عوده ويتعلم حرفة تعينه على كسب العيش بشرف وتصبح الحياة أقل شقاءً. وكانت تقبل القيام بأى مهمة يمكنها القيام بها مهما كانت متواضعة بغرض كسب العيش، وتفعل ذلك راضية ومتمسكة بعزة نفسها حتى يتسنى لها تربية صغيرها. أرسلته إلى كتاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة ثم أرسلته إلى حانة سروجى ليكون صبيًا يتعلم حرفة تضمن له كسب العيش.

وهكذا استطاعا أن يعيشا حتى كبر شجاع وأصبح رجلاً وسيمًا تسر الأعين لرؤيته. وكان صاحب العمل يقدر جهوده، وما إن بلغ شجاع الثامنة عشرة حتى أصبح حديث النسوة فى المدينة أن يصبح زوجًا لبناتهن،

ويادرن بالتلميح لأمه عن رغبتهن في ذلك. كانت الزيجات آنذاك مختلفة عن أيامنا هذه حيث كانت تفاصيل الزيجة تنسجها الأسر وذلك بخلاف ما هو كائن في يومنا هذا الذي يصبح فيه الأبوان محظوظين إذا ما دعيا إلى حفل الزفاف.

أعطى شجاع رئيسه في يوم من الأيام عدداً من السروج التي أعدت خصيصاً للملك وأمره أن يسافر إلى المدينة ليوصلها إلى القصر. فرح شجاع كثيراً لتكليفه بهذه المهمة واعتبر ذلك دلالة على ثقة رئيسه الكبيرة فيه، كما كان سعيداً لأن هذه أول مرة في حياته يقوم بزيارة مدينة كبيرة. وفي صباح اليوم التالي شد شجاع الرحال إلى المدينة بصحبة عدد من المسافرين ووصلوا إلى بوابة المدينة عندما حل المساء.

نزل شجاع بأحد الفنادق وذهب في اليوم التالي إلى قصر الملك ليؤدي مهمته ويسلم البضاعة. تم استقباله في القصر في قاعة صغيرة أعدت للزائرين وطلب منه أن ينتظر رئيس ديوان القصر.

سمع أثناء جلوسه أصواتًا وضحكًا بالخارج، وهم ينظر عبر النوافذ فوجد مجموعة من الفتيات الشابات يلهون في الحديقة. تكاد كل منهن تفوق الأخرى جمالاً ولكل منهن شعر طويل ينسدل ويبدو جذابًا وملابس لها ألوان خلابة. ومن بين كل هؤلاء الفتيات استحوذت على اهتمامه واحدة كانت أكثرهن حيوية وجمالاً. وكانت هي"شهلة" ابنة الملك التي تم الاحتفال بعيد ميلادها السادس عشر في المملكة بأسرها وهي أكثر إنسان يحبه الملك في هذه الدنيا. استغرق شجاع في تأمل جمالها حتى

جاء رئيس ديوان القصر. استلم الرجل السروج من شجاع ودفع ثمنها واصطحب شجاع إلى بوابة القصر مودعًا إياه وشاكرًا رئيسه على حنكته وإتقانه لصناعته.

لم يستطع شجاع طيلة رحلة العودة أن يتوقف عن التفكير فى الأميرة شهلة فقد ملكت عليه لبه حتى نسى ما يفصلهما من مسافات، فالفرق بين مقامها كأميرة ومقامه المتواضع كسروجى مبتدئ فرق كبير وما بينهما بون شاسع. وعندما عاد إلى بيته لم يخبر أمه بشئ من أمره لكنه تغير تمامًا وتبدلت أحواله ولم يعد مرحًا وأصبح هادئًا شاردًا طيلة الوقت مستغرقًا فى التفكير. لاحظت أمه ما طرأ على حاله من تحول وكانت قلقة إثر ذلك ولكنها أمسكت عن الحديث معه فى شأن ذلك التغير الذى اعتراه حتى جاء يوم وتطوع ليخبرها بحقيقة الأمر.

قال:"أمى العزيزة...لطالما رجوتنى أن أتزوج. حسنًا لقد وجدت فتاة أحلامى وأرغب فى الاقتران بها."

وقالت الأرملة:"اللهم لك الحمد! من تلك الفتاة التى ترغب فى خطبتها؟"

فأجاب:"الأميرة شهلة ابنة الملك."

ظنت أمه أنه يمزح ولكن سرعان ما أدركت أنه جاد فيما يقول وقالت: "هل جننت؟"

أكد لها شجاع أنه ما زال بكامل قواه العقلية، وأخبرها أن كل ما عليها هو أن تذهب إلى القصر لخطبة ابنة الملك كما جرت الأعراف. واستسلمت لرغبته بعد أن أعيتها السبل لإقناعه أن ما يرغب فيه يعد بمثابة المستحيل بعينه. استعارت بعض الملابس الملائمة لتلك المناسبة من إحدى جاراتها وأعدت نفسها لتبدو فى أبهى حلل سيدة راقية وذهبت إلى المدينة. سألت عن قصر الملك وتجاذبت أطراف الحديث مع حراس القصر وخدمه على نحو مهذب حتى يتسنى لها الدخول.

وتصادف أن كان ذلك اليوم يوم لقاء الملك بجمهور العوام فى قاعة العرش، واستقباله لأصحاب المطالب والالتماسات. تقدمت أم شجاع نحو الملك عندما جاء دورها لمخاطبة الملك وانحنت تماماً وقالت: "جئت لجلالتك لطلب يد الأميرة شهلة لابنى شجاع وهو يبلغ من العمر الثامنة عشرة عفيف وأمين وسروجي ماهر وسيكون نعم الزوج المحب لابنتك الجميلة تماماً كما كان نعم الابن البار بأمه."

ذهل الملك وحاشيته إبان سماع كلامها البليغ حتى ساد الصمت المكان لوهلة وما نبس ببنت شفة فى انتظار أن يأمر الملك بقطع رأسها، إلا أن الملك قال: "حسناً اطلبى من ابنك أن يكشف سر الضحكة ويأتينى به. إذا تمكن من إضحاكي ستكون ابنتى زوجة له ولكن إذا فشل فى ذلك سأقطع رأسه فى التو."

جاء مطلب الملك الآن وهو الذى عرف بأنه حاكم خير، عم فى عهده الرخاء بالبلاد وأصبحت رعيته راضية، ولكنه منذ أن وافت زوجته المنية

أثناء الولادة أى منذ حقبة مضت، قبل أن تبدأ أحداث قصتنا عانى الملك من الحزن والكآبة ولفت سحابة سوداء ديوانه وأصبح الجميع يخافه ويخشاه. أعيت حاشيته السبل لإسعاده ولكن أبدًا لا يتغير حاله. تم استدعاء أمهر المهرجين والسحرة فى العالم إلى قصره وكانوا يؤدون عروضهم ولكن عبثًا كانت محاولاتهم الدؤوبة، فالملك أبدًا لا يضحك أو يبتسم أو حتى تنفرج أسارير وجهه بدعوى الإعجاب أو الدهشة. ونسى منذ زمن بعيد المقربون منه صوت ضحكته وساد قصره صمت القبور. لذا عمت الكآبة مملكته برمتها وعاش شعبه خائفًا من غضبه، ذلك لأن حالته المزاجية أثرت فى قدرته على حسم الأمور والبت فيها وفى بعض الأحيان كان يصدر أحكامًا قاسية لعقاب المخطئين. لذا عندما طلب من شجاع أن يثير ضحكه وإلا سيكون عقابه الموت إذا باءت محاولته بالفشل لم يصدق أحد أن الرجل سيقدم على المحاولة.

وقبل شجاع التحدى عندما أخبرته أمه برسالة الملك ورد قائلاً: "سأكتشف سر الضحكة وأعالج الملك من الكآبة."

عندما علم بنبأ ساحر لا يعجزه شئ قال شجاع: "بالطبع ذلك الرجل ملم بسر الضحكة سأبحث عنه وأتعلم منه ماذا عساى أن أفعل كى يضحك الملك."

حاولت أمه أن تثنيه عما عزم عليه متعجبة ما إذا كان ذلك الساحر موجودًا بالفعل، حيث إن أحدًا لم يره من قبل وكل هؤلاء الذين شدوا الرحال بحثًا عنه لم يعودوا. ربما كان حديث الساحر هذا من صنع الخيال؟

أو قد يكون جنيا شريرا يأسر المسافرين فى الصحراء بوعوده الكاذبة؟ لكن شجاع أصر أن يبحث عنه ويجده. سأل رئيسه أن يرحل لفترة طويلة من الغياب ووافق السروجى حيث إنه يقدر طلب العلم ويعده من أنبل الغايات، وقال لشجاع إنه سيرحب به للعودة إلى العمل معه عند رجوعه من مهمته. رحل شجاع عن القرية فى صباح بهى عند طلوع الفجر فى رحلته لاكتشاف سر الضحكة.

جاب شجاع القرى والغابات والأراضى التى تعج بالجبال حتى وصل إلى بادية ليس بها أى معلم من معالم الحياة. شعر بالجوع والإعياء ولكنه واصل السير حتى وجد واحة صغيرة لا يوجد بها سوى شجرة صغيرة وبركة مياه. جلس يستظل بالشجرة وجعل يأكل بعض الخبز والجبن الذى كانت أمه قد أعدته له وغلبه الشعور بالتعب والإرهاق وسرعان ما دخل فى سبات عميق.

عثرت عليه حينئذ فتاة شابة كانت تمشى بجوار بركة المياه. تعجبت لوجوده فى هذه البقعة، ذلك لأنه من النادر أن يمر أحد المسافرين بهذه البقعة البور المعزولة عن باقى البلدة وتسللت لتنظر إليه. وما إن رأته حتى وقعت فى غرامه حيث إن وجهه كان وسيمًا وقسماته بريئة.

انتظرت الفتاة حتى يستيقظ من نومه وعندما قام أخبرته أنها تُدعَى زارا وأنها تعيش مع أبيها بالقرب من ذلك المكان. وسألته عن سبب مجيئه إلى هذه البقعة المنبوذة من الأرض. أخبرها شجاع بحقيقة الأمر كله وعن ضالته التى ينشدها الآن فى بقاع الأرض كلها. تأثرت زارا

للغـاية بنزاهتـه وثقـتـه بهـا وقـررت بالرغم مما تكنـه له من مشـاعـر إعـجـاب أن تبـذل قـصـارى جـهـدها حـتى تسـاعـده فى بلوغ غـايتـه فى الاقتران بالأميرة.

أخبرته زارا أن الرجل الذى يبحث عنه هو أبوها أعظم ساحر عرفه الوجود، وأنـه حتى يفوق أبا على سينا فى معرفتـه وقوته، وأنه لن يستطيع أى شخص آخر سوى أبيـها أن يساعده على معرفة سر الضحكة وعلاج الملك مما يعـانيـه من كـآبة. ولكنه كان لسـوء حظـه رجل دنىء يغـار على قوته ونفوذه، وكلمـا يـأتيـه أحـد سـائلاً لعلمـه يعده بتلقينه أسـرار حـرفتـه ويسخره فى العمل الشاق، وما إن يكتشف سراً من أسرار مهاراته حتى يقوم بقتله فى التو.

ثم قـالت لشـجـاع:"لسـت أول شـخـص يأتـى طالبًـا للعلم بأسـرار السـحـر... فـقـد أتـى العـشـرات خـلال السنوات المـاضـيـة وقـضـى عليـهـم جـمـيعًـا." وأشـارت إلى كومـة من العظام والجماجم خلف صـخـرة كـبيـرة وأضـافـت: "هذا هو مـا تبـقى من الشبـاب الذين أتوا من قـبلك بحثًـا عن المعرفة هنا."

وبدلاً من أن يلوذ بالفرار عندما سمع ذلك أخبرها شجاع أنه يرغب فى أن يحاول تلقى العلم عن أبيها.

قـالت زارا: "فى هذه الحـالة عليك أن تنصت إلى جـيـداً وتـفـعـل مـا أمرك بـه... عليك أن تلاحظ جيداً كل شىء يفعله أبى وأن تـحـفظ عن ظهر قلب كل كلمـة يتلفظ بهـا، شريطة أن تتظاهر بـأنك لا تعى أو تفـهم شيـئًـا

وعندما يختبرك أجب عليه بإجابات خاطئة لا تتعلق إطلاقًا بالأسئلة وإذا طلب منك إعادة أى من تجاربه قم بفعل ذلك على نحو خاطئ حتى لا تنجح التجربة. وبمرور الوقت سيدرك أنك أبله وسيدعك تمضى دون أن يلحق بك أى أذى. لكن حذار أن تصدر عنك أى كلمة أو فعلة من شأنها الإشارة إلى أنك قد تعلمت شيئًا واكتسبت أسرار الصنعة وإلا ستلقى حتفك على الفور تمامًا، كما حدث مع من سبقوك إلى طلب العلم هنا."...أخبرته زارا كيف أعيتها السبل هى وأمها فى رجائه حتى يعفو عن هؤلاء الذين لقوا مصرعهم بعد أن تتلمذوا على يده وعبثًا كانت محاولاتهما. لم تطق أمها العيش مع أبيها الشرير ووافتها المنية منذ زمن قصير ولم يبق على وجه الأرض شخص يعامل هذا الساحر بشىء من الحنو والشفقة سوى زارا.

بينما كان كل من شجاع وزارا مستغرقين فى الحديث ظهر الساحر وسأل عمن يكون الشاب. وأجاب شجاع أنه جاء ليتتلمذ على يده ويتلقى عنه فنون السحر. فأجاب الساحر: "حسنًا ستظل معى لعدة شهور وسنرى إذا ما كانت لديك الموهبة؟"

اتجهوا جميعًا إلى البيت وما إن وصل الساحر حتى تمتم بتعويذة سحرية وفتح الباب بأيد خفية ودخلوا البيت. قاد الساحر شجاع إلى غرفته وقال له:"هنا كان يقيم كل من سبقوك إلى طلب العلم." هنا انتاب شجاع الهلع عندما تبادر إلى ذهنه مشهد العظام.

أمر الساحر شجاع في اليوم التالي أن يذهب معه ليرعى قطيع غنمه في البادية. رأى شجاع أن قطيع الغنم قد تحول فجأة إلى زمرة من البقر ورغم ذهوله، إلا أن شجاع تظاهر وكأنه لم يلحظ شيئًا على الإطلاق واستمر في ملاحظة الحيوانات. وقرب غروب الشمس تحولت الحيوانات لتصبح خيولاً وإثر العودة إلى البيت في وقت الغروب عاد القطيع قطيع أغنام مرة أخرى.

أعاد الساحر نفس الكرة في الأيام التالية حيث كرر نفس الحيل: تتحول الغنم إلى مجموعة من البط وبركة من الأسماك ثم تعود لتصبح أغنامًا مرة أخرى. فهو لديه القدرة على تحويل أي شيء ليصبح شيئًا آخر يرغب فيه. ففي المساء يتحول الحصان إلى قصر تملأه آلاف الشموع وفي الصباح ينقلب القصر إلى كوخ رجل فقير يغطيه القش: أحيانًا يأكلون وجبة دسمة شهية وأحيانًا أخرى يتناولون قطعة خبز جاف في إناء من الصفيح.

ما زال شجاع ملتزمًا بالصمت ولا يبدي أي دهشة. كان مسلكه عاديًا، وكأن ذلك العالم المليء بالعجائب والمعجزات بمثابة أمر مألوف لديه. لكنه تعمد ملاحظة كل إشارة وإيماءة وتعويذة سحرية من شأنها إحداث هذه التحولات الخارقة التي كان يشهدها.

واحتار الساحر في أمر شجاع وتعجب كثيرًا لسلوكه. فقد كان الآخرون حريصين على الإلمام بمعرفة كل شيء واستعراض ما تعلموه من مهارات، أما ذلك الشاب فدائمًا ما يبدو في غيبوبة. وبعد مرور فترة

من الزمن بدأ يختبره وتعمد شجاع أن يجيبه بإجابات خاطئة توحى بغبائه مثل "السماء لونها أزرق"، أو "المياه ليس لها لون"، أو أى إجابة لا علاقة لها بالسؤال المطروح. وكلما طلب من شجاع أن يقوم بأى خدعة مما تعلم يتعمد شجاع أن يقوم بهذه الخدعة على نحو خاطئ تماماً.

قام الساحر بطرد شجاع بعد مرور ستة أشهر بعد أن أخبر ابنته: "هذا الرجل لن يعينه غباؤه على تعلم أى شىء." وأختفى بيت الساحر فى لمح البصر ولم يعد بالمكان شىء سوى البيداء الخالية.

واصل شجاع السير حتى وصل إلى واحة حيث غلبه النعاس فور وصوله. وهناك وجد زارا التى كانت حزينة للغاية بسبب رحيله. ولكنه أخبرها أنه إذا نجح فى الاقتران بإبنة الملك قد يرسل إليها ليطلق سراحها من محبسها بهذه الواحة المعزولة وقد تكون وصيفة زوجته وأختًا لها. وهكذا افترق الصديقان مع ما يكنه شجاع لزارا من امتنان بينما زارا تعلق أملها على شجاع وتثق به.

أخبر شجاع أمه فى صباح اليوم التالى أنه يوجد حصان موثوق أمام المنزل وعليها أن تأخذه إلى سوق الحيوانات لبيعه فى مقابل مائة درهم ولكن عليها الاحتفاظ باللجام مهما عرض عليها من مال.

وافقت الأم وذهبت لتأخذ الجواد. امتطت أمه الجواد وذهبت إلى السوق حيث كان المزاد الشهرى للخيول معقوداً هناك، وتمكنت من بيعه بكل يسر فى مقابل مائتى درهم. وعادت فرحة إلى المنزل وعلقت اللجام بحجرتها.

أما شجاع الذى كان قد حول نفسه إلى لجام...استعاد هيئته مرة أخرى فور مغادرة أمه للحجرة واستعانوا بالنقود على شراء المطعم والملبس وتجديد منزلهما البالى.

وفى اليوم التالى حول شجاع نفسه إلى ثور وأخذته أمه إلى سوق الماشية وباعته لمن يعرض أعلى ثمن. وفى هذه المرة شدد شجاع على "بيع الحيوان مع الاحتفاظ بالحبل الذى يطوق عنقه." وبالفعل التزمت الأم بتعليمات شجاع.

وهكذا كان شجاع يتحول كل شهر إلى نوع مختلف من الحيوانات: جمل أو بقرة حلوب أو زمرة من البط - تصطحبها الأم إلى السوق وتبيعها مقابل ثمن جيد. وبمرور الوقت أصبحا أغنياء، ونسيت الأم الصعاب التى تكبدتها فى الماضى. وأعتقد شجاع أنه إذا كان السحر الذى تعلمه عاجزًا عن إضحاك الملك فربما يوافق على زواجه من ابنته لما يتمتع به من ثراء فاحش.

ونما إلى علم الساحر الآن أنه ثمة امرأة عجوز تظهر فى السوق كل شهر تبيع أفضل سلالات الحيوانات، حتى إن بضاعتها تفوق بضاعته وتعجب من تكون هذه المرأة؟ وكيف تسنى لها الحصول على بضاعتها؟ فجأة تذكر شجاع الشاب الوحيد الذى خرج من بيته حيًا بعد أن استغرق معه وقتًا طويلاً وهنا ساوره القلق.

أما عن شجاع فقد شعر أن معلمه ربما يكون قد علم بممارساته - فالسحرة لديهم القدرة على معرفة ما يدور بأذهان بعضهم البعض -

وعندما ذهبت أم شجاع الليلة التالية إلى السوق ومعها فرس أسود لتقوم ببيعه أخبرها شجاع أنها قد تقابل رجلاً وسيمًا راقيًا يرغب فى شراء الفرس منها.

قال شجاع: "بيعى له الجواد لكن احتفظى باللجام وإلا لن ترينى بعد الآن." ووعدته أمه أن تلبى رغبته.

وجد شجاع الساحر العجوز بالسوق وسط الزحام. وما إن رآه الساحر العجوز بالسوق وسط الزحام حتى تعرف عليه على الفور واستشاط غضبًا وزايد على الجواد واشتراه بأربعة أضعاف ثمنه. سلمته أم شجاع الفرس واحتفظت باللجام ولكن الساحر اعترض متعللا بأن الثمن يتضمن اللجام. تشاجرا ورفضت الأم أن تبيعه بينما أصر الساحر الشرير على الشراء وضاعف الثمن حتى إنه عرض أن يعطيها لجامًا مزخرفًا بالذهب فى المقابل.

وفى غمار هذه الواقعة كان القاضى يمر بالمكان وسمع المشادة وقضى أن المشترى لابد أن يحصل على اللجام. فما كان من أم شجاع إلا أن رضخت لرغبة الساحر معتقدة أن ابنها لن يمانع- فبرغم كل شئ هذا اللجام لا يتعدى أن يكون لجامًا عاديًا إذا ما قورن بالآخر ورضيت بالآخر الذى ستعود به إلى المنزل؟ ووافقت على إتمام الصفقة مع الساحر حيث ستعطيه اللجام القديم ولم تلحظ أن الجوادكان ينظر إليها وملء عينيه الحسرة والدموع.

امتطى الساحر جواده وما إن غادر السوق حتى بادر بلكز الجواد قائلاً : "والآن انتصرت عليك! هل اعتقدت أنك ماهر. لقد خدعتنى وجعلتنى أدعك تمضى. والآن يجب أن نرى من منا يفوق الآخر مكرًا ودهاءً."

وجعل يركل الحصان حتى وصلا إلى الواحة ووجد شجاع زارا جالسة تستظل بشجرة. أدركت زارا فى التو أن هذا الجواد هو شجاع واعتصر الألم فؤادها على ما آل إليه حاله.

طلب أبوها منها أن تذهب لتحضر ساطور النحر حيث إنه يرغب فى استخدامه فى ذبح هذا الحصان.

ذهبت زارا وخبأت الساطور فى مكان آمن وعادت لتقول له: "لم أستطع العثور على الساطور لقد اختفى."لذا أرسلها لتحضر سيفه وعادت مرة أخرى خاوية اليد. وفعلت نفس الشئ عندما طلب خنجره ومطواته مما أثار غضبه ونهرها قائلاً:"انتظرى قبالة هذه الفرس الملعونة وسأذهب لأحضر السكين بنفسى."

عندما ترك الساحر اللجام حَولَّ شجاع نفسه إلى ثعلب وانطلق بعيدًا واختبأ بين الأغصان. وعندما عاد الساحر وقد أحضر سكينًا كبيرًا وجد أن الفرس قد اختفى تمامًا.

سأل الساحر ابنته التى كان قد أوشك على ذبحها إذ أنه اكتشف أنها تكذبه القول: "ماذا حدث؟ أين ذهب؟" لكنها أجابته بالحقيقة حيث ذكرت أن شجاع قد تحول إلى ثعلب واختفى فى الحال.

حول الساحر نفسه فى التو إلى كلب صيد وجعل يطارد الثعلب، وما إن أوشك على الإمساك به حتى قام الثعلب بتحويل نفسه إلى حمامة وحلق فى السماء. وأصبح الساحر فى غضون ثانية صقراً وطارد الطائر الصغير فى سماء صافية وأوشك على اللحاق به.

فى هذه اللحظة أدرك شجاع أنه يحلق فوق سطح قصر الملك وتبدت لعينه صورة حبيبته الأميرة شهلة. فاض الشوق فى قلبه ونسى الخطر الداهم الذى أوشك أن يودى بحياته، وذهب إلى فوهة المدفأة عسى أن يتسنى له رؤية الحديقة ربما يرى الأميرة ولو لوهلة ! وفى هذه الأيام جرت العادة أن يكون فى البيوت فتحة فى سقف الغرفة بغرض التهوية وتكييف الغرف عندما تشتد حرارة الجو(١). بينما اندفع الصقر متجهاً لأسفل حتى ينشب مخالبه فى الحمامة حول شجاع نفسه إلى رمانة وسقط من فتحة السقف إلى أسفل.

كان الملك مصادفة جالساً فى الحديقة يدخن الأرجيلة ويتحدث إلى وزيره ومستشاريه وإذا بثمرة الرمان تسقط فى حجره. وتعجب الملك وصاح: "يالها من معجزة؟ فهذا ليس موسم الرمان كيف سقطت من سطح قصره مثل هذه الثمرة الكبيرة الحمراء؟!"

وفى هذه اللحظة تحول الصقر إلى درويش متجول وطرق الباب وطلب المعونة. دعى إلى الدخول وأعطى بعض الطعام والمقبلات ولكنه رفض كل شىء: والشىء الوحيد الذى كان يرغب فيه هو ثمرة الرمان التى بحوزة جلالته؟

رفض الملك أن يتخلى عن ثمرة الرمان متعللاً بأنها هبة من الله سقطت من السماء طرحت في غير أوانها : وقرر أنه لابد أن يحتفظ بها.

أما الدرويش الوقح فقد أصر وجعل يبكى ويتوسل إلى الملك متعللاً بأنه يعاني من مرض بعينه لا شفاء له سوى الرمان. وفى نهاية المطاف استشاط الملك غضبًا لسوء أدب الدرويش وألقى بالرمانة فى وجهه. وسقطت الثمرة على الأرض وتمزقت وتناثرت حباتها فى أرجاء المكان ليقوم الساحر بتحويل نفسه إلى دجاجة فى التو وجعل يلتقط حبات الثمرة بأسرع ما يمكن، وسرعان ما التقط حبات الرمان جميعًا فيما عدا حبة واحدة تناثرت لتصل إلى قدم الملك. وكانت هذه الحبة هى شجاع الذى بادر بتحويل نفسه إلى ثعلب وانقض على الدجاجة ونهش عنقها.

انفجر الملك ضاحكًا عند رؤية كل ذلك وسر الوزير ومستشاريه للغاية حتى إنهم قد اعترتهم نوبة من الضحك. وهكذا كان حال الخدم والحرس والآن يضحك الجمع بأسره بصوت عال. ولأول مرة منذ وفاة الملكة تشيع البهجة فى القصر.

وفى غمرة هذه الضحكات حول الثعلب نفسه إلى شاب وسيم وكان هذا الشاب هو عريس الأميرة شهلة. تقدم شجاع نحو الملك وذكره بوعده: أى أنه إذا استطاع إضحاكه فسيزوجه ابنته. وهنا أخبر شجاع الملك بأخبار مغامراته وتعجب الملك لشجاعته وحرصه على ابنته

وإخلاصه لها وأذن الملك لشجاع بالجلوس بجانب عرشه. واستدعى ابنته الأميرة شهلة وقال لها: "أخيراً وجدت هنا رجلا جديرا بك."

تزوج شجاع وشهلة في حفل ضخم حضره جميع أهل البلدة ولكن لم ينس شجاع وعده لزارا: فقد دعاها إلى الزفاف واستقبلها بوصفها ضيفة شرف. وأصبحت فيما بعد وصيفة الأميرة وتزوجت ابن الوزير وعاش الجميع منذ ذلك الحين في سعادة وهناء.

الملك والنبى خضر

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن ملكًا يدعى "جاهانجير" حكم بلدة كبيرة فى هندوستان. وكان الابن الوحيد لأبيه الملك العجوز الذى توفى بينما لم يبلغ الابن من العمر إلا ثمانية عشر عامًا. ترك له أبوه مملكة مترامية الأطراف وأعدادًا غفيرة من الرعية. وسرعان ما تزوج الابن شاهباسند الأميرة الجميلة شاهباسنت وهى من مملكة مجاورة واستقر حاله ليحكم بلاده. وكان أبوه الملك الكبير قد اختار له ثلاثة وزراء كبار من بين حاشية عريضة ليستعين بهم فى إدارة شئون البلاد آملاً فى أن يعينوا ابنه ويحموه من منافسيه والمنافقين والطامعين فى ملكه. وقد أضاف الملك للوزراء الثلاثة وزيرًا رابعًا شابًا قريبًا منه فى العمر.

وبمرور الوقت زادت شعبية الملك الشاب وأصبحت علاقته آمنة مع ممالك الجوار: وكانت خزانة البلاد عامرة فضلاً عن وفرة المحصول واعتاد الناس أن يرددوا أن جاهانجير الملك الصغير يعد بمثابة نعمة من الله أغدقها على البلاد.

هكذا كانت سماء حياته صافية لا يعكر صفوها سوى سحابة واحدة سوداء، حيث أنه حرم من نعمة الإنجاب. أحب زوجته وأخلص لها، وأعيتهما السبل للتغلب على مشكلة عدم الإنجاب : فقد استدعيا الأطباء والعطارين من جميع أنحاء الهندوستان وفرنجستان ووصفوا لهما صلوات ومستحضرات السيدات، وأخبرت القابلات الملكة بالوصفات الأثيرة والنصائح لكن باءت كل المحاولات بالفشل.

وما إن يئست الملكة من الإنجاب حتى اقترحت على الملك أن يتزوج من أخرى أو إحدى جواريه حتى يصبح أبًا، فقد تكون إحداهن محظوظة وتنجب وريثًا لملكه. ووافق الملك على اقتراحها بعد طول تردد ولكن لم تنجب أى من النساء اللائى اقترن بهن.

ولم يبق فى نهاية المطاف سوى أمل واحد فقط: وهو تدخل النبى خضر الذى عاش فى عالم الغيب منذ بدء الخليقة، وسيظل هكذا حتى نهاية الكون وقد ظهر الخضر مرة واحدة وحقق المعجزة المذهلة واختفى مرة أخرى.

انتشرت أنباء هامة فى هذه الفترة وأعلنت العهود من قبل رجال تسند إليهم مهمة نشر الأخبار حيث يتمتعون بأصوات جهورية، وكانوا يقفون وسط الميادين العامة فى المدن والقرى يقرعون طبولهم لجذب انتباه العوام. وعندما تحتشد الجماهير يلقون بيانهم. وسرعان ما تنتشر الأنباء وتصل إلى مسامع جميع أهل البلدة. لذا نزولاً على نصيحة وزرائه أرسل الملك رجاله فى جميع أرجاء مملكته ليعلن عن مكافأة لمن يحضر

النبى خضر إلى البلاط الملكى حيث سيمنح هذا الشخص مكافأة قوامها ألف قطعة ذهبية.

وكانت هذه المكافأة تعد بمثابة ثروة ضخمة أى ما يعادل مليونا فى أيامنا هذه، وبدا الأمر مثيراً حقًا، إذ كيف سيتسنى العثور على النبى خضر؟ لقد كانت المهمة فى عداد المستحيل حيث إن النبى خضر عاش فى عالم الغيب السرمدى ويظهر فقط عندما وأينما يريد. لم يره أحد من قبل عندما ظهر فيما مضى: نمى إلى علم الجميع ظهوره فقط عندما اختفى حيث يصعب لقاؤه أو الوصول إليه، ولن يتسنى للناس التعرف عليه. لذا عندما أعلن الملك عن هذه المكافأة الضخمة لمن يحضر النبى خضر لم يحاول أحد قط التقدم للتصدى لهذه المهمة المستحيلة.

كان هناك جَمّال يعيش مع زوجته فى كوخ متواضع بأطراف القرية. كان يدعى على أصغر، وكان فقيراً للغاية لا يمتلك من حطام الدنيا سوى جمل واحد. وكان الجمل صبوراً يحتمل العمل الشاق حيث يظل طيلة النهار ينقل أحمال البضائع الثقيلة بين القرى والمدن المجاورة ليدر القليل من الربح على صاحبه. وفى المساء يرقد الجمل فى حظيرته ليأكل نصيبه من التبن راضياً بحاله.

يختلف البشر عن الحيوانات حيث من الله عليهم بنعمة العقل، لذلك تعصف الأسئلة بأذهانهم فتساورهم المخاوف فيما يتعلق بالمستقبل، وتتخطى طموحاتهم مجرد الحصول على كسرة خبز فى نهاية يوم من العمل

الشاق. وكان على أصغر دائم الشكوى إلى زوجته فقد بلغ من العمر أرذله ولم يعد يطيق عمله المضى وأن مصدر عيشهم وهو الجمل سيأتى عليه يوم وينفق وحينها ماذا عساهم أن يفعلوا ليكسبوا عيشهم؟

وهنا ترد الزوجة الحنون قائلة: "سيدبر الله الأمر..سيرزقنا" محاولة أن تهدئ من روعه. وكانت تقضى يومها تغزل القطن والصوف لتبيعه إلى الفلاحين من الجيران وفى الأحياء المجاورة، بغرض كسب المزيد من النقود القليلة التى قد تعينهم على العيش إلا أنهما مازالا يعانيان شظف العيش.

وفى يوم من الأيام ذهب على أصغر إلى الحظيرة ليخرج الجمل ويبدأ السير به واكتشف الرجل لهوله أن الجمل قد نفق. يالها من كارثة! وأخذ يضرب رأسه وينعى حظه مردداً "ياللهول". وعندما هرولت إليه زوجته وعلمت بنبأ الطامة أصابتها حالة ذهول. فقد كان الجمل هو مصدرهما الوحيد لكسب العيش ولطالما تمنيا أن يعيش لعدة سنوات أخرى أو حتى أن توافيهما المنية هما قبل أن ينفق الجمل.

لم يكن لدى الرجل العجوز خيار آخر سوى أن يصبح حطاباً. كان الرجل يذهب كل يوم إلى البادية المجاورة التى تكسوها الأغصان ويجمع أحمالاً كبيرة ليبيعها فى القرية. استخدم الفلاحون الأحطاب لأغراض الوقود خاصة فى الحمامات العامة. وكانت مهنة الحطاب شاقة خاصة إذا ما مارسها رجل قد تقدم به العمر. ولكن ماذا عساه أن يفعل إذ لم يكن لديه خيار آخر؟

وهنا نمى إلى علمه أن الملك قد أعلن عن مكافأة ألف قطعة ذهبية لمن يجد الخضر ويحضره إلى القصر، وقرر أن يحاول عسى أن يحالفه الحظ وينجح فى الفوز بالمكافأة. بذلت زوجته قصارى جهدها لتثنيه عما عزم عليه متعللة بأن لا أحد باستطاعته العثور على الخضر، ذلك لأنه يعيش فى عالم الغيب ويظهر فقط عندما يرغب فى ذلك، وعبثًا كانت محاولاتها لإقناعه بالعدول عن فكرة العثور على النبى الخضر، ألقى زوجها بتحذيراتها أدراج الرياح ذلك لأن أى شىء قد تؤول له الأمور سيكون أفضل مما يعانيان منه من الفقر والعوز.

لذا ذهب على أصغر إلى قصر الملك وعرض خدماته شريطة أن يحصل على المكافأة مقدمًا حيث إنه سيترك عمله ويرحل باحثًا عن الخضر.

شعر الملك ازاء على أصغر بالريبة فكيف يثق فى حطاب مغمور؟ كيف يتأكد أن هذا الرجل سيحضر بالفعل الخضر صانع المعجزات؟ لكنه كان يائسًا والعثور على الخضر كان بمثابة فرصته الأخيرة، لذا وافق على أن يسدد المكافأة مقدمًا شريطة أن يحضر على أصغر النبى خضر فى غضون أربعين يومًا وإلا سيكون لزامًا عليه أن يرد الذهب أو يتم إعدامه. وقبل الجمال العجوز بالشرط.

عاد على أصغر إلى بيته فرحًا وعرض على زوجته حقيبة الذهب وأنبأها أن كل مخاوفها قد تبددت على الأقل فى الوقت الحالى. وكالعادة فالنساء واقعيات أكثر من الرجال، ولما تدبرت زوجة أصغر الأمر

تساءلت – ماذا سيفعلان بعد أربعين يومًا؟ لكنه طمأنها قائلاً: "الله أكبر.. حتمًا سنجد حلاً لهذه المشكلة. وإذا لم يستطع حسم الأمرسيتم إعدامه وهو بوجه عام قد بلغ من العمر أرذله وهو يفضل أن يعيش أربعين يومًا فى ترف ورغد على أن يعيش أربعين عامًا يعانى شظف العيش".

بدأ على أصغر فى صباح اليوم التالى فى إنفاق النقود فقد أصبح الكوخ البالى بيتًا جميلاً تزينه سجاجيد ذات ألوان خلابة ومصابيح وملأ خزائنه بالمقتنيات وأوانى الزهر والدقيق والأرز والشاى والسكر والخضر والفاكهة وشتى أنواع التوابل والأعشاب التى تكفى لقبيلة بأسرها. وكانا لأول مرة فى حياتهما يمكنهما أن يأكلا ما لذ وطاب وبأى كمية.

حسنًا عندما يصبح الناس أغنياء سرعان ما ينسون ما عانوه من فقر فيما مضى– حيث يقال: "عندما تمتلئ المعدة تنسى أوقات الجوع"– لكن لم ينس على أصغر وزوجته سنوات الجوع والفقر. فقد دفعا زكاتهما وأغدقا العطاء على الفقراء، وكانا فى كل أسبوع ينصبان وليمة ويدعوان إليها الجميع. حيث يحتشد الناس من جميع أنحاء الضاحية ليأكلوا ويملأوا آنيتهم بالأرز والعصيدة ليأخذوها معهم إثر عودتهم إلى بيوتهم فيأكلوا منها فى اليوم التالى.

وسرعان ما أوشكت حصيلة على أصغر من القطع الذهبية على النفاد، كما اقترب موعد انتهاء المهلة المحددة لإتمام مهمته – العثور على النبى خضر وإحضاره للملك. وقد ازدادت نشوة على أصغر الذى قرر

أن يعيش أميرًا لمدة أربعين يومًا فقط قبل أن يتم إعدامه. ولكنه بعد أن ذاق طعم العيش فى رغد وترف زاد تمسكه بالحياة. تخشى كل الأحياء الموت لكن البشر وحدهم هم الذين يفكرون فيه ويخافونه قبل أن يأتى بوقت طويل، والآن يستطيع على أصغر أن يتخيل نهايته ويراها نصب عينيه، حتى إنه بدأ يندم على فعلته التى أقدم عليها وود لو أنه أنصت إلى نصيحة زوجته ورضى بحالهما. لكنه أدرك أن الأوان قد فات حيث لا يجدى الندم وكتم ما كان يساوره من قلق ومخاوف فى حشايا صدره.

أنفق على أصغر وزوجته فى الليلة التاسعة والثلاثين آخر قطعة ذهب تبقت لديهما حيث أقاما وليمة عشاء ضخمة دعا إليها العوام. وأكل فقراء الحى الطعام الشهى وتناولوا المشروبات المثلجة وانصرفوا بعد أن دعوا لعلى بدوام العافية والرغد والرخاء دون أن يعلموا أن هذه هى آخر مرة سيرونه فيها. وانصرف الجميع عندما انتصف الليل.

قال على أصغر لزوجته: "فى غضون ساعات قليلة سيطلع الفجر وسيأتى رجال الملك لإلقاء القبض على! ماذا سيحدث لك بعد رحيلى؟" وتعانق الزوجان وبكيا.

والآن سمعا طرقًا طفيفًا على باب منزلهما. من سيأتيهما فى هذه الساعة الملعونة؟ ماذا عساهما أن يفعلا؟- هل يفتحان الباب؟ قد يكون أحد ضيوف العشاء الذى نسى بعض أغراضه وجاء ليبحث عنها؟ أو قد يكون عابر سبيل قد ضل طريقه؟

في نهاية الأمر فتحا الباب ليجدا درويشًا متجولاً يسألهما بعض الماء والطعام إذا أمكن حيث إنه كان على قارعة الطريق لعدة أيام وقد نفد زاده من الطعام فالكشكول[1] الذي اعتاد أن يتجول به خال تماما من الطعام. دعواه إلى دخول المنزل وأحضرت له زوجة على أصغر بعضًا مما تبقى من وليمة الليل والتهم الدرويش الطعام ثم طلب المبيت لديهما متعللاً بأن الليل قاتم غير مقمر وإن واصل السير قد يضل طريقه أو قد يعترضه بعض اللصوص أو الوحوش الكاسرة وأنه سيكون ممنونًا إذا سمحا له بالمبيت لديهما متعهداً بأن يغادر بيتهما عند طلوع الفجر. وقبل الزوجان مطلبه وعرضا عليه أن ينام على فراش بأحد أرجاء المنزل ولكنه أبى وآثر أن يفترش عباءته وينام عليها وسرعان ما غالبه النوم.

لكن النوم جافا أعين مضيفيه ومكثا طيلة الليل ينتظران المصير المحتوم آملين أن ينسى الملك أمر القطع الذهبية ولكن هيهات. وما إن لاحت الشمس بالأفق حتى سمعا صوت حوافر خيل رجال الملك الذين قرعوا باب المنزل قرعًا مدويًا.

وصاح صوت قائلاً: "افتح الباب! نحن رجال الملك."

وما إن فتح على أصغر الباب حتى احتشدوا داخل المنزل ليخطروه بصدور الأوامر بإحضاره إلى القصر الملكي.

استيقظ الدرويش المتجول من نومه الآن: وكان على أصغر يرتعد خوفًا وفجعت زوجته، أما رجال الملك فقد كانوا على أهبة الاستعداد

للجوء إلى العنف إذا ما واجهوا أية مقاومة. وهنا قال الدرويش لمضيفه: "سآتى معك: لدى شىء أرغب فى قوله للملك."

وافق رجال الملك على اصطحاب الدرويش معهم فهو مجرد درويش رجل صالح لا يشكل خطراً على أى منهم.

وما إن وصلوا القصر حتى تقدم كل من الجمال والدرويش العجوز إلى قاعة استقبال الملك حيث كان الملك جالسًا يحيطه وزراؤه، اثنان على كل جانب وتحيطه دائرة من حاشيته.

خاطب الملك على أصغر قائلاً: "إذن هل وجدت النبى خضر؟"

أجاب على أصغر قائلاً إنه لم يفعل وإن كل جهوده فى هذا الصدد قد باءت بالفشل.

فقال الملك:"فى هذه الحالة عليك أن تعيد الألف قطعة ذهبية التى كنت قد منحتها لك من قبل." وكان لزامًا على على أصغر أن يعترف أنه أنفق الذهب كله. ذكره الملك أنه طلب أن يتسلم المكافأة مقدمًا شريطة أنه إذا لم يعثر على النبى خضر خلال أربعين يومًا ولم يعد الذهب سيتم إعدامه.

هز على أصغر رأسه بالإيجاب مؤيداً لكلام الملك وقال: "نعم.أعرف ذلك جيداً جلالتك وأنا الآن تحت إمرتك."

تعجب الملك واتجه إلى وزيره الأول وسأله ما هو أسلوب الإعدام الأمثل الذى يليق بهذا الرجل.

فأجاب الوزير: "إذا كنت مكانك لقمت بتقطيع جسده وتقسيمه إلى أربعة أجزاء تعلق على بوابات المدينة الأربع ليكون عبرة لسائر الرعية."

بعد أن لاذ الدرويش بالصمت والتزم الوقوف بأحد أركان المكان تكلم عندما سمع نصيحة الوزير قال: "الأمر كله يتعلق بالنشأة." وبدا الرجل وكأنه أحمق يهذى، ولم يعره أحد اهتمامًا.

وهنا توجه الملك إلى وزيره الثانى وسأله: "فى رأيك ما هو أسلوب الإعدام الأمثل الذى يليق بهذا الرجل؟"

وأجاب الوزير الثانى فى لمح البصر: "إذا كنت فى موقفك هذا مولاى لتعين على القاؤه فى فرن الحمام ليتم إحراقه حيًا ويكون عبرة لكل من تسول له نفسه من الرعية خداع جلالتكم."

مرة أخرى يردد الدرويش نفس العبارة: "الأمر كله يتعلق بالنشأة."

وانصرف الملك إلى الوزير الثالث وسأله نفس السؤال بأى الطرق يستحق هذا الرجل إعدامه وعقابه على فعلته المشينة التى ارتكبها. فأجاب الوزير الثالث قائلاً: "إذا واجهنى نفس الموقف سأقوم جلالتك بوخز جسده بإبرة كبيرة كتلك التى تستخدم فى حياكة الحقائب ليظل ينزف دمًا حتى الموت ويكون عبرة لكل خارج عن القانون."

مرة أخرى يردد الدرويش نفس العبارة وبصوت عال: "الأمر كله يتعلق بالنشأة."

وفى نهاية الأمر توجه الملك إلى الوزير الرابع وهو شاب اختاره بنفسه وسأله ماذا عساه أن يفعل مع على أصغر فأجاب الرجل: "جلالة الملك أنت خليفة أى أنك ظل الله فى الأرض راعى شعبك، ولك أن تفعل ما يروق لك ولكن مهما فعلت بهذا الرجل سواء قطعت رأسه أو مزقت جسده إربا أو أحرقته فإن ذلك لن يعيد لك الذهب أو يجمعك بالنبى خضر. ولكن إذا عفوت عنه ستنال الرحمة والمغفرة من الله عز وجل فهو الرحمن الرحيم. فهذا الرجل لا يعدو أن يكون حطابًا فقيرًا أغراه العرض. وإذا كنت فى ذلك الموقف لعفوت عنه بل ومنحته معاشًا يعينه على تلبية مطالب الحياة ويكفل له الكرامة فى هـــذه السن المتقدمة. وهنا سيكون ممنونًا لك طيلة حياته.

تأمل الملك الإجابات الأربع الذى أدلى بها وزراؤه. فقد نصحه ثلاثة منهم بتطبيق أقصى عقوبة على الرجل ليكون عبرة للرعية بأسرها، بينما انفرد الرابع بطلب العفو الكامل عن الرجل. والآن ينتظر الجميع الكلمة الأخيرة مترقبين أسارير الملك بينما يرتعد على أصغر فى انتظار الموت والتنكيل به.

وفجأة طلب الملك من الدرويش أن يتقدم نحوه ويشرح له ما دلالة مقولته: "الأمر كله يتعلق بالنشأة." تلك المقولة التى كان يرددها عندما يدلى كل وزير برأيه فى شأن على أصغر. سر الدرويش أن الملك قرر أن يخاطبه فى نهاية الأمر ووافق أن يجيب الملك على أن يعده ألا يلحق به أى أذى مهما قال، ووافق الملك وأعطاه الأمان.

قال الدرويش: "حسنًا سيدى فإن الوزير الأول الذى اقترح تقسيم جسد الرجل إلى أجزاء أربعة وتعليقها على بوابات المدينة الأربع أبوه فى الأصل جزار. اعتاد أن يشاهد أباه يذبح الخراف الوديعة ويقسم أجسادها ويعلقها بأرجاء متجره لذا اقترح الوزير الأول أن تفعل أنت نفس الشئ مع الحطاب المسكين. بينما الوزير الثانى هو فى الأصل ابن لعامل بحمام عام اعتاد منذ الصغر أن يرى أباه يحمى النيران لتدفئة المياه بالحمام، لذا اقترح أن يكون الحرق هو الجزاء العادل للرجل. أما الوزير الثالث هو ابن لصانع حقائب اعتاد منذ صغره أن يرى أباه يخيط قطع القماش، لذا اقترح أن يظل الحطاب ينزف فترة طويلة على إثر وخز جسده بإبرة كبيرة حتى يموت متأثرًا بجراحه. أما الوزير الرابع فهو ابن لأمير نبيل واعتاد أن يرى أباه يحكم بالعدل والرحمة فتعلم منه الرأفة والرحمة. هكذا مولاى يمكنك أن ترى أن كل رجل قد تصرف وفق ما تمليه عليه نشأته، وهذا ما أردت الإشارة إليه عندما كنت أردد : "الأمر كله يتعلق بالنشأة." وما إن انتهى الدرويش من حديثه حتى خطا إلى الخلف منتظرًا قرار الملك.

وقبل أن ينطق الملك بقراره النهائى فى شأن على أصغر، ود أن يعرف كيف تسنى للدرويش معرفة نشأة وزرائه الأربعة، حيث إن هذه المعلومات تعد سرا من أسرار الدولة: حيث كان يعتبر ذلك أفضل ليعرف الوزراء فقط بحكمتهم وقدرتهم على إصدار الأحكام الصائبة.

وسأل الملك الدوريش: "أيها الدرويش وددت أن أعرف من أنت؟ وكيف عرفت أصول كل من وزرائى الأربعة؟"

اختفى الدرويش فى التو بدلاً من أن يجيب أسئلة الملك، وفجأة أصبحت البقعة التى كان يقف بها الدرويش خاوية تماماً. تعجب جمهور الحاضرين وقالوا: "اللهم لك الحمد"، فقد أدركوا أن الدرويش الذى اختفى فى التو ما هو إلا النبى خضر. لكن على أصغر كان أكثر الحاضرين ذهولاً وعندما سأله الملك أين وجد الخضر أخبره بقصته من البداية إلى النهاية.

بما أن الحطاب العجوز قد تمكن من إحضار الخضر فقد أصدر الملك فرماناً يمنحه "ألف قطعة ذهبية أخرى فضلاً عن معاش يعينه على أن يحيا بقية عمره حياة كريمة. وسرعان ما ذاع نبأ ظهور الخضر فى القصر الملكى واحتفل الناس بالأمر وتنبأوا بوقوع معجزة."

وفى هذه الليلة عانق الملك زوجته وبعد مرور تسعة أشهر وضعت زوجته توأماً ولداً وبنتاً واحتفل أهل البلدة جميعاً بميلاد الصغيرين فقد بوركا، وغداً سيصبح الصغير ملكاً عادلاً ونبيلاً وستصبح البنت أميرة جميلة تتسم بالحكمة ورجاحة العقل.

لا يؤمن الناس فى هذه الأيام فى المدن بمعجزات النبى خضر ولكنه يظهر أحياناً فى الريف متنكراً فى هيئات متباينة، بينما لا يدرك الناس هويته إلا عندما يختفى بعد أن يحقق لهم مطالب وغايات أعيتهم السبل للحصول عليها. وعندما لا يكون هناك سبيل لتحقيق ما يرنون

إليه تظل يد العون المرجوة هى فقط مد من عالم الغيب نطلق عليه معجزة لتصبح هى الأمل الوحيد المتبقى. لذلك قال الشاعر: "إذا أغلق الله بابًا من أبواب المعرفة.... فهو يفتح بابًا آخرًا من أبواب الرحمة[٢]".

فنحن البشر لا يمكن بعقولنا القاصرة أن ندرك حكمة الله فيما أجرى عليه المقادير.

الحماة القاسية

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

سأروى لكم قصة دارت أحداثها فى الشمال منذ زمن طويل قد مضى. روت هذه القصة عجوز بقريتنا تعمل بالغزل، وقد بلغت من العمر مائة عام.. وقد تعلمت حرفتها هذه على يد عمتها المسنة ونسيت كيف تعلمت هذه العمة تلك الحرفة. ربما كانت تلك هى قصة حياتها، أو قد تكون اختلقت القصة، أو قد يكون مصدر القصة هو عالم الغيب المثير بغموضه حيث تنشأ جميع القصص...لا يهم من أين أتت القصة.

كان هناك أرملة تدعى "طوبة" وكانت طوبة تعيش مع ابنها الوحيد "حميد" فى بيت بالقرب من البحر. وما إن بلغت طوبة الرابعة عشرة حتى قام أبوها بعقد قرانها على أرمل توفيت زوجته دون أن تنجب له أبناء وكان يعمل بتجارة الخردوات وكان الرجل فى سن أبيها، لكن أبواها وافقاعلى إتمام هذه الزيجة بلهفة حتى يتخلصا من عبء التكفل بطوبة.

وفى البداية لم تستشعر طوبة السعادة، ذلك لأن زوجها بدا يكبرها بكثير، لكنه أحسن معاملتها حتى أصبحت متيمة به فيما بعد. فهى الآن

على الأقل لديها بيت خاص بها وطعام كاف ويحترمها الجميع، وأنجبت طوية بعد مرور عام حميد، وفرح زوجها كثيراً بالمولود فأخيراً أصبح لديه ابن ووريث، فلطالما تطلع إلي ذلك طيلة حياته. أعد الرجل وليمة كبيرة حيث ذبح عجلاً ضخمًا وطبخ الطهاة الأرز ودعا الفقراء للمأدبة حيث احتشدوا من جميع القرى وأكلوا ودعوا للمولود الجديد بحياة مديدة ومزدهرة.

جلب المولود الجديد الحظ لأبيه حيث ازدهرت تجارته. وأصبح شخصية مرموقة فى السوق وذاع صيته وعنرف بالحكمة والحنكة الأمر الذى دعا التجار الآخرين إلى أن يستشيروه فى أمورهم ويسألوه النصيحة.

مرت السنون وكبر حميد ليصبح صبياً لطيفًا تسر لرؤيته الأعين. واعتاد أبوه أن يصطحبه إلى متجره ذلك المتجر الذى سيصبح فى يوم ما متجر حميد نفسه.

أخبر تاجر الخردوات زوجته بعد مرور سنوات قليلة أنه أصبح غنياً بالقدر الذى يوجب عليه إتمام فريضة الحج، وأنه يجب أن يسافر إلى مكة ليؤدى هذه الشعيرة وقد أوكل إلى ابنه إدارة تجارته وحثه على رعاية الأسرة ورحل مع قافلة الحجاج إلى الجزيرة العربية.

وفى هذه الأيام اعتاد الناس أن تمر شهور قبل أن تأتى أنباء حول قوافل الحجاج. كانت الجبال تعج بقطاع الطرق واللصوص الذى ينقضون على القوافل أو يقتلون المسافرين أو يأخذون كل ما بحوزتهم ويتركونهم

مجردين من كل أغراضهم على قارعة الطريق وسط الصحراء ليموتوا جوعًا أو تأكلهم الوحوش، أو تداهمهم الأمراض والكوارث الطبيعية لتقضى عليهم وتحصد أرواحهم، وأحيانًا ما تصطدم السفن بالصخور فى الخليج الفارسى الذى يعبره الحجاج ليصلوا إلى الجزيرة العربية حيث يقع بيت الله الحرام.

انتظرت طوبة على مضض لتأتى أخبار الحجاج لكن مرت الأسابيع دون أن ترد أى أنباء. جاء فى يوم ما رسول يحمل أنباء غير سارة حيث أخبرهم بهبوب رياح عاتية على البحر إبان عبور سفينة الحجاج مما أسفر عن غرق السفينة بكل من كان على متنها من حجاج. ذهلت طوبة وأصابها الوجوم ولكنها حمدت الله أن زوجها قد ترك تجارة رغدة وأن أخا زوجها سيكون عونًا لهما ويحرس أموالهما ويدافع عن حقها وحق ابنها حميد. "دائمًا ما يظل هناك شىء يمكننا أن نشكر الله عليه." إلا أن ما اسفرت عنه الأحداث كان بخلاف توقعاتها فكلما مر الوقت ازداد الأمر سوءًا.

كان أخو زوجها يزورها مرة فى مطلع كل شهر ليعطيها ربح المتجر ولكن كل مرة كان المبلغ يقل عن ذى قبل، حتى أصبح بالكاد يكفيها لسد حاجاتها الأساسية. استنفد أخو زوجها كل الأعذار لتبرير عدم إدرار المتجر ربحًا كافيًا وكانت طوبة تصدقه دومًا متمنية أن يتبدل الحال.

جاءها أخو زوجها فى يوم من الأيام وكان واجمًا حيث أخبرها أن تجارة زوجها قد أفلست، الأمر الذى دعاه إلى تصفيتها وأنه فى طريقه

إلى المدينة حتى يمكنه العثور على عمل. ووعد أن يرسل إليها بعض النقود عندما يتسنى له ذلك.

ولا يتطلب الأمر أن نورد أن ذلك الرجل لم يره أحد أو يسمع عنه بعد ذلك. وفهمت طوبة حقيقة الأمر إما أن ذلك الرجل قد غشها عن عمد أو أنه قد أساء إدارة المتجر. أيا كان الأمر فالحقيقة الوحيدة المتبقية هى أنها أصبحت أرملة ولديها طفل وليس لديها مصادر رزق أخرى. فبكت ولطمت وجهها وجعلت تنادى النبي والأئمة راجية عدل الله ورحمته. وبدأت تبحث عن عمل وراحت تكسب عيشها فقد كانت تقبل أية وظيفة مهما كانت متواضعة وتتكبد المعاناة بلا شكوى.

ومع مرور الوقت أصبحت طوبة تشعر بالمرارة والقسوة وتحتقر كل هؤلاء الذين يتمتعون بظروف أفضل منها. وكما يقولون لا شئ يقهر القلب مثل الشعور بالمرارة، تماما كما تلبد غيوم الحقد والحسد كلا من العقل والروح، وقد ابتليت طوبة بالاثنين المرارة والحقد. لم ينج أحد من هذه المشاعر السوداء سوى ابنها فقد كان قرة عينها وتحملت لأجله صنوف الإهانة والصراع والظلم فى صمت تام. فقد تمنت أن يصبح حميد يومًا ما ابنًا بارًا وجادًا في عمله عندما يشتد ساعده لتكون فخورة به.

ذهبت طوبة فى أحد الأيام إلى السوق لتسأل عن أخى زوجها وما إذا كان أحد قد سمع عنه أى شئ ولكن هيهات!

كان المتجر مفتوحًا ومكدسًا بالبضائع يقف به رجل وسيم متوسط العمر يلبى مطالب الزبائن. انتظرت حتى أصبح الرجل بمفرده ثم بدت وكأنها ترغب في شراء بعض الأغـراض وجعلت تتحدث مع الرجـــل. نمى إلى علمها أن الرجل يدعى محمد ويسـكن فى قـرية خلف الغابة. فقد أراد أن يسكن فى هذه المنطقة كدرب من دروب التغيير حيث كان يرغب فى أن يعيش بالقرب من البحر وأنه كان قد اشترى هذا المتجر. كما أورد الرجل أنه دفع مبلغًا كبيرًا عند شراء هذا المتجر لكنه راض تماما بهذه الصفقة.

وسألته طوبة عما إذا كان يعلم أى شئ عن صاحب المتجر السابق فأجابها محمد: "لا شئ على الإطلاق..لقد قال إنه سيكون موجودًا إذا تطلب الأمر اللجوء إليه ولكنه اختفى تمامًا كأن يكون جنيًا."

وهنا أخبرته طوبة بقصتها وشعر الرجل بالأسف لحالها. ووعد أنه عندما يكبر حميد قليلاً سيسند إليه عملاً فى متجره ويتولى تدريبه.

وهكذا مرت الأيام ليكبر حميد ويشتد عوده ويصبح رجلاً وسيمًا شجاعًا ومتواضعًا وخدومًا. فى بادئ الأمر عمل كصبى لدى صاحب المتجر الجديد، وسرعان ما صار مساعده المؤتمن. وكان صاحب المتجر حكيمًا ماهرًا وتاجرًا محنكًا، وأخبره فى يوم ما أنه كبر ويجب أن يتزوج فعلى أمه أن ترشح له عروسًا مناسبة. شعر حميد بالخجل فكيف سيطرح مثل هذا الأمر على أمه وعرض صاحب المتجر عليه أن يتولى هو مخاطبة أمه فى هذا الشأن نيابة عنه.

استدعى الرجل طوبة إلى بيته وأخبرها أنها بوصفها أمًا مثالية عليها أن تفكر فى مستقبل ابنها وأن ترشح له عروسًا طيبة ومتواضعة لينكحها. شعرت طوبة وكأنها تلقت طعنة فى صميم فؤادها: أليس من حقها بعد كل سنوات الشقاء هذه أن تستحوذ وحدها على اهتمام ابنها ولو للسنوات القليلة المقبلة؟ هكذا اعتادت طوبة أن تفكر على هذا النحو لكنها أبدًا لا تبدى غيرتها ووافقت طوبة الرجل قائلة:" بالطبع أنت محق": وعلى الفور رشح محمد سميرة ابنة أحد أصدقائه وعرض أن يتوسط بين الأسرتين لإتمام الأمر - سر أبو العروس كثيرًا فقد أثنى محمد على الخاطب وبدا الشاب نفسه مهذبًا وذكيًا.

تكفل صاحب المتجر - محمد - بتكاليف حفل الزفاف وانتقلت العروس الشابة للعيش فى بيت حميد وأمه. اجتاح طوبة شعور بالغيرة من زوجة ابنها على نحو غريب، وبالكاد كانت تكتم غضبها وحقدها ودبرت حيلة للتخلص من زوجة ابنها. كانت طوبة كل يوم بعد مغادرة حميد المنزل تتعمد تسخير سميرة فى العمل بالمنزل، تجعلها تنظف وتغسل وتطبخ وتتعمد أن تجعلها تعيد كل شئ تقوم به مرات ومرات إمعانا فى إذلالها، ولا تتوقف عن نقدها وتوجيه اللوم لها. وتقوم هى فى الظهيرة بتناول وجبة غداء ضخمة دون أن تعطى الفتاة شيئًا سوى كسرة خبز وكوب ماء، وعندما يجلسون لتناول العشاء تخبر طوبة ابنها أن زوجته أكلت وحدها أكثر من نصف الطعام وما تبقى بالكاد يكفيهما. داهم الزوجة الشابة شعور دائم بالخوف مما قد يصدر عن طوبة من

تصرفات إذا ما دافعت الفتاة عن نفسها ودرأت تلك الأكاذيب وأوت إلى فراشها وهى تتضور جوعًا.

كانت سلطة الحماة فى هذه الأيام تعد سلطة عليا: فقد كانت تدير شئون المنزل، وكان لزامًا على كل فرد من أفراد الأسرة أن يرضخ لها ويدين لها بالولاء والطاعة حتى آخر يوم فى حياتها، وعندما تموت الحماة تحل زوجة الابن محلها لتصبح هى ربة المنزل. يمكنك أن تقول تستطيع الفتاة أن تهرب وتخبر أبويها بما تعانيه ولكن الأمر متعلق بالشرف - فقد تزوجت لتصبح زوجة طيلة حياتها وإذا عادت إلى بيت أبيها فقد تلحق العار بأبويها: وسيعتبرها الجميع بضاعة تالفة فهى لم تعد بكرًا ولن يتزوجها آخر. ستصبح عبئًا على والديها وسيحتقرها الجميع. كما أنها كانت قد أحبت زوجها الذى كان حنونًا فطنًا، ولا تتخيل أنها يمكن أن تحب رجلاً آخر فى هذه الدنيا.

وبمرور الوقت فقدت سميرة شهيتها وأصبحت شاحبة الوجه وخفت بريق عينيها وأصبحت نحيلة للغاية. وشعر زوجها الذى ملك عليه حبها فؤاده بالقلق إزاء ما آل إليه حالها، ولكن كلما حاول معرفة حقيقة أمرها كانت تدعى أن كل شئ على ما يرام. اقترح حميد أن يعرضها على طبيب ولكن أمه قالت إن الطبيب لا يعرف شيئًا، وأن كل ما تعانيه زوجته هو بعض الأرق نظرًا لأنها انتقلت من العيش فى بيت أبيها إلى بيت آخر وسرعان ما ستتحسن حالتها. فى النهاية استدعى حميد الطبيب الذى قام بالكشف على الفتاة ووصف لها بعض العقاقير، وما إن أحضر حميد

الدواء حتى قامت طوبة بسرقة زجاجات الدواء وأبدلت محتواها بالماء والخل وبالطبع لم يؤت الدواء ثماره ولم تتماثل سميرة للشفاء.

والآن كان متجر الخردوات قد ازدهر وتم تعيين مساعد جديد فيه يدعى مجيد قدم من بلدة أصفهان للمساهمة فى عبء العمل. عمل مجيد فى حانوت صانع الأصباغ لكن صاحب الحانوت وافته المنية وبيع المتجر وقرر مجيد أن يغير حياته وانتقل للعيش فى مكان آخر وجعل يبحث عن حرفة أخرى والآن أصبح كل من حميد ومجيد صديقين.

وكما هو معروف فإن أهل أصفهان يتسمون بالحنكة والذكاء. لاحظ مجيد أن صاحبه حميد يبدو دائمًا قلقًا غير سعيد، وفى يوم من الأيام عندما جلسا على حدة انتهز مجيد الفرصة وسأل حميد عن حقيقة الأمر، أى ما هى المشكلة التى هو بصدد مواجهتها. شعر حميد بالراحة لأنه أخيراً وجد إنسانًا يمكنه أن يثق فيه ويفضى إليه بمعاناته وأخبر صديقه بالقصة كلها بدءًا من وفاة أبيه فى حادث السفينة وصولاً إلى مشاكل أمه وما تعانيه زوجته الجميلة من مرض وذبول. فهو يحبها ولا يستطيع أن يتخيل حياته بدونها.

وتعجب صديقه وظل صامتًا لبرهة ثم قال: "أترك الأمر برمته لى وفى غضون يومين سأرى مايمكننى فعله."

وصل حميد إلى عمله فى صباح اليوم التالى طلب منه مجيد أن يغلق الحانوت لفترة من الوقت تكفى للقيام بمهمة ما. ثم عاد إلى منزله

وفى غرفته الكائنة بمنزل قريب من منزل حميد اعتلى سطح البيت وتنقل بين أسطح البيوت حتى وصل إلى بيت حميد. وجلس على حافة السور ليراقب ما يدور داخل المنزل.

وجد أن طوبة تتشاجر طيلة الوقت مع زوجة ابنها بلا رحمة تسخرها فى الأعمال المنزلية فالفتاة، تغسل الصحون مراراً وتكراراً وتكنس الساحة عشر مرات وهى طيلة الوقت تضربها بعصاة وتنهرها واصفة إياها بالقبح وعدم الجدوى، وكانت الفتاة تلوذ بالصمت وتبكى دون أن تشعر بها أحداً. وتجلس طوبة فى وقت الغداء لتتناول هى الطعام الشهى والخبز الطازج دون أن تدع لسميرة أى شىء تأكله سوى كسرة خبز عطن وكوب من الماء وسميرة بدورها لا تقربهما.

عاد مجيد إلى المتجر ليخبر حميد بما رآه: "أى أحمق أنت! أليس لديك عين لترى ولا عقل لتدرك ما يحدث لزوجتك؟ زوجتك سليمة كل ما هنالك أنها تواجه حملة تجويع؟" وقص عليه ما رآه بأم عينيه عبر مراقبته للبيت من خلال السطح.

استشاط حميد غضباً ولكن كيف سيواجه أمه بفعلتها الشنعاء هذه؟ فهو مدين لأمه بكل شئ فقد ضحت بنفسها لأجله وهى الآن مسنة- كيف يواجهها مستنكراً كل ما تقوم بفعله إزاء زوجته؟ ستشعر الأم بالعار مما سيزيد الموقف سوءاً. ماذا عساه يفعل الآن؟

وافق مجيد قائلاً: أنت محق فإن الشجار مع أمك لن يجدى : فهى مسنة، وقد أفقدتها الغيرة وسنوات الشقاء صوابها وقدرتها على الحكم على الأمور بطريقة سوية: فقط عليك بالقيام بما سأوصيك به وستتبدل الأمور فى غضون فترة وجيزة. اذهب إلى المنزل وأخبر أمك أنك ضقت ذرعًا بزوجتك ولم تعد ترغب فى زوجة ما هى إلا كومة من العظام وأنك تنوى الاقتران من امرأة أخرى تكبرها قليلاً وتفوقها حكمة يتعين عليها أن تقدر أمك وتسعد بصحبتها، ثم أحضر زوجتك إلى بيتى لتقيم مع أمى حيث ستكون آمنة وستتغذى على نحو يعينها على استعادة صحتها."

ووافق حميد على فكرة مجيد وفى نفس اليوم مساءً أوصد باب حجرته وعانق زوجته عندما اختلى بها وأمطرها بوابل من القبلات وأخبرها بمدى أسفه لأنه لم يلحظ ما تتعرض له من قهر وشرح لها خطة مجيد. تنفست سميرة الصعداء وانفرجت أساريرها حيث لاحت بارقة أمل نصب عينيها لأول مرة.

أخبر حميد أمه فى صباح اليوم التالى أنه ضاق ذرعًا بزوجته دائمة المرض هذه، وأنه سيعيدها إلى بيت أبويها وسيتزوج من أخرى وحقيقة الأمر أنه بالفعل قد وقع اختياره على فتاة أخرى مناسبة له تمامًا. انفرجت أسارير طوبة فها هى ذى تبلغ مرادها فقد نجحت فى الإطاحة بزوجة ابنها، استدركت الأمر وتعمدت إخفاء فرحتها واكتفت بقول:"إفعل ما يحلو لك ابنى العزيز فأنا أوافقك على أى شىء تفعله وكل ما يعنينى فى نهاية المطاف هو سعادتك." ولكن فى قرارة نفسها

رددت: "سأعرف جيداً كيف أطيح بزوجتك المقبلة تماماً كما فعلت مع عروسك الغابرة."

وفى صباح اليوم التالى اصطحب حميد سميرة ليتركها فى منزل أبوى مجيد ومضى فى طريقه إلى متجره بينما تنفست طوبة الصعداء وهمست:"ياحفيظ."

وفى المساء حلق مجيد لحيته ووضع باروكة ومساحيق تجميل وارتدى فستاناً أنيقاً وذهب بصحبة حميد إلى بيته.

تقدم حميد مستبشراً نحو أمه وقال: "ها هى مونة زوجة ابنك الجديدة."

وعلقت طوبة قائلة: "يالها من عروس جميلة" وعانقتها.. "مرحباً... ألف مرحباً كم أنا سعيدة فزوجة ابنى عروس رائعة."

تصنع مجيد الخجل وابتسم وأحنى رأسه دلالة على الطاعة والتواضع دون أن يزيل الطرحة التى غطت نصف وجهه. واعتقدت طوبة أن العروس الجديدة أكثر خجلاً وحياءً من سميرة فاستبشرت خيراً، فإن ذلك من شأنه أن يجعل مهمة الإطاحة بها أكثر يسراً.

افترشت طوبة السفرة[١] وجلسوا لتناول الطعام. تناول مجيد قليلا من الطعام وادعى أنه شبع للغاية وهمس: "أشكرك، لقد كان الطعام شهياً للغاية."

اعتقدت طوبة أن التعامل مع العروس الجديدة سيكون أيسر حيث إنها ليست أكولة.

أوصد حميد ومجيد باب مخدعهما وانفجرا فى الضحك ولكن ظل حميد قلقًا إزاء الموقف.

وفى صباح اليوم التالى ترك حميد المنزل وتوجه إلى عمله وأوكل إلى أمه مهمة رعاية زوجته الجديدة. وما إن رحل حميد حتى هرولت طوبة إلى عروسه لتسومها صنوف العذاب، فقد أمرتها أن تشمر عن ساعديها لتتأهب للقيام بأعباء المنزل لكن الفتاه رفضت بشدة وقالت: "أنا عروس ولا أرغب فى أن يعود زوجى إلى المنزل ليجدنى متسخة: اذهبى أنت ونظفى البيت بنفسك."

انعقد لسان طوبة! كيف تجرؤ هذه الشابة على عصيانها؟ التقطت عصاها لتضربها بعنف على أم رأسها لكن مجيد التقط العصا وكسرها بضربة واحدة مقابل ركبته وألقى بها فى وجه طوبة.

وقال: "والآن عليك أن تعملى قبل أن أكسر العصا على رأسك... عليك أن تنهى كل المهام المنزلية سريعًا فأنا أرغب فى تناول الغداء فى تمام الظهيرة."

انتاب طوبة الشعور بالهلع حتى إنها هرولت تنظف باحة المنزل متعهدة أن تضع حدًا لهذه المهزلة عندما يعود ابنها إلى المنزل فى المساء. وظل مجيد طيلة الوقت يأمرها وينتقدها فى كل شىء تقوم بفعله

وطلب منها أن تغسل خمس مرات وأن تطهو الغداء وتقدمه وعندما جلبت صينية الطعام للغرفة جلس مجيد وأكل كل الطعام ولم يترك لها شيئًا:
"هذه كسرة خبز يمكنك أن تمسحي بها ما تبقى في صحني."

وفي المساء اغتسل مجيد وزين وجهه وارتدى ملابس أنيقة وحيا زوجه بابتسامة متواضعة دافئة.

سأله حميد: "كيف كان يومك عزيزتي مونة؟"

"رائع فأمك عاملتني بمنتهى اللطف: لم تدعني أبذل أي جهد وقالت إني عروس وينبغي أن أظل نظيفة غضة في انتظارك."

لم تستطع طوبة أن تصدق ما تسمعه. كيف تكون هذه الفتاة بكل هذا الدهاء رغم صغر سنها! لم تقل طوبة شيئًا فقط تحينت الفرصة حين تختلي بابنها وتخبره بكل شيء، ولكن ذلك لا يحدث أبدًا فقد كانت العروس تتبع خطى زوجها أينما ذهب.

وما إن أوت طوبة إلى فراشها حتى أخبر مجيد حميد بما حدث طيلة اليوم وأنه سرعان ما ستندم أمه على ما فعلته مع سميرة المحبة الطيبة وتندم على اليوم الذي قررت فيه التخلص منها.

عندما غادر حميد المنزل أسرع مجيد إلى "طوبة" ليأمرها بتدفئة المياه حتى يتسنى لها الاستحمام حيث إنه لا يرغب في الذهاب إلى الحمام العام. فهو لن يستطيع الذهاب إلى حمام الرجال بثيابه هذه وفي حمام السيدات سيفتضح أمره. وقبل أن تعترض طوبة على القيام بذلك

فهى ليست خادمة كما أن قيام الحماة بإعداد الحمام لزوجة ابنها حقا أمر مهين... هنا لكمها مجيد ضربة قوية أصابت ذقنها وقال: "إذا لم تسرعى سيكون هنا المزيد من اللكمات." أدركت طوبة أن زوجة ابنها الجديدة ما هى إلا صاحبة إبليس أرسلتها السماء لتعذبها بها. فطالما كانت خسيسة ووضيعة مع الفتاة المسكينة التى كانت وديعة وطيبة تماما مثل الحمل ولم تؤذها فى شيء، وهى كادت تودى بحياتها إيذاء وظلماً لها والآن جاء عقاب السماء. وبدأت طوبة تشعر بالندم والخزى وتنتابها نوبات بكاء ومجيد يهدد ويتوعد.

عندما أعدت طوبة المياه أرسلها مجيد للتسوق حتى لا تتجسس عليه وتكشف سره. استحم وحلق وبدل ملابسه ووضع المساحيق. مرة أخرى فى وقت الغداء التهم الطعام كله حتى يتأكد أن طوبة لن يتبقى لديها شيء لتأكله. بل أعطى القطة باقى الطعام ولم يترك لطوبة شيئًا تأكله سوى كسرة خبز فى صينية.

قررت طوبة أن تخبر حميد فور وصوله بكل شئ لكن حميد تظاهر أنه يعاني من صداع وأوصد باب حجرته ومكث بصحبة زوجته فى الغرفة وفى صباح اليوم التالى انصرف إلى عمله دون أن يتحدث مع أمه.

عندما شعر مجيد بعد مرور أيام قليلة أن طوبة قد تعلمت الدرس طلب من حميد أن يرسل رسولاً إلى البيت برسالة مفادها أن أم مونة طريحة الفراش ويجب أن تذهب مونة لزيارتها فى التو.

وهكذا فعل حميد فقبل مجيئه إلى المنزل طرق صبي باب المنزل وأخبرهم أن أم مونة تحتضر وأنه لزامًا على ابنتها أن تسرع لتودعها. افتعل مجيد الشعور بالهلع وطلب من طوبة أن تخبر حميد أنها قد تغيب عدة أيام.

ثم توجه مجيد إلى الحانوت وأخبر حميد أن كل شئ على ما يرام تمامًا وفقًا للخطة، وأن أمه الآن على أتم استعداد للتنازل وجاء دوره الآن وعليه أن يؤدى دوره على الوجه الأمثل.

عاد حميد إلى المنزل وأدخلت أمه الطعام وبدأت تشتكى من زوجته الجديدة، وجعلت تخبره بأن هذه السيدة لا تعدو أن تكون حية عديمة الرحمة فقد اعتادت أن تنهرها وتجوعها وتضربها.

افتعل حميد الدهشة وتظاهر بأنه صدم وثار غاضبًا وقال: "سأطلقها فى الحال ولن تعود إلى هذا البيت...ولكن يجب أن أتزوج امرأة حسناء تلد لى ذرية وترعانى عندما تهرمين. فى رأيك من تصلح أن تكون لى زوجة؟"

قالت: "رد سميرة عروسك السابقة فقد كانت طيبة ورقيقة وأسأت أنا معاملتها."

افتعل الرجل مرة أخرى الدهشة بمثل هذا الاعتراف ولكنه وافق أن يذهب ويحاول إقناع سميرة بالعودة مرة أخرى إلى المنزل.

وهكذا نجحت خطة الأصفهانى الماكرة. واجتمع شمل حميد بزوجته الحبيبة سميرة ودللتها طوبة وأصبحت تعاملها بمثابة ابنة لها. أما مجيد فقد تزوج أخت سميرة وعاش الجميع فى سعادة وهناء منذ ذلك الحين.

الزوجـــة الـكـســـول

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

عندما يكون الرجل كسولاً يقولون إنه جبان، لكن عندما تكره المرأة العمل لابد أن نتحرى سبباً آخر. كانت حبيبة شابة تعيش فى بلدة كرمان وعرفت بكسلها، حتى إنه يمر عليها يوم ويومان دون أن تتحرك من مكانها، لكن أثناء طفولتها لم يكن الأمر كذلك. فقد كانت طفلة عابثة تلهو طيلة النهار وتلعب تماماً مثل الصبيان دون توقف دقيقة واحدة وإن وجدت شجرة تسرع لتتسلقها تماماً مثل القرد. وكانت دائما ما تقود الأطفال فى ألعابهم وعبثهم أيضاً. كانت أمها تلجأ أحياناً إلى ربطها بجسدها حتى يتسنى لها السيطرة عليها والتحكم فى حركاتها. واعتادت أن تطلق عليها "حبيبة السحلية" لأنها تتسلل دائما إلى جميع الأماكن.

عندما أشرفت حبيبة على بلوغ السادسة عشرة من عمرها اختلت بها ذات يوم لتخبرها أنها يجب أن تكون أكثر هدوءاً وتعد نفسها للزواج لأنها كبرت وسرعان ما سيتقدم لخطبتها رجل مناسب وستكون أماً لأطفال، وهؤلاء بلا شك سيكونون أشقياء مثلها ويقضون مضجعها

وحينها فقط ستقدر ما عانته أمها معها. لم تكن حبيبة ترغب فى أن تدخل عالم الكبار تاركه المزاح واللعب ليحل محلهما المكوث بالمنزل والهموم، ولكنها كانت تعرف أنها ليس لديها ما تقوله فى هذا الصدد. وحتى قبل بلوغها بدأ الجيران يتكلمون وبدأت الخاطبة تتردد على منزلهم. لا يهم اعتراض حبيبة على الأمر ولا يهم رغبتها فى البقاء مع أمها المزيد من الوقت وباءت كل محاولاتها بالفشل. إذا رفضت عرضا مناسبًا بالزواج، يتهمها الناس مرددين أنه ثمة خطأ بها. وقبل أن تدرك حقيقة الأمر وسوء موقفها ستكون قد تخطت العشرين من عمرها وسيزداد الأمر سوءاً وستظل إلى الأبد بلا زوج مما سيجلب لها ولأهلها الشعور بالخزى وسيجعلها تندم طيلة حياتها.

وقع اختيار أبويها من بين خطابها على طاهر فهو شاب عرف بالجدية وحسن الخلق.

وقد اعتاد حديثو الزواج فى هذه الأيام أن يعيشوا مع أهل الزوج حتى يرزقهما الله بأطفال. لكن طاهر لم يكن لديه أسرة، فقد توفى أبواه منذ أن كان صغيراً ثم عمل لدى مبيض نحاس فى السوق، فذلك الرجل لقنه الحرفة منذ كان صغيراً فهو الآن مساعد مبيض نحاس معروف بمهارته، كما عرف آنذاك أنه بمرور الوقت عندما يهرم صاحب العمل سيوكل إليه إدارة متجره. وأقام طاهر فترة طويلة فى غرفة خلف المتجر لكنه كان حذراً وادخر نقوده حتى تسنى له أخيراً شراء منزل صغير مجاور استعدادا للزواج والإقامة بهذا المنزل.

أصبح طاهر الآن سعيداً لأنه بصدد الاقتران بفتاة لأنها ليست جميلة فحسب، بل أيضًا مرحة وعلى خلق وأصبح يتوق شوقًا إلى يوم يجمعهما نفس البيت. أثث بيته الصغير ليصبح مريحًا وأنفق جل مدخراته لإقامة حفل زفاف رائع يشيد به الجميع، وفى ليلة الزفاف انتظر على شوق حتى ينصرف المدعوون وينفرد بعروسه.

وجد طاهر حبيبة خجولة للغاية ولا تستجيب لمبادراته، ولكنه ظن فى بادئ الأمر أن ذلك يُعَد شيئا طبيعيا، ربما حياؤها هذا أمر طبيعى بالنسبة لعروس شابة فى ليلة زفافها. حاول أن يجعلها تسترخى وتحدث إليها برفق، لكن مهما كان يقول لم تكن تفعل شيئًا سوى هز رأسها وفى نهاية الليلة انكمشت فى أحد أركان الحجرة وغلبها النعاس.

ذهل طاهر لكن لم يصبه الإحباط، فالفتاة ما زالت فى الرابعة عشرة من عمرها، وسرعان ما ستتعود عليه وعلى المكان الجديد وسيكون كل شىء على ما يرام. ذهب فى صباح اليوم التالى إلى العمل مترددًا فماذا عساه أن يفعل أيترك حبيبة بمفردها أم يظل معها؟ لكنه عاد مسرعًا إلى بيته إبان غروب الشمس. وتوقع أن حبيبة بلا شك قد انتهت من تنظيف المنزل وأعدت وجبة شهية لهما.

وفوجئ طاهر بحبيبة تجلس فى المكان الذى تركها به صباحًا ولم تفعل أى شئ على الإطلاق.

وتساءل: "عزيزتى: ماذا حدث؟"

وأجابت: "لا شيء... أنا خائفة"

وتعجب:"مم تخافين؟"...ولكنها ظلت تردد:"أنا خائفة."

كان طاهر شابًا طيبًا وصبورًا، حدثته نفسه أن حبيبة ربما تكون غير متوائمة مع فكرة الحياة الزوجية، ولم تعتد الأمر بعد. وسرعان ما ستتغلب على مخاوفها وتهيم به عشقًا. غسل صحون الإفطار وأعد الشاى وقام بطهى طعام العشاء فى نفس الوقت. عندما انتهى من إعداد كل شيء أحضر الطعام وجلسا ليأكلا سويًا. أكلت حبيبة طعامها كله ومسحت ما تبقى فى صحنها بكسرة خبز.

تصور طاهر بعد تناول الطعام أن تقوم حبيبة لتشمر عن ساعديها وتغسل الصحون، إلا أن حبيبة مرة أخرى تسللت إلى ركنهاالأثير وجعلت تردد: "أنا خائفة!"

أكد لها طاهر: "ليس هناك شئ مخيف فأنا معك ولن يصيبك سوء."

ورددت مرة أخرى:"أنا خائفة" وتوقفت عن الحركة.

واعتنى طاهر بكل شئ فى المنزل قبل أن يأوى إلى فراشه.

ومرت الأيام والأسابيع والشهور وحبيبة ترفض أن تقوم بأى شئ مهما كان، وفى كل مرة يطلب منها زوجها أن تفعل أى شئ تكتفى فقط بأن تردد: "أنا خائفة."..... حتى لو طلب منها زوجها كوب ماء فهى تردد قائلة: "أحضرها أنت لنفسك.... فأنا خائفة." حاول طاهر أن يعقل الأمر

معها لكن دون جدوى. وبالطبع لم تجمعهما علاقة حميمة. فكلما حاول طاهر أن يلمسها تبدأ ترتعد وترتعش وتلتصق بالحائط كأنها قطة صغيرة أصابها الهلع. بدأ يتعجب هل ستتغير حبيبة أم ستظل هكذا : حتى لو كانت لا تنوى القيام بأية أعمال منزلية لماذا لا تدعه يقترب منها ويحتضنها... وكان فى حيرة من أمره - فقد كانت حبيبة فتاة جميلة ملكت عليه لبه وفؤاده، ولم يرد قط أن يردها إلى بيت أبيها كما كان سيفعل أى شاب فى مكانه. وقرر أن يخبر رئيسه فى العمل بشأن حبيبة سائلاً إياه النصيحة، فلم يكن لديه ملاذ سوى اللجوء إلى ذلك الرجل.

وفى يوم من الأيام مرض صاحب المتجر وكان لزامًا على طاهر أن يذهب إلى المدينة لتوصيل بعض البضائع. ترك لحبيبة طعامًا يكفيها طوال فترة غيابه حتى تكون على ما يرام. وعاد طاهر بعد يومين ليجد أن حبيبة أكلت كل شئ وتركت الصحون متسخة وما إن رأته يدخل البيت حتى تسمرت فى مكانها وجعلت تردد: "أنا خائفة!.... أنا خائفة!" وتعجب طاهر كيف سيحسم هذا الأمر، ولم يعد يستطع التفكير فى هذه المحنة.

عندما حل المساء وجد طاهر أن حبيبة سعيدة للغاية على غير العادة. وقد أخبرته أن ابنة خالتها ستتزوج وأنه قد تمت دعوتها لحضور الزفاف. حيث كانت هذه الفتاة ابنة لخالة قد تزوجت برجل ثرى وبالطبع سيكون حفل زفاف ابنة خالتها هذا حفلاً أسطوريًا.

وفى هذه الأيام كان الزفاف يستمر إلى ما يقرب من أسبوع– يستغرق أيامًا قليلة للإعداد للحفل ومعاونة العروس وعندما يكون كل شيء معدًا يبدأ الاحتفال بالزفاف. وفى اليوم الأول تذهب العروس إلى الحمام وسط موكب من نساء العائلة حيث تغتسل وتدلك جسدها حتى يسير ناعمًا براقًا وتخضب شعرها وأصابع يديها وقدميها. وفى اليوم التالى يحضر الملا الذى يقيم شعائر الزفاف ويتم توقيع عقد القران. وفى نهاية المطاف يتم حفل الزفاف، وكان دائما ما يعج بالموسيقيين والراقصين وصنوف الطعام والشراب الشهية بدءًا من الشاى فى وقت العصارى وصولاً إلى العشاء مساء. وبالطبع كانت هذه هى الطقوس فى حال الأغنياء، أما الفقراء فكانوا يقضون الغرض بما هو قدر استطاعتهم فقط.

غمر حبيبة الشعور بالسعادة، ذلك لأنها ستغادر منزل الزوجية لعدة أيام، حتى إنها نسيت أن تردد لزوجها كعادتها: "أنا خائفة."

لاحظ طاهر التغير الذى طرأ على حالتها المزاجية، وكان متحيرًا للغاية. وهو الآخر كان مدعوًا لحضور حفل الزفاف من قبل أقاربها، لكنه رفض تلبية الدعوة متعللاً بأن صاحب العمل سافر وعليه أن يظل فى المتجر ليتولى هو بنفسه إدارة العمل وقد كانت هذه مجرد ذريعة أما السبب الحقيقى فى تخلفه عن حضور الحفل هو رغبته فى أن يختلى بنفسه لينظر ماذا عساه أن يفعل بشأن حبيبة.

وما أن رحلت حبيبة عن المنزل حتى مكث طاهر بمفرده متعجباً من شأنها ولا يعرف ماذا يفعل مع زوجته التى أصبحت سعيدة ملؤها حيوية عندما علمت أنها ستغادر المنزل وتعجب كيف ستكون عندما تصبح وسط أهلها وعشيرتها. التمس من صاحب العمل إجازة يومين سافر خلالهما إلى البلدة التى سيقام بها حفل الزفاف.

عندما وصل بيت عم حبيبة كان الوقت متأخراً بعد غياب الشمس وكانت الدار تغمرها الاحتفالات. ذهب طاهر إلى مسجد مجاور بدلاً من أن ينضم إلى باقى الضيوف فى حفل الزفاف. وفى المسجد تسلق سطح المبنى وتنقل بين أسطح البيوت حتى وصل بيت مجاور لبيت عم حبيبة ثم وقف بموضع يتيح له الاطلاع على مشهد الزفاف بالكامل... وياله من حفل!

كانت هناك حديقة مترامية الأطراف تضيئها مصابيح معلقة بالأشجار. وفى وسط الحديقة بقعة مفروشة بالسجاجيد لتكون حلبة تعرض بها الراقصات فقراتهن مرتديات فساتين حريرية. وفى أحد أرجاء الحديقة يجلس الموسيقيون يعزفون أنغاماً خلابة. أما الضيوف فكان الرجال يجلسون على الجانب الأيمن بينما النساء يجلسن على الجانب الأيسر، ويجلس المشاهير فى الوسط يحفون طاولات من الحلوى والمخبوزات والفاكهة. ويحتشد الخدم فى أرجاء المكان يصبون العصائر المثلجة فى الكئوس ويغرفون الأطباق بصنوف الطعام الشهية. لم يكن كل ذلك سوى مشهيات تسبق وجبة العشاء التى سيتم تقديمها، لا بينما تنبعث رائحة الطعام الذكية من المطبخ لتصل إلى سطح المكان.

نظر طاهر إلى المدعوين باحثًا عن زوجته، وما إن وقعت عيناه عليها حتى وجدها محاطة بجموع الفتيات، وبدت حبيبة كأن تكون قلب وروح الحفل فقد كانت دائمة التحدث والضحك. اقترب قليلاً حتى يتسنى له أن يسمع حديثها. وبدا أن الحديث كان يدور حول الشجاعة: وكيف أن هناك بعض الناس يتسمون بالجبن والبعض الآخر شجاعًا مقدامًا، وكيف أن من يتحلون بالجسارة هم فقط الفائزون فى اللعب والحياة ويتمتعون بحظ أكبر من الجاذبية، وأخذ الجميع يروون قصصاً ويضربون أمثالاً ويلقون شعرًا حول فكرة الشجاعة هذه.

وهنا قالت حبيبة: "فبدون الجرأة لن تكسب شيئًا فى هذه الحياة." وتقدمت حبيبة مجازفة لتقول:"أنا لا أعرف للخوف طريقًا أبدًا فبإمكانى الذهاب للمقابر ليلاً عندما تخرج كل الأشباح لأطهو هناك الحلوى وأنا سعيدة غير عابئة بالظلام وصفير الرياح والأرواح الهائمة."

وضحكن جميعًا وتعهدن إذا فعلت حبيبة ذلك فى نفس الليلة وذهبت إلى المقابر سيكافئونها بجوهرة ثمينة. تعهدت إحداهن بإعطائها ماسة نادرة والأخرى خاتمًا ذهبيًا وجاءت الثالثة لتعرض مكافأتها بقرط من الزبرجد. وقبلت حبيبة التحدى وأسرعن جميعًا ...أحضرن آنية الطهى والمقادير من المطبخ - إناء كبير وملعقة ودقيق وزبد وسكر وخميرة.

ذهل طاهر... كم كان أحمق! حين صدق أن زوجته ما هى إلا كائن صغير معدوم الحيلة يخاف كل شىء! لكنه لم يكن لديه متسع من

الوقت يضيعه فى الندم. وفى التو عاد من حيث أتى وتنقل بين الأسطح حتى وصل إلى المسجد ونزل ثم هرول إلى المقابر بأسرع ما يمكن.

كانت المقابر وسط الغابة بأرض مهجورة فى بحيرة لا تبعد كثيراً عن المدينة: فقط ممر ضيق يربط بين الشاطئ والجزيرة. لم يكن هناك أحد يجرؤ على الذهاب إلى ذلك المكان ليلاً خوفًا من الحيوانات المتوحشة لكن طاهر تغلب على خوفه وهرول إلى هناك بكل ما أوتى من قوة حتى يتمكن من الوصول إلى زوجته.

كانت ليلة مقمرة وقد اصطفت المقابر فى الأفق حتى أطراف الغابة وألقت الأشجار بظلالها على أحجار المقابر، وكلما هبت الرياح تتحرك الأغصان وتتحرك تباعًا ظلالها المنعكسة على القبور. خيم الصمت على المكان لا يخترقه سوى أصوات البوم وحركة أجنحتها. وكان المكان مفزعًا حقًا، وكلما تحركت الظلال اعترى طاهر الرعب ريثما يظهر وحش أو حيوان مفترس. لكنه قرر أن يضبط زوجته. ونظر حوله فوجد كيسًا أبيض مهترئًا لف به جسده ليبدو فى هيئة كفن. ثم استلقى على الأرض بجوار مقبرة خالية ليبدو كأن يكون جثة تركت ليتم دفنها فى اليوم المقبل.

وصلت حبيبة الآن ومعها الإناء والمعدات ومقادير طهى الحلوى ووضعتها على مقبرة بالقرب من الجثة. وسرعان ما قامت بجمع بعض الأحطاب وأشعلتها وبدأت تطهو الحلوى. وكانت تغنى أثناء خبز الحلوى وإعدادها، وسرعان ما انبعثت رائحة الحلوى الطيبة والذكية. وتعجب

طاهر من أمر زوجته وما تتمتع به من كفاءة وشجاعة، وهذه كانت أول مرة منذ زفافة تعتريه بارقة أمل تبعث الروح فى فؤاده الحزين. آه لو كانت حبيبة تتصرف بطبيعتها هذه عندما تكون فى بيته لكان أسعد رجل فى العالم.

وما إن انتهت حبيبة من إعداد الحلوى وعزمت على الرحيل بعد جمع معداتها حتى ظهر طاهر ومد يده قليلاً: "أعطنى بعضا من حلواك؟ يجب أن يحرص الحى على إعطاء الميت نصيبه."

وبدلاً من أن تصرخ حبيبة هلعًا وخوفًا أو تفقد وعيها عند رؤية الجثة تطالب بشيء من الحلوى، قامت بضرب اليد الممدودة بالملعقة المعدنية التى تأججت حتى احمر لونها: "هذه الملعقة هى ما يجب أن تأخذه جزاء لطمعك!"

كتم طاهر صرخة الألم ومد يده الأخرى قائلاً: "أعطنى بعضا من حلواك؟ يجب أن يحرص الحى على إعطاء الميت نصيبه!" وهنا قامت حبيبة بضربه مرة أخرى مستعينة بالملعقة المتأججة.

وفوجئت حبيبة وتعجبت، حيث لم يردع الجثة ما قامت بفعله بل قام الميت بالكشف عن صدره وقال:"يجب أن يحرص الحى على إعطاء الميت نصيبه."

وهنا هوت حبيبة على الميت لتضربه بكل ما أوتيت من قوة وعزم حتى كادت تكتم أنفاس طاهر وقالت:"ها أنت تأخذ نصيب الشبح الطامع!"

ومضت دون المزيد من اللغو مع الشبح حيث جمعت عدتها وجرت مخترقة الممر وعادت فى التو إلى الحفل.

وكانت المدعوات بالحفل فى انتظارها، وعندما تأخرت انتابهن الندم على تلك المهمة التى كلفنها بالقيام بها بعد أن تحدينها متعجبات، عسى أن يكون قد ألم بها سوء. وعادت حبيبة وما إن رأينها حتى هللن جميعًا وانفرجت أساريرهن وعانقنها والتهمن الحلوى التى شهدن بأنها أشهى ما تناولن من طعام. لم تكن حبيبة جسورة فحسب بل كانت طاهية ماهرة وكن فخورات بها ومنحنها بكل سرور الجوائز التى تعهدن بإعطائها إياها إذا ما أدت مهمتها وقبلت التحدى.

والآن ما هو حال طاهر؟ عاد إلى بيته حزينًا ومتألمًا من جراء حروقه. وضع بعض المراهم على صدره وكفيه وتعجب ماذا عساه أن يفعل فى الأيام القادمة. فقد تزوج من ماكرة صغيرة ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بها. فقد استطاعت أن تمثل عليه طيلة الشهور الماضية دور الطفلة الساذجة الخائفة.

جاءت حبيبة فى اليوم التالى وعندما عاد طاهر من عمله فى المساء وجدها كالعادة منكمشة فى ركنها الأثير تضم ركبتيها إلى صدرها وعم الشحوب وجهها والحزن ملأ عينيها كما هو معتاد.

وهمس لنفسه: "الله أكبر... ياله من موقف مؤسف ذلك الذى أواجهه! أين المرأة الجسور الغضة التى تملأ ضحكاتها أرجاء المكان

ولا تتوقف عن الحديث تلك التى رأيتها بالأمس فى حفل الزفاف؟ ما معنى سلوكها الغريب هذا؟"

وتظاهر بأنه لم يلحظ أى شئ وقال:"أنا متعب الليلة لذا ستقومين بطهو الطعام أو حتى بعض الحلوى لنحتفل بعودتك للبيت."

وهمست حبيبة قائلة:"لا أستطيع فأنا خائفة."

أطارت هذه العبارة صوابه، وانفجر طاهر قائلا: "ولماذا لم تخشى بالأمس الذهاب إلى المقابر ليلاً وسط الغابات بجزيرة نائية وطهوت هناك الحلوى لصديقاتك وتخافين من الذهاب إلى مطبخ بيتك لتعدى الطعام لزوجك؟"

وفتح قميصه ليكشف عن حروق صدره ويديه. أدركت حبيبة أن الجثة التى أطلقت عليها بالأمس "شبحًا شريرًا" لم تكن سوى زوجها الذى طالما عانى من جراء أفعالها. وبدأ طاهر يتوعدها بصنوف العقاب. وهنا ألقت حبيبة بنفسها فى أحضانه وتوسلت إليه أن يسامحها. وشرحت له أنها فى بادئ الأمر أرادت أن تختبر مشاعره نحوها، وإلى أى مدى سيصبر عليها. ولكنها مع مرور الوقت اعتادت التظاهر بالخوف والكسل ولم تعرف كيف تتوقف عن فعل ذلك، والآن فهى تعرف جيداً مقام زوجها فهو خير الرجال وهى أكثر النساء حظًا وتعهدت أن تكون له نعم الزوجة طيلة حياتهما.

ومنذ ذلك الحين أصبحت حبيبة بالفعل نعم الزوجة فقد كانت ذكية وسريعة الفعل ومرحة. اعتادت أن تطهو له وجبات شهية وأن يظل البيت دومًا نظيفًا. وهكذا أتى صبر طاهر ودماثة خلقه ثمارهما، وكانت حبيبة حقًا محظوظة لأنها تمكنت من الحفاظ على زوجها. ولكنه بالفعل أمر خطير أن تضع قلب محبيك موضع اختبار، فذلك كفيل بأن يخلف صدعًا لا يقبل الرأب ويعرضك للندم والحسرة إلى الأبد.

ومر الزمان وتقاعد صاحب المتجر الذى يعمل به طاهر واشترى طاهر متجرًا آخر واتخذ مساعدًا وأصبحت الحياة أكثر سعة ورغدًا. وأنجب طاهر وحبيبة أطفالاً عدة وعاشا دومًا فى سعادة وهناء.

الرجل الذى خفت بريق حظه

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن كان هناك رجل يدعى قاسم يعيش مع أمه فى بيت بقرية تقع فى أطراف صحراء الجنوب. وعرف هذا الشاب بين الناس بأنه أكثر الناس كسلاً وركوداً. فهو لا يفعل شيئًا طيلة النهار سوى النوم فقط ولا يتحرك إلا قليلاً ليتناول طعامه. وقد توفى أبوه عندما كان صغيراً وعملت أمه فى الحقول كعاملة بالأجرة، حتى يتسنى لها كسب قليل من المال يعينها على العيش وتربية صغيرها بأفضل ما يمكنها. وكم تمنت أن يكبر ابنها ليتولى هو مسئوليتهما معًا.

ومر الزمان وازداد قاسم كسلاً وخمولاً، حتى إنه أصبح بالكاد يغادر فراشه. وكلما أذن للصلاة كل صباح يقبل الجميع ليصلوا الفجر ثم ينبروا إلى كسب العيش، ويظل قاسم راقداً بفراشه حتى أذان الظهر. واعتادت أمه أن تترك له شيئًا يتقوت به كل صباح وإثر عودتها عند غروب الشمس تجده مازال راقداً بفراشه أو جالسًا بأحد أركان المنزل منتظراً وصولها حيث تقوم بطهى طعام العشاء. وما إن تنتهى من غسل الصحون حتى تجده قد تسلل مرة أخرى ليسكن إلى فراشه.

اعتاد الناس فى تلك الأيام أنه عندما يتوفى الأب يتولى الابن الأكبر – ما أن يبلغ – مسئولية كسب العيش ويصبح رب الأسرة. لكن قاسم رفض أن يضطلع بمسئوليته ويعول الأسرة، وكلما طلبت منه أمه أن يتولى البحث عن مهنة تعينه على كيسب العيش..كان يرد قائلا: "لن أنجح لقد خفت بريق حظى[1] وإلى أن يومض مرة أخرى ليس بإمكانى فعل أى شيء."

وبمرور الأيام تيقنت أم قاسم أن ابنها لن يحترف أى مهنة، وساورتها المخاوف فهى تمضى قدمًا نحو الهرم والشيخوخة، وأصبح عملها فى الحقول أمرًا شاقًا يفوق احتمالها، وسرعان ما سيرفض أصحاب الحقول الاستعانة بها؛ وما يزيد الأمر سوءًا أنها قد يداهمها مرض يقعدها أو يرديها طريحة الفراش ويعوق حركتها. وإذا حدث ذلك كيف ستعيش هى وابنها؟ ولكنها كلما طرحت عليه فكرة العمل لا تتلقى منه ردًا سوى : "لقد خفت بريق حظى وإلى أن يومض مرة أخرى لن أنجح فى أى شيء أقوم بفعله لذا ما جدوى العمل؟"

قابلت الأم شيخ القرية عندما يئست من حال ابنها ليفتيها ماذا تفعل فى شأن ابنها، فطلب منها الرجل أن يقابل قاسم ليتحدث إليه قليلاً. وفى أحد الأيام عندما كانت الأم تعمل خارج المنزل ذهب الشيخ للقاء قاسم. وأخبره أن تلك الحياة التى يعيشها ليست حياة رجل شاب فهو دائمًا منكش وحيد بحجرته لا يفعل شيئًا وذكره بحق أمه عليه...أمه التى لطالما تكبدت أعمالاً شاقة تعينها على كسب العيش

وتربيته والآن أصبحت سيدة مسنة وضعيفة لا يليق به أن يتركها تكد طيلة النهار، بينما يمكث هو بالمنزل ليرقد بالفراش فالآن عليه أن يخرج ويتولى البحث عن عمل.

فأجاب قاسم: "ما جدوى ذلك؟ لقد خفت بريق حظى وسأفشل مهما حاولت."

عرض عليه الشيخ أن يرشحه لوظيفة سهلة للغاية سيكون نجاحه في الاضطلاع بمهامها أمرًا مضمونًا- وهي أن يصبح مساعدًا لتاجر الحبوب بالسوق، على سبيل المثال يحرس المحل في غياب صاحبه ينقل زكائب الحبوب وأشياء من هذا القبيل، حيث تصادف آنذاك أن تاجر الحبوب كان يبحث عن مساعد والشيخ بإمكانه أن يتوسط لديه.

فما كان من قاسم إلا أن رد قائلاً: "أفضل أن أنتظر حظى حتى ينبعث، وهنا سيكون بإمكانى الحصول على وظيفة مناسبة وجنى أموال طائلة."

قرر الشيخ أن يقلع عن المحاولة مع قاسم، فما هو إلا رجل كسول حتى النخاع.

وجاء بعد ذلك دور حكماء القرية في مخاطبة قاسم وإقناعه أن يفعل شيئًا يعينه على كسب العيش، ثم جاء دور أقرانه من الشباب ليحثوه على العمل بأى حرفة، حيث إن كلا منهم يعمل طلبًا للرزق واستطاعوا

جميعًا أن يتزوجوا وينشئوا أسراً، بينما ظل هو طريح الفراش يهدر شبابه فى انتظار أن ينجلى حظه ويدق بابه ويغدق عليه الشهرة والمال على طبق من ذهب.

كانت تعيش بالقرية امرأة تعمل بالغزل والنسيج، وكانت هذه السيدة مسنة عرف عنها حسن الخلق وحب الخير. وكانت هذه السيدة تجلس قبالة نولها تغزل طيلة الوقت وتعطى نتاجها إلى تاجر القماش ليبيعه فى السوق. وكان الجميع يكن لها الحب والاحترام فهى حكيمة وودودة دائمًا، على أتم استعداد لإعطاء جوهر خبرتها بهذه الحياة لكل من يأتيها سائلاً النصيحة. وعندما لجأت إليها أم قاسم وأخبرتها بنبأ ابنها استمعت إليها العجوز وتأملت الأمر ثم قالت: "عندما تغادرين المنزل سأقوم بزيارته وسنرى ما يمكننا فعله."

وفى غضون أيام قليلة طرقت السيدة العجوز باب البيت فى وقت الظهيرة فى موعد تناول قاسم طعام الغداء وسمح لها بالدخول. وبدلاً من أن تتطرق إلى موضوع العمل أخذت تتكلم عن القطن وأخباره وأنباء المدينة، وفى نهاية الأمر قالت: "لقد سمعت أن بريق حظك قد خفت؟ هل تعرف ماذا فعل حظك؟" فأومأ قاسم بالنفى. فاستطردت العجوز وقالت: "لقد ذهب وأيقظ حظه وانتظر وتغيرت حياته وسرعان ما أصبح واحداً من أكثر الرجال نجاحًا وثراء فى البلدة. عليك أن تفعل نفس الشىء اذهب وابحث عن حظك وأيقظه وإلا سيظل نائمًا خافتًا للأبد وسيدمر حياتك."

فتعجب قاسم وقال: "يالها من فكرة رائعة هذا هو ما ينبغى على القيام به تمامًا! كم كنت غبيًا لأننى لم أفكر فى ذلك من قبل."

شكر قاسم السيدة العجوز ووعدها أن يخرج فى صباح اليوم التالى باحثًا عن حظه.

أخبر قاسم أمه عندما عادت فى المساء بنبأ العجوز التى زارته، كما أخبرها بما عزم عليه من البدء فى البحث عن حظه وإيقاظه. وانفرجت أسارير الأم لما سمعت من أنباء سارة وأوى كلاهما إلى فراشه سعيدًا لأول مرة منذ سنوات مضت.

أعدت الأم فى صباح اليوم التالى باقة من الطعام وقربة مياه وانطلق قاسم فى رحلته. وسرعان ما غادر القرية، جاب الطرق الممتدة والغابات والممرات المنحنية بين الجبال والأرض الحارقة وتوارى فى الآفاق الملبدة بالغيوم. واصل السير حتى توسطت الشمس السماء وعلم أنه وقت الظهيرة.

لاحت بالأفق واحة صغيرة تتوسطها أشجار قليلة تحف بركة من المياه الصافية، بينما الأغصان تتمايل مع الريح والعصافير مغردة على أغصان الشجر. كان الجو حارًا للغاية وقاسم يتضور جوعًا فقرر أن يستريح بهذه الواحة يستظل بأشجارها ويأكل شيئًا من الطعام يعينه على مواصلة السير. أكل بعض الخبز والجبن من حاويته وشرب الماء من قربته واستلقى لينام القيلولة.

وما إن استلقى قليلاً ليأخذ قسطًا من الراحة حتى سمع زئير أسد ضخم ينقض على فريسته، وانتابه الشعور بالرعب وأحس أن هذه حتمًا ستكون نهايته وبدلاً من أن يعثر على حظه سيلقى حتفه بعد أن يمزقه الأسد إربًا.

أصابه الذهول عندما وجد الأسد يخاطبه قائلاً: "لا تخف فلن أؤذيك بل أريد أن أقدم لك يد العون فأنا ملك الحيوانات فى هذه الصحراء، واعتدت أن أحفظ النظام فى مملكتى بالعدل والحكمة لكنى الآن بلغت من العمر أرذله وأشعر أننى لم أعد أتمتع برجاحة العقل، وهذا هو أسوأ داء قد يصيب أى كائن وعلى أن أجد علاجاً على وجه السرعة قبل أن يلحظ ذلك باقى الحيوانات، ويحاول بعضهم التمرد على والإطاحة بسلطانى وهيمنتى على مقاليد الأمور... هل لديك دواء لما أعانيه؟"

شعر قاسم بالأسى لأنه لم يكن لديه حل لهذه المشكلة فلم يكن على دراية بعلاج لما يعانيه الأسد من ضعف القدرات الذهنية وقال: " لقد خرجت باحثًا عن حظى لأنه خبا، وأرغب فى العثور عليه وإيقاظه حتى تتغير حياتى وتصبح أفضل."

فرد الأسد: "إذا كان الأمر كذلك فسأدعك تمضى شريطة أنك عندما تلقى حظك تسأله عن علاج لمن وهن عقله، ثم تعود لتخبرنى بالعلاج."

تعهد قاسم أن يفعل ذلك ومضى فى التو واصل السير فى طريقه فرحاً بنجاته من مصير الموت المحقق على يد الأسد.

ومضى قدمًا ليواصل البحث عن حظه دون أن يلمح بارقة أمل. مر على جدول مياه تنهمر فيه المياه بين الصخور متجهة إلى الغرب فى اتجاه الغروب. توقف ليشرب ويغسل وجهه وما أن وضع يده على المياه الباردة الرقراقة حتى صدر صوت عن مجرى المياه سائلاً: "أين تذهب أيها الشاب؟" فرد قاسم موضحًا وجهته: فأجابت المياه: "انطلق حفظك الله وأعانك لتجد حظك."

ملأ قاسم قربة المياه وواصل السير. وأظلمت السماء وانتشرت النجوم بأرجائها ولاح قوس لبنى بالأفق وحل الظلام بالصحراء.

ومضى قاسم قدمًا، وما إن مال ليستريح حتى وقعت عيناه على قصر رائع تضيئه مصابيح كريستال، وتعجب ما إذا كان ذلك خيالا أم حقيقة. وظن فى بادئ الأمر أن ما يراه لم يكن إلا هذيانا من صنع خياله أو سرابا من جراء شعوره بالتعب والإرهاق. لكنه سرعان ما تحقق من صحة الأمر وعلم أن ما يراه حقيقة لا خيالا وسمع صوتًا هامسًا يدعوه قائلاً: "مرحبًا ياعابر الطريق تعالى لتصبح ضيفنا."

فقال للفتاتين: "آسف أنا فى طريقى لأوقظ حظى الذى نام ورغم أننى أرغب فى البقاء بقصركما الجميل إلا أنه على أن أرحل."

ضحكت الفتاتان وابتعدتا وغلقت البوابات وواصل قاسم السير وما إن خطا بضع خطوات قليلة حتى نظر خلفه نادمًا لينفقد ما إذا كانت الفتاتان مازالتا تطلان من النافذة ولكنه فوجئ باختفاء القصر تمامًا ولم يتبق له أى أثر لا شىء سوى ظلام الصحراء الدامس.

وسرعان ما خبت النجوم ولاح الفجر بالأفق وظهرت بجانب الطريق شجرة جوز. جلس قليلاً ليستريح بظلها، وما إن جلس حتى سمع صوت الشجرة تحدثه فقد سألت:"إلى أين أنت ذاهب عزيزى الشاب؟"

فأجاب قاسم :"خرجت باحثًا عن حظى." فتمنت له الشجرة رحلة آمنة.

وقرب الظهيرة مر على رجل صغير مستلق يستظل بشجرة كبيرة بالقرب من ينبوع وكان نائمًا، لكن ما إن اقترب قاسم منه حتى استيقظ وابتسم فى وجهه وكأنه يعرفه جيدًا.

وسأله قاسم: "من أنت وماذا تفعل فى هذه البقعة المهجورة؟"

فأجاب الرجل: "أنا حظك وكنت فى انتظارك ورأيت أنه بإمكانى أن أنام قليلاً أثناء انتظارك."

قفز قاسم من فرط السعادة! ولم يستطع أن يصدق أنه أخيرًا عثر على حظه وتعجب ماذا عساه أن يفعل الآن!"

قال حظه: "اجلس... كل شيئًا واسترح ثم سنتخذ سبيل العودة."

كان قاسم قد استنفد كل ما بحوزته من طعام، ولكن حظه أعطاه بعض الخبز واللحم الشهى وكوبا من العصير المثلج، وبعد أن استراح وغسل قدميه قال له حظه: "والآن عد من حيث أتيت وسأكون خلفك ولكن احترس سأمنحك فرصًا ثلاثًا وعليك اغتنامها حتى أظل معك للأبد،

أما إذا أهدرت هذه الفرص بالعند والغرور فسأختفى من حياتك لأعاود النوم مرة أخرى.

ووافق قاسم على هذه الصفقة فى التو، فقد رأى أنه لن يخطئ بينما حظه يتبع خطاه ويقتفى أثره.

عندما واصل الاثنان السير تذكر قاسم وعده للأسد العجوز وسأل حظه: "هل تعرف علاجًا للأسد العجوز الذى يعانى من ضعف قدراته الذهنية من جراء الشيخوخة؟"

أجابه حظه قائلاً: "إن العلاج الوحيد هو أن يأكل عقل أغبى البشر الذى يمكنه العثور عليه." وبدأ الاثنان رحلة العودة سيراً.

غَمر قاسم الشعور بالسعادة لأنه تمكن من العثور على حظه وإيقاظه حتى إنه كاد يطير فرحًا. فقد اعتقد أنه طالما أن حظه يتتبع خطاه سيتمكن من إنجاز أى شىء، وبإمكانه أن يصبح أى شىء يلمسه ذهبًا.

مرة أخرى يعاود قاسم النظـــر خلفه ليتأكد أن حظه مازال يتبعه ولا يفصلهما سوى خطىً قليلة فيبتسم إليه ويمضى.

وصلا بعد قليل إلى شَجَرة الجوز العتيقة التى كان قاسم قد استراح فى ظلالها من قبل. تعرفت الشجرة على قاسم وقام بتحيته: "أرى أنك قد عثرت على حظك. لا تسرع لتبتعد، عليك بالجلوس لوهلة حتى تستريح. يوجد فأس فى جذع الشجرة المفرغ، حيث تتفرع الشجرة

إلى أغصان ضخمة. التقط الفأس واحفر حولي لتصل إلى جذوري وستجد كنزًا مدفونًا حيث ستعثر على إناء ضخم ملؤه قطع ذهبية وأحجار كريمة من الماس والجواهر."

رفض قاسم القيام بذلك وقال: "عفوًا ليس لدى متسع من الوقت لأهدره فى التنقيب على كنوز مدفونة، فالآن وقد عثرت على حظى على أن أعود إلى بلدتى وأصنع ثروتى."

- وأعرض قاسم عن جدال الشجرة ليهرول متتبعًا خطى حظه.

وواصل الاثنان السير معًا طويلاً حتى مالت الشمس عن كبد السماء ووصلا إلى قصر مضاء كالجوهرة يتوهج بريقه وسط ظلام السماء. وخرجت فتاتان حسناوتان إحداهن شقراء والأخرى مخضبة الشعر لتحية قاسم وقالتا:"هذه المرة يجب أن تبقى فقد توفى أبونا يمكنك أن تتزوج أيا منا وتصبح فارس وسيد هذا الزمام: تؤول إليك كل أمواله وأراضيه وستصبح رعيته رعيتك أنت المخلصة."

أغرى هذا العرض قاسم حتى إنه كاد أن يقبله لكنه فجأة وجد حظه يقف خلفه باسمًا وقال: "سيداتى إنكما تمنحانى شرفًا عظيمًا ولكن وا أسفاه فالآن أنا بصحبة حظى ولزامًا على أن أعود إلى وطنى لأجمع ثروتى، وإلا سيغادرنى الحظ بلا عودة ويذهب لينام مرة أخرى." وما إن قال ذلك حتى قام بوداعهما آسفًا وانصرف بينما ظل حظه يتتبع خطاه باسمًا.

وصلا فى نهاية المطاف إلى مجرى المياه الناطق وتوقفا ليشربا، وهنا خاطبت المياه قاسم قائلة: "امض بمحاذاة مجراى وفى النهاية ستجد بركة تحفها الأحجار ويجوارها شجرة جوز، احفر حتى تصل إلى جذورها وستجد كنزًا كبيرًا صندوقًا معبأً بالجواهر وسبائك الذهب."

فرد قاسم قائلاً: "معذرة ليس لدى وقت أضيعه فى مجهودات قد لا تثمر عن شىء، فأنا بصحبة حظى وعلى أن أعود إلى بلدتى بأسرع ما يمكن وإلا سيغضب حظى ويعود لينام مرة أخرى."

وما إن قال ذلك حتى واصل السير لكن الرجل فى هذه المرة توقف ليقول: "أخبرتك أنى سأمنحك فرصًا ثلاثا، وأنك إذا لم تغتنمها سأرحل عنك. فمنذ أن بدأنا رحلتنا هذه جاءتك فرص ثلاث من شأنها أن تحقق لك كل أحلامك وتلبى كل رغباتك، وكنت فى كل مرة بدلاً من أن تغتنم الفرصة بكل امتنان كنت تؤثر العجلة والطمع وكنت تعتقد أنك أكثر معرفة. ومن الآن فصاعداً سيكون لزامًا عليك أن تشقى حتى تنال قدراً يسيراً من الثروات التى عرضت عليك بلا مقابل ونأيت أنت عنها."

وما إن هم قاسم ليعتذر لحظه متعهداً له أن يتخلص من غروره وغبائه، حتى اختفى حظه تمامًا فنظر حوله ولم يجد إلا صحراء خاوية مترامية الأطراف. وتملكه الشعور باليأس وشعر أنه مسئول بغبائه وطمعه عن كل ما حدث ثم استجمع قواه وواصل السير.

وما إن وصل الواحة الصغيرة وجلس فى الظلال حتى أجهش بالبكاء، وهنا سمع صوت زئير الأسد واقترب منه الأسد العجوز.

وفى هذه المرة لم يتملكه الخوف ذلك لأنه على الأقل الآن لديه دواء لعلة الأسد. وهنا سأله الأسد العجوز: "هل وجدت حظك؟" فرد قاسم بالإيجاب وأخبره أنه لم ينس أن يسأله عن علاج لضعف العقل عند الكبار: "قال حظى إنك لابد أن تأكل عقل أكثر البشر غباءً فى هذا العالم وهذا العلاج الوحيد لمرضك."

سأله الأسد عما حدث لحظه، فحكى له قاسم القصة كلها: كيف وجد حظه وأيقظه وكيف منحه حظه ثلاث فرص، وكيف أنه لم يغتنم هذه الفرص الثلاث بسبب الطمع والعجلة والآن اختفى حظه لذا هو حزين."

استمع الأسد إلى قصته وقال: "يبدو أننى لن أجد فى هذه الأرض رجلاً أغبى منك لذا سأقتلك وآكل عقلك لأداوى عقلى." وما إن قال ذلك حتى كشر عن أنيابه وأنقض على فريسته لكنه توقف وقال: "يمكننى القضاء عليك والتهام عقلك، ولكنى لن أفعل ذلك فعقلى سليم وحقيقة الأمر أنى فقط أردت أن أختبرك وسأدعك تمضى على أن تعد بالإقلاع عن الكسل، وأن تكد وتعمل مثل الجميع. لم يمض حظك من السعادة بل هو فقط أصبح غير مرئى، ولكن عليك فى جميع الأوقات أن تغتنم الفرصة وسيحالفك الحظ وستجده."

شكر قاسم الأسد لعفوه عنه وعدم الفتك به وإسداء النصح له ثم واصل السير فى طريقه.

وصل قاسم قريته بعد مسيرة يومين، وتوجه على الفور إلى منزله حيث كانت أمه قلقة فى انتظار عودته. وسرعان ما انتشرت أنباء عودة قاسم وجاء الجميع لرؤيته وسماع خبر أسفاره. لم يخبر قاسم أحدا أى شئ عن مغامراته، وأنه بالفعل وجد حظه وأيقظه. ولكن النساجة العجوز توقعت ما حدث ذلك لأن قاسم بدأ يعمل فى متجر الحبوب. فقد عمل قاسم بجدية وازدهرت على يديه التجارة وخلال فترة وجيزة جعله صاحب العمل وريثًا له وترك له كل شىء، وتقاعد ليتفرغ لحياة الزهد والعبادة والتأمل. وتزوج قاسم من فتاة جميلة فى جمال الأميرات اللاتى التقى بهن فى القصر الذى لاح بالبادية إبان رحلته وعاشا معًا فى سعادة ورزقهما الله بالأطفال. وكلما مرت به أحداث سعيدة فى حياته تذكر الرجل الصغير المضحك الذى عثر عليه فى البادية، ولكنه لم يلجأ للنظر حوله ليرى ما إذا كان حظه خلفه يبتسم أم لا- ذلك لأنه كان يعلم أن حظه مازال يتبعه.

كنت أعرف ذلك مسبقًا

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كانت هناك فتاة شابة تدعى "قمر" وتعيش فى راشت، وقد عرفت بأنها جميلة تمامًا كالقمر. والله جل جلاله يمن على أى منا بشىء من النعم، فقد منحها جمال الخلقة لا جمال الطباع. إذ كانت قمر بطيئة غير فطنة وفظة: وقد اعتادت أن تنقد الناس أو تطرح عليهم أسئلة محرجة. وحثتها أمها مرارًا أن تتمهل فيما تتلفظ به من القول ولكن قمر لم يكن لديها من رجاحة العقل ما يعينها على وزن كلامَها قبل التلفظ به.

شعر والدا قمر بالخوف ريثما تلحق ابنتهما بقطار العنوسة رغم ما تتمتع به من وجه جميل، لذا قاما بتزويجها على وجه السرعة لأول خاطب طرق بابهما. وكان زوجها حرفيًا شابًا يتسم بالنبل والوسامة ومقداما، وكان الجميع يرددون أن قمر محظوظة للغاية لأنها اقترنت بمثل هذا الرجل.

واعتادت الفتيات فى هذه الأيام أن يعاون أمهاتهن فى الأعمال المنزلية منذ نعومة أظافرهن ويتعلمن الطهى والتنظيف، لكن قمر كانت لا

تستطيع التركيز على مكونات ووصفة الطهى وإعداد الطعام، وسرعان ما يئست أمها من تلقينها فنون الطهى. ورضيت بما تقوم به قمر من أعمال منزلية وتنظيف، وتمنت أنه عندما تتزوج قمر تلقنها حماتها فنون الطهى. ولكن تصادف أن اقترنت قمر برجل توفيت أمه ويعيش بمفرده مع أبيه فوجدت العروس الشابة نفسها ربة منزل منوطا بها القيام بمهام تنظيف المنزل وتنظيمه وطهى الطعام ليس فقط لزوجها بل أيضًا لحميها.

لم يكن تداول كتب الطهى أو حضور فصول لتعلم الطهى أمرًا معتادًا آنذاك كأيامنا هذه: كانت النسوة يتعلمن الطهى من أمهاتهن وإذا ما تذوقن صنفًا جديدًا من الطعام تقوم السيدة بسؤال الطاهى عن كيفية طهى هذا النوع من الطعام.

سألت قمر زوجها فى أول أيام زواجهما عما يرغب فى تناوله فى طعام العشاء، واختار بدوره صنفًا من الطعام بسيطًا حتى يسهل عليها طهيه: "أفضل تناول الأبجوست[1] الشهية (عصيدة الضأن)... هل تعلمين كيف تعدينها؟"

فأجابت قمر: "بالطبع أستطيع" وبما أنها تعلم أن أقصر الطرق إلى قلب الرجل هو معدته أضافت:"أنا طباخة ماهرة وسأطهو لك وجبات شهية؟"

ذهب زوجها إلى عمله مسرورًا متشوقًا لتناول وجبة المساء الشهية.

لم تكن قمر بالطبع تعرف كيف تطهو عصيدة الضأن أو أى شيء آخر. ماذا عساى أن أفعل؟ وعلى مقربة منها تقطن جارة أرملة عجوز، كانت قد عرضت عليها من قبل مراراً أن تساعدها فى أى شئ تحتاج إليه. لذا ما إن رحل زوجها إلى عمله حتى أسرعت قمر إلى بيت هذه الجارة، وطلبت منها أن تخبرها عن كيفية طهو عصيدة الضأن. شرحت لها السيدة كيف تضع فخذة الخروف مع البصل والحبوب فى المياه وتتركها ليتم طهيها ببطء على النيران: ثم أخبرتها كيف ومتى تضيف التوابل والملح والليمون وما إلى ذلك. وكلما ذكرت السيدة خطوة من خطوات طهى عصيدة الضأن ترد قمر قائلة: "كنت أعرف ذلك مسبقًا. فما هى الخطوة التالية؟"

لم ترد قمر قط أن تعترف بجهلها بشئون الطهى، وبدلاً من أن تشكر الأرملة العجوز لكرمها وسعة وصدرها، تظاهرت بأنها بالفعل كانت تعرف كل شئ وأنها فقط أرادت أن تقارن بين وصفة الطعام التى تعرفها وتتبعها وبين تلك التى تعرفها العجوز.

وكانت الأرملة العجوز طيبة للغاية وخبيرة ببواطن الأمور، لذا التمست لقمر العذر رغم ما أبدته من كبر وغرور فبدلاً من أن تقول لقمر: "لماذا تسألين رغم أنك على دراية بكل شئ؟" واصلت شرح كل شئ بأدق التفاصيل وصبرت لتتأكد أن قمر فى نهاية الأمر ستتمكن من طهو عصيدة ضأن شهية، وبالفعل استطاعت قمر أن تطهو طعامًا شهيًا بفضل وصفة جارتها العجوز التى أعانتها على حفظ ماء وجهها.

وفى اليومين التاليين أكلوا ما تبقى من وليمة اليوم الأول، ولكن اليوم الثالث وكان يوم الخميس وطلب الزوج إعداد بعض الأرز المفلفل وحساء الفسنجان[٢] ووافقت قمر على مضض مرددة أنها معروفة بإجادة طهى هذا الصنف من الطعام تحديداً.

وما إن غادر زوجها البيت حتى أسرعت قمر إلى بيت جارتها الأرملة العجوز وسألتها كيف يمكن أن تطهو الأرز والفسنجان ومرة أخرى شرحت لها السيدة خطوات الطهى خطوة خطوة بالتفصيل ومراراً حتى تتأكد أنها استوعبت الأمر. لكن قمر ظلت لا تردد سوى جملة واحدة :"كنت أعرف ذلك مسبقًا ما هى الخطوة التالية؟"

وهكذا استمر الحال لوقت طويل: تسأل قمر زوجها كل يوم عما يرغب فى تناوله فى وجبة العشاء، ويطلب هو ما يروق له من صنوف الطعام وما إن يمضى إلى عمله حتى تطرق باب جارتها - الأرملة العجوز لتعرف وصفة طهى صنف الطعام الذى أوصى به زوجها. ولكى يعرف الجميع أن الطعام الشهى ليس نتاج وصفة بل هو مهارة الطاهى: فقد يقوم شخصان بطهو نفس صنف الطعام، ويكون البون شاسعًا بين نتاج كل منهما- فتجد أن ما طهاه أحدهما لذيذا شهيا بينما الآخر غير شهى على الإطلاق. فإن حنكة الطاهى هى مهارة أخرى إضافية، شئ لا يمكن التصدى له بالشرح والتأويل. فقد يتبارى اثنان من صانعى الزجاج لصياغة إناءين زجاجيين لهما نفس الشكل لكن يخرج الإناءان

متباينين تباينا طفيفًا. وهكذا كانت ما تطهـوه قمـر ليس شهيًا بالقدر الذى كان به طعام الأرملة العجـوز من حلو المذاق، لكنها كانت تتبع ما توصيها به السيدة بدقة وكان زوج قمـر راضيًا بما تقدمه له من طعام.

كانت جارتها طيبة القلب خبيرة بطبيعة البشر وميلهم إلى الانحراف عن جادة الصواب، ولم تتوقع من قمر أن تدين لها بالفضل والامتنان بسبب ما تعلمته على يديها من دروس الطهى. وكانت لا تلقى بالاً لما تجده من لامبالاة قمر، ولكن قررت أن تلقنها درسًا لأنها لو لم تفعل سيقوم غيرها حتمًا بذلك.

وفى بداية الصيف عندما حل موسم الكرز طلب زوج قمر منها إعداد حلوى الأرز بالكرز. وهنا أسرعت قمر كعادتها لتستعين بالأرملة العجوز وتسألها عن كيفية صناعة حلوى الأرز والكرز. وشرحت لها السيدة كيفية إعداد ذلك الصنف وكلما ذكرت السيدة خطوة من خطوات إعداد الطعام ترد قمر قائلة: "كنت أعرف ذلك مسبقًا. ما هى الخطوة التالية؟"

وفى النهاية قالت العجوز: "آخر وأهم خطوة هى أن تضعى قطعة كبيرة من مؤخرة بقرة على سطح الأرز قبل أن تقومى بطهوه على النار."

وكالعادة تجيب قمر قائلة: "بالطبع كنت أعرف ذلك مسبقا." وهرولت غير عابئة بالسيدة العجوز حيث ذهبت إلى الحقول فى مرعى الجديان واشترت مؤخرة بقرة ضخمة ثم عادت إلى المنزل. أعدت الأرز بالكرز وقبل أن تضع الخليط فى التنور كسته بمؤخرة البقرة.

عاد زوجها فى المساء إلى المنزل يتضور جوعًا ونظر قبالته ليجد الطعام. أخبرته قمر أنه اليوم سيعرف أنها تفوقت على نفسها لأنها أضافت شيئًا جديدًا أثناء الطهى، شيئا لم يسبقها إليه أحد من قبل الأمر الذى سيجعل الطعام بالطبع شهيًا للغاية.

عندما أحضرت الإناء وكشفت عنه الغطاء انبعثت منه رائحة كريهة هى رائحة دهن مؤخرة البقرة فقد ذاب وتخلل جميع محتويات الإناء وبدا الأرز مقززا تمامًا مثل الرائحة المنبعثة منه.

لم يصدق زوج قمر ما يراه أو يشمه وتعجب: هل لم تعد قمر تشعر بشئ؟ ألم تر أو تشم ما أقدمت على طهوه وتقديمه له. اضطرت قمر أن تقص عليه نبأ الطعام، وأن تروى له كيف تذهب كل يوم إلى الأرملة العجوز لتشرح له كيف تطهو كل ما يوصى زوجها بإعداده.ثم توجه كل من قمر وزوجها إلى جارتهما العجوز.

وكانت قمر مذهولة حيث قالت للجارة العجوز: "لماذا أتيت فعلتك هذه؟"

فردت عليها الأرملة العجوز متعللة بأنها اضطرت أن تفعل ذلك حتى تلقن قمر درسًا لتعى جيدًا أن هناك طريقًا آخر شاقًا. إذا كانت ستظل طيلة حياتها يتسم سلوكها بعدم الكياسة، وأن الشخص القادم الذى سيسدى لها معروفًا دون أن تقر هى بجميله وتشكره على صنيعه قد يكون رد فعله أكثر قسوة مما بدر من الجارة العجوز.

اعتذر كل من الزوج والزوجة وتعهدت قمر أن تغير أسلوبها فى التعامل مع الناس، وسامحتها الأرملة العجوز ووعدتها أن تقدم لها يد العون دومًا كلما تطلب الأمر ذلك.

وهكذا أصبحت قمر بمرور الوقت طاهية ماهرة تسعد زوجها وأبناءها بما تطهوه من وجبات شهية.

وكما ترون فإن شكر البشر لا يكلف شيئًا لكنه يجعل الحياة أجمل.

الوزير الطيب والكبر

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

دارت أحداث هذه القصة منذ قرون عدة، ربما منذ ألف سنة عندما حكم إيران ملك عظيم يدعى السلطان محمود[١]. فقد غزا أراضى كثيرة وحكم مملكة كبيرة وغنية. وما إن هزم جميع أعدائه واستوت له الأمور حتى استقر فى العاصمة غزنة، حيث أنشأ ديوانًا فاقت فخامته وتألقه قصر خان الصين. وتردد على ديوانه الشعراء والحكماء من جميع أنحاء البلاد وازدهرت فى عهده العلوم والفنون. انتشرت بعد وفاته الأساطير والقصص التى حيكت حوله وحول ديوانه الخلاب، البعض منها صحيح والبعض الآخر لا يمت للحقيقة بصلة. من بين هذه القصص تلك القصة التى سأرويها لكم.

كان الوزير نسيم رئيسًا للوزراء أحد رجال السلطان محمود. وقد كان السلطان محقًا فى ذلك، لأن نسيم يعد عملة نادرة عن جدارة، فقد أحبه الناس جميعًا نظرًا لما يتمتع به من حكمة وتقوى ورحمة وكرم. وقد فوضت إليه الكثير من الصلاحيات والسلطات بحكم منصبه ككبير

للوزراء. وكان دائماً ما يتصرف بعدل وحكمة وروية. وقد ازدهرت البلاد وعم الرخاء تحت إدارته وسعدت الرعية.

ولكن من كان نسيم؟ ولد نسيم لأب راعٍ فقير وقضى طفولته يعين أباه على رعى قطيع من الخراف والنعاج. وعندما كبر ظهرت عليه علامات النبوغ والتميز وتعلم القراءة والكتابة، وفى نهاية المطاف ترك الجبال ليلتحق بالمدرسة فى المدينة.

وقبل رحيله أعطته أمه حقيبة كانت قد وضعت بها رداء الرعى – الكابناك(٢) – وقالت: " خذ هذه معك واحتفظ بها دومًا لتذكرك... من أنت ومن أين جئت فلا تنس أبدًا أصلك." ثم همست داعية له برعاية الله وحمايته وودعته واغرورقت عيناها بالدموع.

كان نسيم آنذاك تعيساً لأنه بصدد ترك بيته وأبويه المحبين، ولكنه يعلم جيداً أن رحلته هذه ستحدد مصيره. ما إن وصل إلى المدينة حتى توجه على الفور إلى المدرسة وأصبح طالبًا. وقد منح غرفة صغيرة بها حاوية لاحتياجاته الأساسية. شعر بالرهبة والوحدة فى بادئ الأمر ولكنه كان يعلم أنه لا سبيل للعودة، وبمرور الوقت استطاع أن يعقد صداقات مع بعض زملاء الدراسة وتواءم مع ما طرأ على حياته من تغييرات.

بذل نسيم قصارى جهده سعياً لتحصيل المناهج والعلم، وبعد مرور سنوات قليلة كان قد أعد نفسه للانخراط فى عالم العمل. انبهر أساتذته به وما يتمتع به من قدرات خلاقة ورشحوه للالتحاق بالعمل فى الديوان

الملكى، حيث سرعان ما ترقى فى المناصب الرفيعة. وقد أعانه على ذلك ما يتمتع به من ذكاء وفطنة وكياسة وحبه لمساعدة الآخرين. وفى نهاية الأمر ترقى ليصبح كبير الوزراء والصديق المقرب للسلطان محمود باديشاه فارس ومن هنا تبدأ قصتنا.

بلغ الآن والدا نسيم من العمر أرذله، وكما هو معتاد عندما نرغب فى أن نسدى الشكر لشخص ما فنحن نقول: "اللهم أحسن خاتمتك" ذلك لأنه يصعب تحمل مشقة الفقر والمرض عند الكبر. وقد أحسن الله خاتمة والدى نسيم وأكرمهما بابنهما البار المحب. وزع نسيم الصدقات على روحيهما وكان يتذكرهما كل يوم فى دعائه وصلواته.

بهر السلطان محمود بتميز نسيم وحنكته، ويومًا بعد يوم ازداد إعجابه بنسيم وتقديره له. وكان يعبر عن حبه وامتنانه لنيسم فقد أغدق عليه هدايا كثيرة - أراضى وجواهر وخيولا وجمالا، وجميعها من أجود الأنواع حتى دفعه الأمر إلى إقامة قصر لنسيم على مقربة من قصره الملكى ليكون نسيم دائمًا بجواره.

والآن يستيقظ نسيم كل يوم إبان أذان الفجر ليؤدى صلواته ويمضى إلى غرفة الملابس وهى غرفة سرية لها باب يخفيه ساتر سميك حيث يفتح خزينته ليأخذ جلباب الرعى ويرتديه ويطالع نفسه فى المرآة ويهمس: "لا تنس نفسك ولا تنس من أين أتيت." تمامًا كما أوصته أمه يوم أن رحل عن القرية منذ عدة سنوات مضت. وقد ساعده الحفاظ على

هذا الطقس اليومى على وقاية نفسه من الكبر والغـرور، ومن الاعتقاد بأن حظه الحسن هو نتـاج جهده فقـط، حتى لا ينسى فضل الله عز وجل عليه.

وفى أحد الأيام استيقظ السلطان محمود باكراً ولم يستطع أن يواصل النوم مرة أخرى، فنهض وذهب إلى بيت وزيره الأول ليفاجئه بالزيارة. وكانت السماء متلألئة ولم تلح الشمس بعد فى الآفاق. وخيم الهدوء على قصر نسيم، فقط لا يخترق الصمت سوى زقزقة العصافير المستيقظة فى الحديقة إبان الفجر.

نظر السلطان من خلال نافذة غرفة نسيم ليجده يصلى فانتظر حتى يفرغ من صلاته، ثم وجده يزيح الساتر السميك ويفتح الباب الخفى باب غرفة الملابس ثم يختفى داخل الغرفة. وبعد فترة من الوقت خرج نسيم وأوصد الباب الخفى وارتدى ملابسه الرسمية. شعر السلطان محمود بالحيرة ولم يظهر نفسه وتسلل عائداً إلى قصره وانتظر مجئ وزيره لاستقبال الجماهير فى الصباح.

استيقظ السلطان محمود فى فجر اليوم التالى وتسلل إلى نافذة غرفة نسيم ليجده يعيد الكرة ويفعل نفس الشىء، فوزيره يحافظ على طقسه اليومى. وبعد مرور عدة أيام تعجب السلطان محمود ماذا يمكن أن يخفى ذلك المكان قد يكون هناك إنس أو حيوان أو كنز وتعجب ماذا يخفى نسيم؟ وكيف يمكنه أن يكتشف حقيقة الأمر؟

كان نسيم أبا لفتاة جميلة وذكية تدعى ماهبانو (سيدة القمر) وكانت مهبانو وصيفة لابنة الملك. استدعى محمود ابنة نسيم وطلب منها أن تعرف ما الذى يقوم به أبوها صباح كل يوم فى الغرفة الخفية وتعود لتخبره بحقيقة الأمر.

كانت ماهبانو داهية – تعرف جيداً أنه لا يليق عصيان السلطان ولم تكن ترغب فى خيانة أبيها وإفشاء أسراره، لكن فى قرارة نفسها عزمت على أن تجد مخرجاً من هذه الورطة، وإذا كان هناك شىء يمكنها فعله من شأنه إنقاذ أبيها من هذا الموقف فستقوم بفعله فى التو.

تسللت خلسة إلى غرفة أبيها ووجدت مفتاح غرفة الملابس وقامت بنسخه. ثم دلفت إلى الغرفة الخفية مساء واختبأت خلف كومة من السجاجيد والمساند. دخل أبوها فجراً فى الموعد المعتاد يومياً وشاهدته يؤدى طقسه اليومى: أخرج العباءة من خزينته وارتداها ونظر فى المرآة وقال: "لا تنس من أنت ومن أين أتيت...لا تنس أصلك".. ثم خلع رداء الرعى وأعاده إلى الخزينة مرة أخرى وغادر المكان.

تنفست الابنة الصعداء حيث أنها تأكدت أنه ليس فى الأمر ما يدين أباها، بل على النقيض فإن هذه الواقعة قد أوضحت إلى أى مدى يتسم أبوها بالتواضع وعظم الروح. وتطوعت لتروى للسلطان ما رأته بكل فخر وقد سر السلطان كثيراً وشكر الله الذى منحه وزيراً يتسم بالكفاءة والدراية ببواطن الأمور، ولا سيما أنه عبد ربانى متواضع وازداد حبه

وتقديره لنسيم. وتعلق به كثيراً حتى إنه لم يكن يستطيع مفارقته أبداً ولو للحظة. حتى عندما يصيبه المرض أو الإرهاق، كان يركن على وزيره وينام على ركبتيه.

أقام السلطان محمود يومًا ما وليمة ضخمة ليرحب بسفير خان الصين. وكانت مناسبة رائعة استعرض من خلالها السلطان سطوته وثروته، بما يعج به قصره من مظاهر الترف والرفاهية والفخامة، فضلاً عن كرم ضيافته. أضاءت الشموع والشمعدانات الكريستال القاعات وغرف الاستقبال وضاعف الضوء المرايا المحيطة بجميع أرجاء المكان، والتف الفرسان فى أبهى حللهم حول عرش السلطان الذهبى وإلى جواره سفير الخان، وأمامهم اصطفت أوانى أشهى الطعام والشراب والخدم وحاملو الأكواب للسقاية. وانبهر السفير بالاحتفال وكانت وليمة شهية رائعة، وأسدى السلطان محمود الشكر لوزيره نسيم وأشاد بإعداده للحفل بهذه الكفاءة ثم انصرف.

كان ينبغى على كبير الوزراء فى الليلة التالية أن يستضيف سفير الصين. حضر الملك الحفل الذى أعده نسيم لاستقباله استقبالاً يليق بجلالته، وانتشرت الأزهار فى أرجاء المكان وملئ القصر بالشموع والمصابيح، وبدا قصره فى المساء كجزيرة السحرة. فقد كانت شتى صنوف الطعام على اختلاف أنواعها مقدمة للضيوف ولا سيما الشراب. وعزف الموسيقيون ورقص الراقصون ومكث الضيوف حتى طلوع الفجر

وعلى ما يبدو أن الضيوف لم يريدوا الانصراف ومغادرة المكان وحقيقة الأمر أنهم كانوا يرددون أن الحفل الذى أقامه نسيم قد فاق الحفل الذى أقامه السلطان فى روعته وعظمته.

أوى نسيم إلى فراشه بعد أن انصرف الضيوف وكان سعيداً بنجاح الليلة، وما إن هم بخلع ملابسه حتى هاله ما رآه بالمرآة فقد وجد نفسه طويلاً ووقوراً وصدم كما لو كان قد رأى رجلاً غريباً عنه.

خاطب نفسه قائلاً: "هل يمكن أن يكون ذلك السيد العظيم حقًا هو الغلام الراعى الفقير؟... ياله من طريق طويل اجتزته ويالها من مكانة عالية تلك التى بلغتها، فقد أصبح السلطان لا يستغنى عنى أبداً وجميع الناس يحبوننى ولا يضاهينى أحد فى الثروة والسلطة، حتى إن ضيافتى تفوق ضيافة السلطان كرمًا وثراء! كم أنا محظوظ." وهكذا ملأ عليه الكبر فؤاده وكست وجهه دومًا ابتسامة توحى بفخره بذاته. خلع ملابسه وأوى إلى فراشه ونام نومًا عميقًا.

ومرت شهور قليلة وذهب السلطان محمود ونسيم فى جولة يجوبان حدائق القصر، ليستنشقا نسيمها العليل ويتجاذبا أطراف الحديث حول شئون الدولة. وكان ذلك فى أواخر الخريف وكانت الأشجار عارية واكتست الأرض بأوراق الشجر وشعر الملك بالكآبة. وكان الأمر مختلفًا آنذاك عن أيامنا هذه، حيث إننا اليوم نستطيع من خلال الصوب أن نزرع الأزهار طيلة العام ونبيعها فى المحلات، لكن كان الناس حينها

يتركون الطبيعة وفقًا لتسلسل الفصول. ففى فصل الشتاء تطرح الحدائق أزهار الشتاء مثل ياسمين الشتاء، لكن بالطبع لم تكن تنبت الأزهار الحمراء التى يعدها الجميع ملكة متوجة على عرش مملكة الزهور ويفضلها الناس على سائر أنواع الزهور.

ولكن وقعت عين السلطان فجأة على زهرة بيضاء ساطعة بأعلى جدار تبدو تمامًا كنجمة، ويبدو أن هذه الزهرة قد ترعرعت فى هذه البقعة بفعل معجزة. سر السلطان كثيرًا عند رؤية هذه الزهرة وتطلع إلى التقاطها لكنها كانت عالية بعيدة المنال يصعب قطفها، وفى التو عرض نسيم أن ينحنى للسلطان ليعتلى كتفه ويقطف الزهرة. رفض السلطان طالبًا من نسيم أن يعتلى هو نفسه كفيه ليقوم بهذه المهمة.

وتبادلا إيماءات التقدير والاحترام - ما اصطلح عليه بالفارسية الطاررووف[٣] - وتقدم نسيم ليعتلى السلطان منكبيه بينما رفض الآخر وتقدم وانحنى بكل تواضع ليصعد نسيم على منكبيه. رضخ نسيم فى نهاية المطاف لرغبة السلطان محمود واعتلى كتفيه ومد ذراعه وقطف الزهرة. إثر نزوله على أرض الحديقة تعجب وحدثته نفسه قائلة: "هل هذه حقيقة أن الصبى الراعى الفقير اعتلى منكبى الشاهنشاه أكثر رجال العالم سلطانًا ونفوذًا؟" - مرة أخرى ملأ الكبر عليه فؤاده.

وكعادته كان السلطان محمود نائمًا على ركبتى نسيم نوم القيلولة بعد مرور هذه الواقعة بأيام قليلة. دخل على حين غرة شاب يافع يرتدى حلة بيضاء. كان ذلك فى موضع داخلى من غرفة السلطان غير

مصرح لأى أحد دخوله، فقد كان المكان تحفه مجموعات الحرس والخدم فى كل خطوة لردع كل من يخترق هذا المكان. وذهل نسيم عندما وجد أن ذلك الشاب قد تمكن من تخطى كل هذه الجموع الغفيرة من الحرس والخدم.

وسألة بحدة: "من أنت؟ وماذا تريد؟"

ابتسم الشاب: "أنا حظك وجئت لأنبئك أنى سأغفو وأنام. كنت أقتفى أثرك منذ أن غادرت قريتك ولكننى الآن سأدعك وسأنام(٤)".

غضب نسيم لسوء أدب الرجل وأشهر خنجره ليهدد ذلك الشاب الذى اختفى فى الحال.

استيقظ السلطان محمود فى نفس هذه اللحظة ورأى نسيم شاهراً خنجره وحيث إنه لم يكن فى المكان أى شخص أخر طلب السلطان من نسيم تبريراً لما رآه. بدا نسيم غاضباً وكل ما استطاع قوله هو عبارة: "ذهب لينام ولا يمكننى قول المزيد." لم يتغير قول نسيم ولم يضف شيئاً رغم إصرار السلطان على معرفة حقيقة الأمر، مما دفع السلطان إلى الشك فى ولاء وزيره الذى طالما كان موضع تقديره وثقته، فقد ظن أن نسيم كان ينوى اغتياله ليستحوذ على عرشه.

ألقى القبض على نسيم وبدأ تعذيبه فقد أرادوا أن يجبروه على الاعتراف بمؤامرته الدنيئة ليتم القبض على شركائه، لكنه لم يقل شيئاً قط سوى: "لقد ذهب لينام ولا يمكننى قول المزيد."

وفى نهاية الأمر تم الحكم عليه بالإعدام. انتشرت أنباء خيانته فى أرجاء المملكة ولم يستطع الناس أن يصدقوا أن وزيرهم متهم بالخيانة - واعتقد الجميع أن ثمة لبسا حتمًا فى هذا الأمر؟ - وتعاطفوا مع نسيم.

وفى يوم تنفيذ الحكم بإعدام نسيم حمل نسيم إلى الميدان الرئيسى بالمدينة حيث نصبت المشنقة واحتشد جمع كبير من العامة.

وعلى الرغم من أن المؤامرات كانت تحاك فى البلاط الملكى، فالبعض كان حاقدًا على نسيم لما يحظى به من منصب رفيع ومكانة عالية، ويكنون فى أنفسهم الشعور بالشماتة لما آل إليه حاله، إلا أن السواد الأعظم من رجال السلطان كانوا يشعرون بالأسى وتوسلوا إلى السلطان واستعطفوه ليعفو عن نسيم. فى بادئ الأمر كان محمود غاضبًا ولكن بمرور الوقت لان بعض الشيء ووافق على أن يكتفى بنفى نسيم للأبد بدلاً من أى يقوم بإعدامه، شريطة ألا يقترب من العاصمة بمسافة تزيد على خمسمائة ميل وفى حال مخالفته لذلك القيد يعدم على الفور.

عندما وصل رسول السلطان ليذيع نبأ العفو عن نسيم فى وقت الذروة، حيث كان العشماوى قد طوق عنق نسيم بالحبل. وهنا أعلن الرسول الفرمان الصادر من قبل السلطان. فهللت جموع البشر المحتشدة مرددة: "عاش الباديشاه!"..."عاش كبير الوزراء!"

طرد نسيم من المدينة بعد أن تم تجريده من جميع ممتلكاته كما تم عزله عن أسرته. مرة أخرى عاد راعيًا يرتدى زى الرعى البالى والطريق

ممتد أمامه على مدى الرؤية لا يقوده إلا إلى طى النسيان. يمشى طيلة النهار وفى المساء ينام فى الكهوف ويأكل كل ما يعثر عليه سواء كان من جذور أو زهور ويشرب فقط عندما يعثر على عين. وكان أحيانًا يمد يد العون إلى فلاح أو راعٍ فى أحد القرى التى كان يمر عليها وفى مقابل ذلك يحصل على الطعام والمأوى.

وصل مدينة كاشان بعد أن جاب الصحارى والجبال لعدة أشهر. وفى هذه المدينة كفله الطحان الذى استخدمه للعمل عنده، حيث تصادف وفاة مساعد الطحان وتولى نسيم القيام بمهام المساعد الراحل. اعتاد نسيم أن يستيقظ فجراً كل يوم ويظل منكبًا على العمل حتى المساء، وفى نهاية الليل يستلقى وسط زكائب الحبوب والدقيق لينام.

مرت سبع سنوات والسلطان محمود كان دائم التفكير فى نسيم وافتقده كثيراً. شعر بالتعاسة والحزن لما آلت إليه الأمور بينهما، فقد كان أقرب المقربين له ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ وتعجب أين اختفى وما إذا كان حيًا أم ميتًا. تحدث بعض رجال السلطان الذين يتسمون بالحكمة والخبرة إليه وخاطبوه فى شأن نسيم، وأنه حتمًا لم تكن لديه أية نوايا سيئة، ربما كان قد فقد صوابه لأن نسيم كان أكثر رجال السلطان أمانة وولاء وقد ساهموا بأحاديثهم هذه فى إصدار العفو عن نسيم.

أوى نسيم إلى فراشه فى إحدى الليالى وكان متعبًا مرهقًا وفى تلك اللحظة وعلى حين غرة ظهر الشاب اليافع مرتديًا حلته البيضاء، ذلك الرجل الذى كان قد ظهر له فى جناح السلطان منذ سبع سنوات مضت.

ابتسم الرجل وقال: "هل تذكرني؟...أنا حظك وجئت لأخبرك أنني استيقظت الآن مرة أخرى."

سأله نسيم لماذا قرر من قبل أن يرحل عنه ويغفو ويترك حياته تؤول إلى ما آلت إليه من دمار.

أجاب الشاب: "لقد تركت الكبر والغرور يجتاح فؤادك مرتين: مرة عندما أقمت وليمة لمبعوث خان الصين، والمرة الأخرى عندما اعتليت منكبي السلطان لتقطف زهرة. فقد اعتقدت أن ما أصابك من حظ سعيد إنما مرده إلى ذكائك ولا فضل الله عز وجل، ونسيت أن هناك رجالا آخرين يستطيعون القيام بما تفعله إلا أنهم لم يبلغوا منزلتك. لذا كان لزامًا علي أن ألقنك درسًا قبل أن تفقد صوابك وتغرق روحك في خضم الغرور والكبر والصلف، ومنذ ذلك الحين عاد قلبك نقيًا مرة أخرى لذا عدت لأخبرك أني استيقظت الآن. وسأعاود تتبع خطاك أينما ذهبت." وما إن قال ذلك حتى اختفى قبل أن يسأله نسيم عما عساه أن يفعل بعد أن استيقظ حظه.

وفي نفس الليلة حلم السلطان محمود بشاب وسيم يرتدي حلة بيضاء ويخاطبه قائلاً: "يامالك فارس! يامالك الملوك! كان لديك وزير حكيم محنك وفي، وتخلصت منه بفعل شكوكك وصلفك. قد تصبح فاتحًا عظيمًا ولكن بالطبع ليس لديك القدرة على ذلك بمفردك. أرسل إليه، مازال لديك متسع من الوقت، ذلك لأن هناك خطرا داهما يهدد البلاد ولن

يستطيع أحد سوى نسيم مواجهة هذا الخطر." وقبل أن يهم محمود بسؤال الشاب عن هويته كان الرجل قد تحول إلى سراب.

استيقظ محمود فجراً وتيقن أن هذا الحلم لم يكن إلا تحذيرا جاءه من عالم الغيب. وفى التو أمر بانتشار الرسل فى جميع أنحاء البلاد ليبحثوا عن نسيم ويحضروه إلى القصر إذا عثروا عليه.

خرج مئات الرسل بحثًا عن نسيم فى كل القرى والمدن ولم يكن هناك أثر له فى أى مكان. وما أن أوشكوا على اليأس من العثور عليه حتى وجده أحدهم فى طاحونة بالقرب من كاشان وتمكن من التعرف عليه. عادوا إلى قصر السلطان وهو بصحبتهم، حيث استقبله السلطان محمود استقبالاً حافلاً وأعاد إليه لقبه ومكانته ككبير وزراء.

عم الفرح والسرور واحتشد الناس جميعًا حول القصر مرددين: "عاش الشاهنشاه!"..."عاش نسيم!"

أمر السلطان محمود بأن يتم تعليق المصابيح فى جميع أنحاء المدينة وأن تقام المحافل فى جميع أركان المملكة. ثم استمر حكمه للبلاد لعدة سنوات يسودها السلام والرخاء بعد أن أعانه نسيم على مواجهة الأخطار التى كانت تهدد عرشه.

وكما ترون كيف يمكن أن يدمر الكبر والخيلاء صاحبه. فمهما بلغت من مكانة عالية يجب ألا تنسى أنك وصلت إلى هذه المنزلة بفضل الله عز وجل فلا تنس أبداً الفقراء والتعساء حتى لا ينام حظك كما فعل حظ نسيم وتصبح أنت الآخر فقيرا وتعسا.

خيال المآته الضاحك

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كان هناك عابد يعكف على العبادة وطاعة الله. فقد اعتزل الدنيا وذهب للعيش فى كهف بين الجبال وكان يصوم طيلة العام ويقضى أيامه ولياليه فى الدعاء وذكر الله. سمع الجميع فى القرى المحيطة عن ذلك العابد وكانوا يقدرون تقواه وزهده.

ولكن لم يكن هذا التقشف الزائد أمرًا محمودًا. بل على النقيض علينا أن نستمتع بما أغدقه الله علينا من نعم بحكمته ورحمته، وأن نحمد الله على نعمه هذه تمامًا كما أمرنا النبى والقديسون والحكماء. لكن علينا الاعتدال فى استمتاعنا بثمار الخلق حتى تكفينا جميعًا.

اعتاد ذلك العابد أن يأكل قليلاً، فقط بعضا من الخبز والجبن الذى قد يمنحه إياه أحد الرعاة أو عابر سبيل، ولا يسأله عن شىء فى المقابل سوى أن يتذكره فى دعائه.

مر الوقت ولم يأت أحد عبر الطريق ليعطى العابد شيئًا من الطعام. انتظر واثقًا أن الله سيمن عليه بمن يعطيه ما يأكل. وعندما أنهى

صلواته فى المساء أوى إلى الفراش خاوى المعدة واثقًا من أنه فى صباح الغد سيتذكره أحد وسيعطيه كسرة خبز. لكن لم يأت أحد وقضى طيلة اليوم يصلى وأوى إلى فراشه خاوى المعدة. وهكذا مر عليه أسبوع دون أن يأكل حتى أصبح بالكاد يردد أذكاره وتيبست بطنه من فرط ما كان يعانى من جوع.

قرر العابد أن يغادر الكهف ليبحث عن أى شىء يقيم به أوده بعض الثمار أو التوت أو الجذور. ربما يقابل أحد الرعاة الذى قد يعطيه كسرة خبز يتقوت بها.

كانت الصحراء الجرداء تحيط بكهفه، وأثناء سيره وجد واديًا أخضر يخترقه مجرى مياه ويحفه الزرع. واصل السير واتسع الوادى الآن ولاحت بالأفق قرية تعج بالمروج والحقول.

فقال:"اللهم لك الحمد... لقد نجوت."

وجد أمامه منحنى تكسوه سنابل القمح وكان ذلك فى موسم القمح.

فأكل حتى شعر بالشبع وعاد إلى كهفه شاكرًا الله على ما وجده من طعام ومياه عذبة. وجافاه النوم، ليس بسبب الجوع الذى هو بئس الضجيع، لكنه شعر بتأنيب الضمير لأنه أكل من القمح دون أن يعلم من هو صاحب هذه الحبوب. ربما كانت ملكًا لأرملة تعتمد على ثمنها فى إعالة أيتام؟ قد تكون مصدر الرزق الوحيد للأيتام؟ وفى هذه الحالة يكون قد ارتكب إثمًا كبيرًاوسيعاقبه الله حتمًا.

اتجه فى صباح اليوم التالى إلى الوادى، وفى هذه المرة ذهب إلى القرية. دهش الناس عندما رأوه واستضافته سيدة طيبة فى بيتها وعرضت عليه إناء لبن ساخن مع خبز طازج. وأثناء حديثه معها عرف أن القمح الذى أخذ منه قدراً كان حقًا ملكًا لأرملة تعول ثلاثة أيتام. شعر بالخزى لأنه أكل بعضًا من هذا القمح لكن ماذا عساه أن يفعل الآن؟ لم تكن لديه أية أموال أو ممتلكات يستطيع أن يعوض بها الأرملة على ما ألحقه بها من ضرر. شكر السيدة الطيبة على حسن استضافتها ورحل عنها والأسى والأسف يعتصر قلبه على ما بدر منه.

والآن نحن نعرف أننا نعاقب على ذنوبنا ونؤجر على حسناتنا فى هذه الحياة أو فى العالم الآخر، وفقًا لما يقضى الله فهو عادل رحيم. وإثر عودته إلى كهفه بدأ العابد يصلى ويدعو الله: "إلهى أعرف أنى قد ارتكبت إثمًا كبيراً، فقد أكلت قمح الأرملة وأعلم أنك ستعاقبنى، ولكن مهما كان العقاب على خطيئتى أرغب فى أن أكفر عن إثمى فى هذه الحياة الدنيا والآن وليس فى العالم الآخر، حتى عندما أصل إلى مثواى الأخير أقابلك وأنا إنسان نظيف مطهر من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس."

وقد استجاب الله لدعائه وحقق له ما تمنى فقد تحول فى التو إلى جاموس ووجد نفسه بجوار مجرى مياه يرقد على حشائش.

وتصادف وجود فلاح على مقربة وقد نفق جاموس هذا الفلاح منذ فترة قصيرة بسبب كبر سنه. وقد يئس الفلاح من الحصول على جاموس

آخر، فبدون جاموس لن يستطع حرث الأرض ومن ثم لن يجد ما يطعم به أسرته. فقد كان فى حيرة من أمره، حيث إنه ليس لديه من المال ما يعينه على شراء جاموس آخر. بينما كان يمشى فى الحقل مستغرقًا فى التفكير فيما عساه أن يفعل إزاء هذه المشكلة فوجد جاموسًا ضخمًا يرعى بالقرب من مجرى المياه. وتعجب من يكون صاحب هذا الجاموس الذى يبدو قويًا وغضًا..وقرر الفلاح أن يبحث عن صاحب الجاموس عسى أن يستطيع أن يتفق معه على أن يشترى الجاموس مقابل ثمن معقول، أو أن يسدد قيمته على من خلال أقسام لكنه فشل فى العثور على أى شخص يدعى ملكية الجاموس أو حتى يعرف عنه أى شىء.

واعتقد الفلاح أن ثمة قبيلة من البدو قد مرت بالمكان وتخلف الجاموس عن قطعانها، أو ضل طريقه، ومضى الجميع تاركينه ونسوه. هذه هى العناية الإلهية أتت لتنجده... هكذا ظن وحمد الله على رحمته الواسعة واصطحب الجاموس وعاد إلى بيته.

لم تكن حياة أى جاموس أمرًا يسيرًا فقد اعتاد على حرث الأرض ونقل الأحمال الثقيلة والقيام بالعديد من المهام فى المزرعة، كل ذلك فى مقابل وجبة من الحشائش يأكلها فى نهاية اليوم. ففى الحقيقة لا يختلف أمره كثيرًا عنا، فأغلبنا نشقى لنكسب قوت يومنا. لكن هذا الجاموس كان راضيًا بحاله لأنه كان يعلم جيدًا أن التغيير كان فقط فى مظهره بينما مازال بداخله ذلك العابد العجوز وأنه يوم يبعث بعد هذه الحياة القصيرة ستؤول روحه إلى جنة الخلد.

مرت عدة سنوات وكبر الجاموس وهرم وعندما نفق فى أحد الأيام قام الفلاح ببيع جلده إلى الدباغ وألقى بعظامه فى البادية لتأكلها الحيوانات والطيور. وجرد الجمجمة وعلقها على عصاه وكسا هذه العصا بملابس قديمة وقبعة ووضعها فى وسط حقله ليخيف بها الطيور ويحمى محصوله. وبعد فترة استعان الفلاح بجاموس آخر بعد أن اشتراه مقابل ثمن معقول وسرعان ما نسى الجاموس القديم الذى طالما عاونه فى الحقل.

تميز محصول هذا الصيف بالوفرة وقام بجمعه وتشوينه وعبأ الحبوب فى زكائب لتكون معدة للشحن إلى السوق. وما إن انتهى من إنجاز هذه المهام، حتى وجد أن الوقت قد تأخر حيث مالت الشمس عن كبد السماء وتملكه الشعور بالتعب والإرهاق. ترك زكائب الحبوب فى الحقل وذهب إلى المنزل. وكانت ليلة مقمرة تتوهج بها القرية بضوء القمر والنجوم.

مر على الحقل ثلاثة لصوص مساءً، وما إن وجدوا زكائب الحبوب معبأة ومعدة حتى تعجبوا كم هم محظوظون حيث إنه باستطاعتهم الآن نقل كافة المحصول دون أن يشعر بهم أحد.

وما إن حمل كل منهم زكيبة على ظهره وتسللوا بسرعة حتى سمعوا صوت ضحك عال يدوى فى أرجاء المكان ومن هول الصدمة ألقوا بالزكائب. وكانوا قد أوشكوا على الفرار وعندما نظروا حولهم لم يجدوا أى شخص على الإطلاق فقد كانت الحقول هادئة ولا شىء يتحرك إطلاقًا.

وواصلوا السير بعد أن حملوا الزكائب مرة أخرى وهموا بالانصراف، وما أن فعلوا ذلك حتى سمعوا مرة أخرى صوت الضحك المرعب ينبعث مرة أخرى، وفى هذه المرة كان الصوت أشد وطأة. نظروا حولهم لتفقد المكان مرة أخرى ولكنهم لم يجدوا أيضًا أحدًا على الإطلاق أو حتى يلمحوا ظلاً لشبح. وعندما سمعوا صوت الضحك للمرة الثالثة أصابهم الذهول إنه صوت خيال المآته يزأر عليهم ويكشر عن أنيابه ويرمقهم ببصره - ضحكوا وتنفسوا الصعداء حيث إنهم رأوا أن هذا الصوت كان يصدر بفعل الريح والأصداء التى تصدرها الجمجمة تلك التى كانت تحدث الضجيج الذى أصابهم بالهلع.

وقال أحدهم مازحًا: "اذهب إلى الجحيم أيها الحيوان الملعون لقد أصبتنا بالهلع وأطرت صوابنا."

وبدأ خيال المآته يتحدث بالفعل مما أصابهم بالذهول حيث قال: "كنت أتذكر يوم سرقت بعض سنابل القمح لأسد بها جوعى، وعقابًا على خطيئتى أصبحت جاموسًا أشقى سنوات طوالا، وفى نهاية المطاف لم يتبق منى سوى جمجمة رشقت بعصا، والآن كنت أتعجب كيف سيعاقبكم الله على سرقة محصول الفلاح الفقير بالكامل وحرمانه هو وعائلته من مصدر عيشهم."

وما إن سمع اللصوص الثلاثة ذلك القول حتى انتابهم الشعور بالخزى وأعادوا زكائب الحبوب ورحلوا عن المكان. وانتابهم الشعور

بالخشية من غضب الله عندما سمعوا صوت جمجمة العابد وحديثه الذى أوضح أنه على الباغى تدور الدوائر. وهكذا قد يفتح الله أحيانًا أعيننا على الحقيقة لينير دروبنا ويشرح قلوبنا للحق.

وجد الفلاح فى صباح اليوم التالى زكائبه المعبأة وحملها إلى السوق حيث قام ببيعها مقابل ثمن جيد، دون أن يعرف كيف حفظ الله ثمار جهده ومصدر قوته. بينما قرر اللصوص الثلاثة أن يعملوا ليكسبوا عيشهم وأن يهتدوا إلى الصراط المستقيم، حتى وإن قتر الله عليهم فى الرزق. أما خيال المآته فقد تم تنكيسه مع مرور الوقت واستبداله بآخر. لكن العابد الآن يرقد فى جنة الخلد.

الشاب الطيب والمرأة الملائكية

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه كانت هناك أرملة تعيش فى شيراز لديها ابن يدعى رشيد. كان رشيد شابًا وسيمًا وأمينًا أحبه جميع أهل البلدة وقدروه. عمل رشيد منذ أن كان صبيًا فى متجر عطار بالسوق، حيث كان يبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عامًا، وبعد مرور سنوات قليلة كان قد تعلم كل شىء عن الأعشاب وخصائصها الطبية الأمر الذى دفع سيده أن يتخذه شريكًا ومساعدًا.

كان صاحب المتجر كريمًا وبدا مسرورًا بأداء رشيد فى العمل. أحب زبائن العطار التعامل مع رشيد واعتادوا مجاملته والإشادة بما يتمتع به من وسامة وكيف أنه رجل خدوم وكم ستكون محظوظة من ستقترن به.

عندما بلغ رشيد الثامنة عشرة من عمره بدأت أمه تطرح عليه فكرة الزواج وتعده أن تبحث له عن الزوجة المناسبة عندما يكون مستعدًا للزواج. وكانت تعرف عددًا من الفتيات يمكنه الاقتران بإحداهن.

وكلما شرحت أمه كم كان مبلغ حسبها ونسبها كان رشيد دائمًا ما يرفض ويقول:"لن أتزوج إلا إذا وجدت ملاكًا ...امرأة من الجنة لها روح طاهرة." وعندما تسأله أمه عن مقصده من تلك العبارة يلوذ بالصمت. وقد رشحت له عدة فتيات كلهن يتمتعن بالجمال وحسن الخلق، لكنه رفض الاقتران بأى منهن قائلاً: "أنا فى انتظار ملاك." يئست أمه منه وتوقفت عن البحث له عن عروس لتكون زوجة المستقبل، وفى قرارة نفسها كانت تقول :"ربما يغير رأيه فى يوم من الأيام."

ومر الوقت وفى أحد أيام الجمعة، بينما كانت الأم وابنها يتوضآن استعداداً لأداء صلاة الجمعة سمعا طرقًا على الباب وذهبت أم رشيد وما إن فتحت الباب إذا بامرأة شابة قبالتها أجمل من رأت عيناها حيث كانت امرأة تتوهج كمصباح يضئ الكون من حوله.

ذهلت الأم ولاذت بالصمت لوهلة ثم سألتها:"من أنت وماذا تريدين؟"

فأجابت الفتاة: "جئت لأرى رشيد."

هرولت الأم لتخبر ابنها أن أجمل نساء الأرض جاءت لتسأل عنه، وجاء رشيد بدوره ليستطلع ما هى حقيقة الأمر. وما أن وقعت عيناه على الفتاة حتى تيقن أن هذه هى الملاك الذى طالما انتظره، وتحقق حلمه وها هو يقع فى غرامها وتملك عليه لبه وفؤاده. علت الحمرة وجهه وغض بصره بكل تواضع ثم قال بصوت هادئ: "مرحبًا."

مكثت الفتاة مع رشيد وأمه، وسرعان ما تكشف لهما أنها ليست فقط جميلة بل أيضا تتسم بالذكاء ومكارم الخلق. ملأت هذه الفتاة على رشيد وجدانه لما لها من الجمال والكرامة، لذا لم يتجرأ أن يطرح عليها ما يجول بخاطره من أسئلة كثيرة مثل: من تكون ومن أين أتت؟. ولكن بمرور الوقت تطوعت هي لتخبره بما أراد معرفته: فاسمها "بارى روخ"[١] (وجه القمر) وجاءت استجابة من الله لدعائه.

وكانت هذه الفتاة حقًا ملائكية - فهى جميلة ومتدينة وخلوقة وحكيمة. وقع رشيد فى غرامها وأراد أن يتزوجها. تقدم لخطبتها وقبلته زوجًا حيث قالت له حينها: "سأتزوجك ولكن لدى فقط شرط واحد."

وسأل رشيد: "ما هذا الشرط؟ أنا أوافق عليه مهما كان؟"

قالت بارى روخ: "شرطى أنه مهما فعلت لا تلمنى أو تسألنى عن السبب. فكلمة واحدة من اللوم أو التوبيخ كفيلة بأن تجعلنى أختفى تمامًا من حياتك."

وقبل رشيد شرطها على مضض ولكنه كان مطمئنًا أن مثل هذه الملاك ستكون دومًا فوق مستوى الشبهات وستكون له نعم الزوجة.

هكذا تزوجا وحظيا بزواج سعيد. أنجبت بارى روخ خلال عام مولوداً: فتاة صغيرة جميلة وملائكية تماما مثل أمها، وبعد مرور ثلاثة عشر يومًا أخذت بارى روخ الطفلة وصعدت إلى سطح المنزل وألقت بالصغيرة التى ماتت فى التو بعد أن تهشمت رأسها. انتاب رشيد الهلع

والرعب لكنه تذكر عهدهما معًا - أنها مهما فعلت لن يسألها أو يوجه لها أى لوم - ولاذ بالصمت ولكن انفطر فؤاده كمداً وحزنًا على وفاة ابنته الصغيرة.

ومرت الأيام وتحرك الجنين فى أحشاء بارى روخ مرة أخرى وفى هذه المرة أنجبت طفلاً رائعًا. غمرت السعادة رشيد، وقبل الطفل وعانقه. ولكن ما إن مرت عشرة أيام حتى قامت بارى روخ مرة أخرى بالتقاط الطفل النائم من فراشه، وألقته فى نيران المدفأة على مرأى من أفراد الأسرة عندما كانوا يتناولون الطعام. هرول رشيد إلى النيران لينقذ ابنه من موت محقق لكن الطفل توفى، وشعر رشيد باليأس يتملكه.

ذكرته بارى روخ بعهدهما معًا ولم يقل رشيد شيئًا، والتزم الصمت التام. لقد وثق رشيد بزوجته لكن الأمر قد فاق قدراته على الاحتمال والفهم، خاصة أن بارى روخ كانت أمًا محبة وحنونة للغاية.

مرت سنة أخرى وهذه المرة أنجبت بارى روخ طفلة أخرى ولكن بعد مرور ثلاثة أيام أغرقتها فى البركة، لكنه لم يستطع أن يوجه لها اللوم رغم ما كان يعتصرفؤاده من حسرة على فلذة كبده فقد التزم رشيد بالصمت مخافة أن تختفى زوجته من حياته للأبد.

والآن وقد أصبحت أم رشيد مسنة وداهمها المرض، قامت بارى روخ على رعايتها على أكمل وجه وبكل حنان حتى وافتها المنية. تجمع كل الجيران فى يوم الجنازة وما إن حمل الكفن خارج البيت وكان الرجال

يكبـرون والنسـوة ينحن حـتى صـعـدت بارى روخ سطح المنزل وعلت ضحكاتها التى لم تتوقف كما لو كانت بصدد رؤية مشهد كوميدى. ذهل الجميع وتملكهم الشعور بالحرج إزاء مسلكها هذا، فقد كان من المعتاد أن تبكى وتنوح زوجة الابن إذا ما توفيت حماتها، حتى وإن كانت الحماة شريرة ومتسلطة، فقد اعتادت الزوجات فى هذه الظروف أن يتصنعن الدموع حتى يرضين أزواجهن وعائلاتهم. إذن لماذا كانت تضحك بهذه الطريقة الهيستيرية كما لو كانت سعيدة بوفاة حماتها ولا تعبأ بما قد يسببه ذلك من حرج لزوجها أمام الجيران والمعارف؟"

لم يستطع رشيد فى المساء أن يكظم غيظـه ويخفى ما يشعر به من غضب وإحباط وقال لزوجته: "تعالى واجلسى أرغب فى سؤالك عن شيء ما."

أدركت بارى روخ ما يدور بخلده وحذرته برفق: "تذكر ما تعاهدنا عليه من أنك لن تسألنى أبداً عن شيء قمت بفعله أو توجه لى اللوم لذا رجاء لا تقل شيئًا."

استشاط رشيد غضبًا حتى إنه لم يلق بالاً لتحذيراتها وصمم أن يسمع تبريرها لسلوكها الغريب، فقد قال: "لقد قتلتِ أبناءنا واحداً تلو الآخر ومات الأطفال الثلاثة وأمسكت عن الكلام، والآن تضحكين فى جنازة أمى لابد أن أعرف سببًا يبرر كل ذلك."

لم يكن هناك بد من إجابته على تلك التساؤلات: "ألقيت بمولودتنا الأولى من سطح البيت فى اليوم الثالث عشر من ولادتها، فقد اعتقدت

أن ما يصيبنا من ألم من جراء فقدها فى سن ثلاثة عشر يومًا سيكون أخف بكثير من موتها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها. ذلك لأننى كنت أعرف أنها ستموت فى تلك السن. وبالمثل فإن ابننا- المولود الثانى -كان سيلقى حتفه فى التو رميًا فى التنور وهو لم يبلغ من العمر إلا سبعة أيام خير من أن يموت وهو فى السابعة من عمره. أما المولودة الثالثة فكانت ستموت فى الثالثة من عمرها غرقًا لذا فضلت أن أغرقها بيدى وأوفر علينا وعليها الألم عندما أدعها تموت وهى لم تبلغ من العمر إلا ثلاثة أيام."

ثم واصلت حديثها: "أما أمك التى عاشت سبعين عامًا وكانت حقًا وضيعة يدها مغلولة إلى عنقها، فهى لم تعط طيلة حياتها أى شىء لأى إنسان. وادخرت نقودها فى إناء أخفته فى حجرتها خلف الصناديق يمكنك الآن العثور عليه بدلاً من أن تستمتع بالمال فى حياتها وتعطى الفقراء حقهم. لم تتصدق طيلة حياتها سوى مرة واحدة تخلت فيها عن شحها، وأعطت ملاءة مهترئة لعجوز فقيرة كانت بحاجة إلى بعض الملابس ولم يكن لديها من المال ما يعينها على شراء الملبس. والآن وبعد أن ماتت أمك لا يمكنها أن تأخذ معها أيا مما اكتنزته من المال والذهب فهى لم تأخذ معها سوى الكفن الذى وارى جسدها تمامًا، مثل الملاءة البيضاء التى أعطتها للعجوز الفقيرة منذ عدة سنوات مضت وعندما تأملت كل هذا لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك وبصوت عال.. ها أنت قد عرفت أسباب كل ما أقدمت على فعله..."

وما إن انتهت من كلامها وقبل أن ينطق رشيد بكلمة اعتذار ليتودد إليها كانت بارى روخ قد اختفت تماماً.

لم يكن هناك شيء يمكن أن يعزى رشيد على فقدانها. فقد منحه الله امرأة طالما تمناها قلبه حيث دعا الله أن يهبه ملاكًا فاستجاب الله لدعائه وأرسل له ملاكًا، لكنه شك فى رجاحتها وحكمتها. والآن مضت بارى روخ بلا رجعة. يفسر لنا مدلول هذه القصة آية وردت فى كتاب الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم."

الحطاب وعصفور الجنة

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

كان هناك رجل فقير "خار كان" عجوز يعيش مع زوجته في وادٍ أخضر تحده جبال "البورز". وكان الوادي ممتداً يعج بحقول القمح والخمائل والمراعي والبساتين، ويحده خيط فضي يشكل مجرى مياه رقراقة تخترق المكان، وعلى المدى تمتد الجبال في صفوف، جبال عالية تطاول عنان السماء. ولا ينمو في الجبال إلا الأعشاب الباهتة اللون والأحطاب ذات الجذور المتشابكة التي تجرح جلدك إن لم تكن حذراً. واعتاد أهل القرية أن يوزعوا الأراضي المملوكة لهم، ويربوا الحيوانات ليبيعوا إنتاجها في السوق. وكان الخار كان هو الرجل الوحيد الذي ليس لديه أراضٍ أو قطعان ماشية، لذا كان يكسب عيشه المتواضع من جمع الأحطاب من التلال المحيطة ويبيعها لأهل القرية الذين كانوا يستعينون بها لإشعال النيران. فعلى وجه الخصوص تعد "شجيرة الشوك" من أفضل أنواع الحطب لإشعال النيران، حيث إنها تشتعل على وجه السرعة وتنبعث عنها حرارة وفيرة تعين على أن ينضج الخبز، وبعد ذلك يمكن وضع إناء يطهى به حساء ليتم تناوله على العشاء.

اعتاد الحطاب أن يستيقظ كل صباح فى وقت الفجر ليؤدى صلاته ويتناول كسرة خبز ويرحل إلى الجبل. وهناك يجمع الأحطاب ويحزمها فى كتلة كبيرة ويحملها عائداً إلى القرية، حيث يمر على البيوت بيتًا بيتًا ليبيعها. وعندما ينتهى من بيع حصيلته من الأحطاب يعود إلى الجبال ليعيد الكرة مرة واثنتين وثلاثا، حيث إنه فى بعض الأيام كان يجمع حمولة واحدة والبعض الآخر حمولتين وثلاثا اعتماداً على المسافة التى سيقطعها. وتنكب زوجته فى ذلك الحين بمخدعها على غزل القماش الذى تبيعه إلى تاجر القماش نظير مبلغ من المال يعينها على الإسهام فى دخل الأسرة. ويعود الزوج إلى البيت عند غروب الشمس حيث يتناولان سويًا وجبة العشاء ويأويان إلى فراشهما، ورغم أن حياتهما كانت حقًا حياة شاقة، إلا أنهما كانا راضيين تمامًا شاكرين الله الذى كسا الجبال بالأحطاب التى هى مصدر رزقهما.

سافر خار كان بعيداً عن القرية فى أحد الأيام ليجوب الجبال، وفوجئ بعين مياه ما بين الصخور وتظلها شجرة ضخمة وارفة الأغصان، وتصب مياهها فى بركه مياه وتلقى الشجرة بظلالها على المياه الرقراقة الصافية. وكان وقت الظهيرة والشمس حامية الوطيس وقد غلبه الجوع والعطش.

ملأ كفيه بالمياه وشرب المياه العذبة الباردة، وأغدق بعض المياه على رأسه ووجهه. فتح حقيبته ليتناول بعض الخبز والجبن الذى اعتادت زوجته أن تعده له، وجلس فى ظل الشجرة الضخمة الوارفة الأغصان

ليتناول الطعام. وبدأ يأكل سعيداً بهـذه البقعة الجميلة التى عثر عليها فى وسط الصحارى والبيداء.

سمع على حين غرة طائراً مغرداً، ولكن بخلاف أصوات الطيور التى كان معتاداً عليها طيلة حياته، فإن صوت هذا الطائر كان جماله وعذوبته تفوق صوت طائر العندليب. رفع رأسه ونظر ليرى أى أنواع الطيور هذا الذى يصدر مثل ذلك الصوت الخلاب، وهناك فى الأغصان العليا من الشجر، وجد قفصًا ذهبيًا بداخله طائر جميل لم ير مثله من قبل، فريشه ملون بكل ألوان قوس قزح وله منقار أخضر تمامًا كأنه قطعة من الزمرد. كما وجد داخل القفص مياهًا وحبوبًا، لكن المكان كان خاليًا تمامًا من البشر!

بينما كان ينظر لأعلى متعجبًا واصل الطائر التغريد مرة أخرى تمامًا كأنه يفعل ذلك تحية لخار كان الذى يرمقه بعينيه السوداوين. دهش الحطاب لكن كان الوصول إلى هذا القفص وحمله للبيت أمرًا مستحيلاً. وتعجب من الذى علق القفص فى هذا المكان الشاهق الارتفاع وسط الأغصان العالية المتشابكة، حتى لا تصل إليه الطيور الجارحة والقطط البرية والثعابين لتلحق به الأذى - حيث إنه لا يوجد بشر يعيشون فى هذه المنطقة فقد كان الأمر برمته لغزًا غريبًا.

ولكنه تيقن أن الله قد منح ذلك الطائر الجميل الصغير المأوى والطعام والمياه فى هذه البيداء الجرداء الشاسعة. فالله الذى فعل ذلك قادر على أن يغنيه هو وزوجته عن أن يشقى طيلة النهار فى قطع

الأشجار وجمع الأحطاب. لقد عمل طيلة حياته عملاً جاداً وشاقًا، والآن وبعد أن بلغ من العمر أرذله، فهو يتطلع إلى الراحة فى البقية الباقية من حياته وأن يقضى السنوات المتبقية من حياته فى العبادة. لقد كان ذلك ما حاول الطائر أن يبلغه له من خلال أنشودته. وشعر بسعادة لا حدود لها تغمر وجدانه وعاد إلى القرية وباع حمولته من الأحطاب لكنه عاد إلى المنزل بدلاً من أن يعود إلى الجبل لجمع حمولة أخرى من الأحطاب.

فوجئت زوجته عندما وجدته وصل البيت مبكرًا وسألته عن السبب. وأخبرها بنبأ الطائر الغريب وأنشودته السحرية، وأن ما حدث هذا بالضرورة رسالة من عالم الغيب بأنه يجب أن يتوقف عن الكد وأن يثق فى الحماية الإلهية التى بالضرورة سترزقه. ظنت الزوجة فى بادئ الأمر أن زوجها العجوز الفقير يهذى لأنه مرهق أو ربما يحتاج قسطًا من الراحة. لذا تناول طعام العشاء وأوى إلى فراشه الذى أعدته زوجته.وفى صباح اليوم التالى كعادتها أعدت حقيبة من الخبز والجبن ولكن أصابها الذهول عندما قال زوجها أنه لن يذهب إلى العمل: "لقد أخبرتك الليلة الماضية أننى سئمت العمل الشاق فى مقابل الفتات فقد عملت طيلة حياتى بالقدر الكافى والآن وقد أصبحت مسنًا...فمن الآن فصاعداً سيكون لزامًا على الله أن يرزقنا إذا لم يكن يرغب فى أن نموت جوعًا."

حاولت زوجته أن تجادله بالتى هى أحسن، ولكنه كان مصرًا على ما عزم عليه. فقد قال: "إما أن يرعانا الله أو نموت جوعًا ولن أعاود العمل كحطاب فقد سئمت ذلك."

وفى نهاية المطاف يئست زوجته من الجدال معه وقررت أن تذهب هى نفسها لتجمع الأحطاب بدلاً منه. أخذت فأسه والحبل ورحلت إلى الجبل واعتقدت أن زوجها المسكين قد فقد صوابه وأنه من الآن فصاعداً سيكون لزامًا عليها أن تكسب عيشهما معًا فتعمل حطابة بالنهار وبالغزل ليلاً.

مشت كثيراً وسط الغابات الصخرية حتى وصلت إلى جبل تغطى الأغصان جوانبه، وبدأت تقطع الأحطاب ليرتطم فأسها بشئ صلب كأنه قد اصطدم بشئ معدنى. أزاحت ما كان يستر الأرض لتجد صندوقًا معدنيًا موصداً بقفل. كسرت القفل وأزاحت الغطاء.... ويالهول المفاجأة! لقد كان الصندوق مليئًا بعملات ذهبية لها بريق الشمس إبان الظهيرة. كادت المفاجأة تفقدها وعيها وجدت مصاغًا مخبئًا تحت العملات، مصاغًا يضاهى مصاغ ملكة شيبا: أقراطا وعقودا وأساور من اللؤلؤ بمختلف المقاسات مصنوعة من الماس واللؤلؤ والزبرجد بكل الأشكال والأحجام، وتعجبت هل هذا حلم أم حقيقة ومسحت عينيها ثم ملأت كفيها بعملات الذهب وتركتها تنسدل على تلال العملات الأخرى والتقطت خاتمًا وارتدته لتجده مقاسها تمامًا. ياإلهى هل هذا حقيقة؟!

لقد كان الصندوق ضخمًا يفوق قدرتها على حمله لذا خبأته بالأغصان والرمال وتركت علامات تشير إليه ثم هرولت إلى البيت لتخبر زوجها بنبأ الصندوق. قالت له: "تعال معى - لقد كنت محقًا وكان الطائر السحرى علامة من السماء - لقد عثرت على كنز مدفون." ثم أخبرته كيف وجدت الصندوق وما بداخله.

لكن حتى الاثنين إذا اجتمعا معًا لم يكن كاهلهما يستطيع حمل الصندوق، فهما بحاجة إلى شخص ثالث يعينهما على حمله والعودة به إلى البيت، فمن ذا الذى فى إمكانه أن يثقا به وينبئاه بخبر الكنز!كان السوق يموج باللصوص والهجامين الذين إذا نمى إلى علمهم خبر الكنز سيسارعون باقتناص الصندوق ولن يعطوهما شيئًا على الإطلاق. إذن ماذا عساهما أن يفعلا؟

كان "ماشطى[1] صالح" أحد جيرانهما يعمل بائعًا فى سوق القرية الصغير يبيع مستلزمات منزلية، وكان ذلك الرجل موضع ثقتهما. فاستدعياه وأخبراه بنبأ الكنز وسألاه العون فى نقل الكنز على أن يعطياه نصف محتوى الصندوق مقابل أن ينقله على دابته.

وافق "ماشطى صالح" فقد كانت صفقة مرضية للغاية، وأحضر دابته دون نقاش، وعاد الثلاثة إلى الجبال وعثروا على بقعة الكنز وحفروا وأخرجوا الصندوق الذى كان ثقيلاً للغاية، ولكنهم تمكنوا من إخراجه وتحميله على ظهر الدابة وتوجهوا عائدين إلى المنزل، وقدغمرهم السرور جميعًا حتى كانوا يطيرون فرحًا وحفز البائع دابته لتسرع السير بينما انفرجت أسارير الحطاب الذى اعتقد أن الله تعالى سيضع نهاية لشقائه ومعاناته.

وما إن اقتربوا من القرية حتى وسوس الشيطان لماشطى صالح وتملكه الطمع. فلم يعد يتحمل فكرة اقتسام الكنز مناصفة مع جاريه

وأراد أن يستأثر به كله لنفسه. ونسى وعده وجعل يفكر فيما عساه أن يفعل حتى يتسنى له خداع جيرانه.

فقال لهما: "إن بيتى أكبر من بيتكما يمكننا أن نأخذ الصندوق إلى هناك ونفرغه من محتوياته على الأرض ونقتسمه فيما بيننا بالتساوى."

ووافقا وما إن دخلوا المنزل حتى قال ماشطى صالح إن الوقت قد تأخر وقد غلبه الشعور بالتعب والإرهاق: "هل تمانعان فى الانتظار حتى الصباح؟" ترددت زوجة خار كان لكن زوجها وافق وعاد الاثنان إلى منزلهما.

بالكاد تسلل النوم إلى أجفانهما فقد كان يغمرهما الشعور بالسعادة، حيث انتهت كل مخاوفهما بفضل الله، وشرعا يخططان للمستقبل. فقد أصبحا أغنياءً بالقدر الذى يعينهما على أداء فريضة الحج، والذهاب إلى مشهد لزيارة ضريح الإمام ريزا، وهكذا ظلا يحلمان أحلامًا لا حدود لها، والأهم من ذلك كله أن شيخوختهما سوف تخلو من الفقر وعناء العوز.

استيقظا فى الفجر وذهبا إلى بيت جارهما ليقتسموا الكنز. فتح ماشطى صالح الباب، وكانت عليه آثار النوم وبدا وكأنه قد فوجئ بمجيئهما وسأل عن سبب الزيارة.

فأجابا: "لقد جئنا لنقتسم الكنز."

فرد متظاهراً بأنه يجهل تماما ما يتحدثان عنه: "أى كنز؟ عم تتحدثان؟ هل جننتما؟ توقظان الناس فى طلعة الفجر لتتحدثا عن هذا الهراء... عن كنز مخبأ. اذهبا ولا تأتيا إلى هنا مرة أخرى لإزعاجى بهذا الهراء."

هل يمكنك أن تتخيل ما شعر به خار كان وزوجته. فقد رجواه وتوسلا إليه واستعطفاه، لكن ماشطى صالح لم يتأثر ولم يغير موقفه. عندما يزج الشيطان بالطمع فى قلب ينزع منه الرحمة ويتحول البائع الأمين إلى نذل حقير. اتهمهما ماشطى صالح إما بالجنون أو الاحتيال عليه ليبتزاه ويستجلبا منه المال. وفى نهاية الأمر طردهما وأوصد الباب بعد أن لعنهما وهددهما بإبلاغ عمدة القرية عنهما والذى سيقوم بدوره بسجنهما.

عاد خار كان وزوجته يجران أذيال الخيبة وقد تملكهما اليأس. من هذا الذى سيصدقهما إذا أخبراه بحقيقة الأمر؟ فقد كان ماشطى صالح تاجراً مرموقاً، وبديهى أن يصدقه الناس ويكذبوهما. وسيضحك الجميع إذا ما حكيا لهم نبأ الكنز الذى يدخل فى عداد القصص الخيالى، وقد يصل الأمر إلى الزج بهما فى مصحة للأمراض العقلية. ففى هذه الحال يصبح الصمت هو أفضل الحلول. جلست زوجة الحطاب فى ركن وأجهشت بالبكاء واستعانت بالله والنبى والأولياء لنجاتهما وإلقاء الرحمة فى قلب جارهما.

كانت بيوت القرية هذه الأيام يتم بناؤها من الطمى والقش وصممت الأسطح بحيث تكون مستوية. وفى سطح المنزل دائما ما يوجد ثقب فوق المخزن يكسوه حجر ثقيل يمنع تسرب الأمطار والجليد. ذلك لأن الناس اعتادوا آنذاك أن ينشروا الفاكهة والحشائش والخضراوات على أسطح بيوتهم ليتم تجفيفها إثر تعرضها للشمس. ويتوالى بعد ذلك تعبئتها وتخزينها طيلة الشتاء.

عندما وجد خار كان زوجته حزينة يتملكها الأسى وتبكى وتنوح طيلة الوقت، اعتصر الألم فؤاده وشعر بالحسرة عليها حسرة فوق حسرته على ما تكبده من حزن من جراء فقدان الكنز نفسه.... ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ وحينها تذكر قصته مع الطائر المغرد الذى رآه وسط الجبال قبل أن يعتزل عمله كحطاب، وهنا هدأ من روع زوجته وأكد لها أن الله حتما سيجعل لهما مخرجًا وسيرزقهما ودعاها ألا تدع شيئًا يؤثر على يقينها وثقتها بالله وبالعناية الإلهية.

أما ماشطى صالح الماكر الذى كان يُعَد تاجرًا أمينًا أدى فريضة الحج وأخذ عهدًا على حفظ الأمانات؟ لم يستطع أن ينام هذه الليلة من فرط شعوره بالسعادة – لماذا؟... فقد أصبح غنيًا غنى يفوق أقصى أحلامه! فقد قرر أن يصفى تجارته ويسافر إلى هندستان حيث سيقوم بشراء قصر ويتزوج من أميرة ويحيا حياة مهراجا. وسيكون لديه طواويس وببغاءات تحلق بأغصان الأشجار: وسيمتطى الأفيال ويصطاد النمور: وسيحيطه رجال البلاد والبارونات والموسيقيون

والراقصون وسيكون لديه حريمه من النساء الجميلات في جمال الحور.... يالها من حياة رائعة!

نهض ماشطى صالح وهم بالذهاب إلى الغرفة الخلفية حيث خبأ صندوق الذهب والجواهر وفتحه ليملأ عينيه بثروته الطائلة. وما إن أزال القفل ورفع الغطاء حتى صرخ وأصابه الهلع: لقد كان الصندوق مليئا بالأفاعى والعناكب والعقارب بجميع الأحجام والألوان وزحفت جميعًا لتتسلل وتنتشر بأرجاء منزله. وسرعان ما أوصد الصندوق وهكذا تحولت أحلامه الذهبية فى التو إلى رماد، وأخذ يلعن الحطاب وزوجته لأنه تيقن حينها أنهما سحرا الكنز ليتحول إلى زواحف سامة. وأقسم أن يلقنهما درسًا!

سحب الصندوق إلى الخارج وكان الصندوق خفيفًا بدون محتواه من ذهب وجواهر. ثم حمل الصندوق وصعد إلى سطح بيته وهناك قام بسحبه وإلقائه على سطح بيت خار كان وأزاح الحجر الذى كان يكسو فتحة السطح وعبر هذه الفتحة واصل إفراغ محتوى الصندوق من أفاعٍ وعقارب وعناكب، وما أن بدأت هذه الزواحف اختراق الفتحة والسقوط فى بيت الحطاب حتى تحولت فى التو لتعود مجوهرات وذهبا ولآلئ وماسات مرة أخرى.

عندما انتهى من إفراغ محتويات الصندوق وجد بالصندوق عملة ذهبية وهم بالتقاطها لكنها تحولت فى الحال إلى أفعى الكوبرا الضخمة.

وهنا أخرج الأفعى من الصندوق ووضعها فى كيس ثم أحكم غلقه وألقى به من فتحة السطح لتسقط الأفعى فى بيت الحطاب. وتمتم قائلاً: "هذه ستقتلكما عندما تفتحان الحقيبة."

عندما فتحت زوجة خار كان الحقيبة وجدت عقد اللآلئ الذى بهرها عندما عثرت على الكنز أول مرة.

وهكذا ترون أن جشع البائع هو الذى حرمه من نصف الكنز. فبدلاً من الرضا بنصيبه الذى كان كفيلاً بأن يحقق كل أحلامه ظل طيلة حياته فقيرا يعمل فى نفس المتجر بالقرية، بينما حج خار كان وزوجته بيت الله فى مكة وأصبحا حجاجًا. وإثر عودتهما لفارس استقرا فى "مشهد" بالقرب من ضريح الإمام ريزا وعُرِفَا بكرمهما وخيرهما فى البلدة كلها. قد نالا حب واحترام الجميع وعاشا فى سعادة زمنًا طويلاً.

السلطان محمود وعصابة اللصوص

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أن أحد حكام فارس ويدعى السلطان محمود[1]. بدأ حياته زعيمًا لقبائل تركمان فى وسط آسيا، وانتهى الأمر بغزوه لفارس، ثم أصبح باديشـاه فى أعقاب ذلك. صار محاربًا عنيفًا اعتاد العيش على ظهر الجواد ملكًا متوجًا. بنى قصرًا فى عاصمته غزنة حيث كان بلاطه يضم فرسانا ووزراء وشعراء وحكماء من جميع أنحاء الإمبراطورية وما وراءها.

وقيل إن السلطان محمود فى أوج سطوته كان يرعى ببلاطه أربعمائة شاعر قائمين على نظم الشعر مدحًا فى شجاعته وكرمه. وقد كان السلطان محمود هو الذى كلف الفردوسى بنظم الشاهنامه (كتاب الملوك). واستغرقت هذه المهمة ثلاثين عامًا ـ لكن هذا الديوان له قصة أخرى.

اعتاد السلطان محمود أن يجوب شوارع عاصمته ليلاً متنكرًا سواء كان ذلك بمفرده أو بصحبة وزيره متنكرين فى زى أفراد متواضعين

من أبناء الشعب ليتفقد أحوال رعيته. كان يذهب إلى المقاهى ليختلط بجميع فئات البشر أغنياء كانوا أو فقراء، يتحاور معهم أو يسمع أحاديثهم ليعرف آراءهم فيه وفي حكمه ووزرائه ومستشاريه، وما إن كانوا راضين أم ثائرين متمردين يدبرون مؤامرة لقلب نظام حكمه. وكان يقارن ما يسمعه بالتقارير التى ترد إليه من قبل معاونيه وجواسيسه ليختبر ولاءهم وأمانتهم. وهكذا كانت منهجيته فى التواصل مع شعبه، فلم يكن يكتفى بالاعتماد فقط على متملقيه من أصحاب المصالح الذين قد تدفعهم مصالحهم إلى الكذب عليه وخداعه وتزييف الحقائق، وعندما يعود الجميع فى نهاية الليل إلى منازلهم يعود هو الآخر إلى قصره ليأوى إلى فراشه. وفى صباح اليوم التالى يتولى التحقيق فيما نمى إلى علمه من مآخذ وشكاوى.

وقد دفع ذلك وزراءه ومستشاريه إلى مواصلة العمل الدؤوب على قدم وساق وعم السلام فى عهده.

وفى إحدى الليالى بينما كان السلطان محمود فى طريقه للعودة إلى قصره اعترضته عصابة من اللصوص. وكانت الشوارع آنذاك مظلمة وخالية ولم يكن هناك أحد يمكنه غوثه إذا ما اعتدى عليه اللصوص. لم يكن اللصوص - كما بدا الأمر - يتطلعون إلى سرقته بل سألوه من هو وماذا يفعل هنا فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. فأجاب السلطان أنه واحد منهم - لص - يبحث عن غنيمة وسألهم أن ينضم إليهم.

فضحك اللصوص وقالوا إنه ليس باستطاعة أى شخص أن يصبح لصًا من أفراد عصابتهم، حيث إنهم ليسوا لصوصًا صغارًا يسطون على المواطنين الأبرياء، بل هم محترفون لا يسطون إلا على الثروات الضخمة وكل منهم لديه من القدرات منقطعة النظير التى تكفل نجاح هذه السرقات الكبرى. يمكن أن ينضم إلى عصابتهم فقط إذا كان يتمتع بموهبة استثنائية تجعله جديرًا بذلك.

ثم سألوه: "إذن ما هى قدراتك؟"

فكر محمود لوهلة ثم قال: "أنبئونى أنتم أولاً عن قدراتكم الخارقة وسأخبركم بما أتمتع به من قدرة لا تجدونها عند أحد". ووافقوا.

قال اللص الأول :"تكمن موهبتى فى أذنى: حيث بإمكانى سماع نباح كلب على بعد أميال. ويمكننى فهم ما يقوله وبذلك أتنبأ بالخطر، فعلى سبيل المثال إذا كان حيوان يقول إن السماء ستمطر هنا أعرف أن على أن ألوذ بمكان بمنأى عن المياه، وإذا تنبأ بوقوع جفاف يمكننى أن أعد العدة لتفادى عواقب ذلك."

وكانت هذه حقًا موهبة تميز الرجل يصعب على محمود ادعاء أن لديه ما يضاهيها. ثم توجه إلى اللص الثانى وسأله عن قدرته الاستثنائية.

فأجاب: "تكمن جل قدرتى فى عينى يمكننى أن أتعرف فى الصباح على أى شخص قد رأيته فى ظلام الليل الدامس فمثلاً قد يسطو على

لص بالمساء ويجردني من حافظة نقودي ثم يلوذ بالفرار، وما إن أراه في صباح اليوم التالي حتى أتعرف عليه وأمسك به وأعيد نقودي."

وتأمل محمود الأمر فوجد أن هذه المهارة أيضًا تعد خارقة للطبيعة مثل موهبة اللص الأول.

وجاء دور اللص الثالث الذي قال: "تكمن قدرتي في ذراعيّ". ثم استأنف الحديث فقال: "يمكنني حفر الأرض بسرعة وعمق منقطع النظير مهما كانت صلابتها لأصل إلى الكنز المخبأ في باطنها."

فتعجب السلطان محمود وقال: "اللهم لك الحمد...... هذه القدرة هامة للغاية".

ثم توجه إلى اللص الرابع الذي قال: "تكمن قدرتي في أنفي..... فالأرض لاتكتم عني سرًا.... فبإمكاني أن أشمها وأكتشف ما يخفي باطنها من ذهب أو أحجار كريمة تمامًا كما يدرك المجنون[٢] رائحة محبوبته ليلى إذا تنسم عبيرها على منديل مجهول، كذلك أنا مع الأرض إذا مررتُ عليها."

وفي نهاية الأمر أضاف آخر أفراد العصابة أن موهبته تكمن في يديه: "يمكنني أن ألقي خطافا أو حبلا أو رمحا من الأرض إلى ارتفاع قد لا يصله مرمى البصر لأصيب أي جدار مهما كان عاليًا."

عندما انتهى اللصوص من وصف ما يتمتعون به من مهارات سألوا محمودًا كيف يمكن أن يضيف إلى جماعتهم إذا ما انضم إليهم.

فرد محمود: "تكمن موهبتى فى ذقنى فبإمكانى أن أنقذ حياة رجل من خلال هذه المهارة، فعلى سبيل المثال إذا ما تم إلقاء القبض على عصابة والحكم على أفرادها بالإعدام فبإمكانى أن أهز ذقنى لأنقذهم جميعًا من تطبيق الحكم بالموت عليهم."

لم يستطع اللصوص أن يصدقوه لأن مثل هذه المهارة تدخل فى عداد المستحيل، لكنه أكد لهم بدوره أنه لا يكذب وسيثبت لهم ما يدعى عندما يأتى الوقت المناسب. وهنا انحنى له الجميع وقالوا إن مهارته تعد أكثر المهارات أهمية، ذلك لأنه حتمًا سيأتى اليوم الذى يلقى فيه القبض على احدهم أو عليهم جميعًا ليمثلوا أمام العدالة ويحكم عليه بالإعدام وهنا كل ما على صاحبهم هو أن يهز ذقنه. وهنا نصبوه عليهم زعيمًا نظرًا لما يتمتع به من مهارة من شأنها إنقاذ حياتهم.

ومضى الأصدقاء الخمسة معًا وبدأوا يتحينون الفرصة ليسطوا على أى شىء ثمين. توقف الآن الذى يتمتع بقوة سمع خارقة وجعل ينصت: "أسمع كلبًا ينبح خارج بوابات المدينة يقول إن السلطان بيننا."

بدا ما يقوله الرجل هراء - فكيف يتسنى لسلطان أن يكون وسط عصابة لصوص، فى حين أنه لابد أن يكون راقدًا فى فراشه نائمًا بقصره فضحك الجميع وقالوا لأول مرة تخذل زميلهم أذنه.

وفى النهاية وصلوا إلى قصر الملك الذى تحيطه جدران عالية. وهنا جاء دور اللص الذى يتمتع بالقدرة على إلقاء الخطاطيف. ألقى حبلاً طويلاً

ليتم تعليق مؤخرته بأعلى السور المحيط بالقصر ثم اعتلوا الحبل واحدا تلو الآخر وتسللوا داخل القصر.

هنا استنشق اللص الذى يتمتع بحاسة شم خارقه رائحة خزينة الملك التى يحتفظ فيها بمقتنياته الثمينة. والآن جاء دور اللص الذى يتمتع بسواعد قوية، فقام بحفر الأرض إلى أن ظهر باب سرى وخلف الباب وجدواممرًا ضيقًا مظلمًا به سلم يؤدى إلى أسفل، وما إن نزلوا حتى وجدوا سردابًا. مشوا حتى نهاية السرداب فوجدوا بابًا معدنيًا يشبه باب الجامع الأكبر. دفع اللص ذو الذراع القوية الباب وتمكن من فتحه وياللهول المفاجأة! فإذا هم قبالة كنز الباديشاه - غرفة مترامية الأطراف مكتظة بالزكائب من الأرض إلى السقف ملؤها العملات الذهبية والأحجار الكريمة. وهنا تنسم اللص ذو الأنف الخارقة الهواء وقال نحن الآن تحت غرفة نوم السلطان الذى يرقد نائمًا الآن ولا يدرى أن خزينته جارى السطو عليها.

قام اللصوص فى التو بتعبئة حقائبهم بالذهب وعادوا على الفور إلى سطح الأرض وسرعان ما غادروا القصر. تتبعهم محمود إلى بيتهم الذى كان فندقًا قديمًا وصغيرًا خارج بوابات المدينة. وقد عرف عن هذا المكان أنه مسكون بالجن والأرواح الشريرة ولم يجرؤ أحد أن يطأ هذا المكان، لذلك اختاره اللصوص ليكون مخبئًا لهم. وكانوا جميعًا متعبين وجائعين، تناولوا الخبز والجبن مع شريكهم الجديد وأعطوه مرتبة من القش لينام عليها وناموا فرحين بغنيمتهم، وما إن تأكد محمود أن

النعاس قد غلبهم حتى قام يتسلل دون أن يحدث صوتًا. كانت السماء ملبدة بالغيوم وهرول محمود ليعود إلى القصر قبل أن يفتضح أمره. دخل القصر من خلال باب سرى لا يعرفه أحد سواه هو ووزيره، واتجه مباشره إلى غرفة نومه لينال قسطًا من الراحة وتعجب ماذا عساه أن يفعل مع عصابة اللصوص؟!

حكى السلطان القصة لبلاطه فى صباح اليوم التالى. انطلقت سرية من جنود لتعيد الذهب المسروق وتلقى القبض على اللصوص لتتم محاكمتهم بعد المثول أمام القضاء.

وما إن دخل اللصوص غرفة الاجتماع ورأوا قبالتهم السلطان جالسًا على عرشه، حتى قال اللص الذى يتمتع بقوة البصر الخارقة: "هذا هو الرجل الذى كان بصحبتنا ليلة أمس! لقد عرف كل أسرارنا." وهنا أدركوا أنهم هالكون لا محالة. وقف العشماوى بجوار العرش فى انتظار إشارة من السلطان ليحصد أرواحهم.

سألهم الباديشاه: "حسنًا ما هى حجتكم فى الدفاع عن أنفسكم؟ وما هو العقاب الملائم لفعلتكم هذه؟"

قال اللصوص إنهم لا ينكرون خطأهم إلا أنهم أتقنوا عملهم على الوجه الأمثل فقد استعان كل منهم بما لديه من ملكات خاصة وجاء الآن دور السلطان ليستعين بما لديه من قدرات ويهز ذقنه.

ضحك محمود وكان لزامًا عليه أن يتقبل منطقهم فى حجة الدفاع عن أنفسهم. فقد أخبرهم أنه باستطاعته أن ينقذ حياتهم فقط إذا هز ذقنه لذا جعلوه زعيمهم. لم يعد لديه خيار آخر سوى إصدار العفو عنهم. أما اللصوص فبدورهم تابوا ووعدوا أن يقلعوا عن ارتكاب جرائم السطو والسرقة وأن يبحثوا عن حرفة شريفة تعينهم على كسب العيش.

ترجع هذه القصة إلى قصص الرومى وما ساقه لكن لا يعرف أى منا - أنا وزهرة - أصول هذه القصة وبعد أن مرت عدة سنوات على قراءة الكتاب بالكامل أدركت هذه القصة. لقد أخذت لب القصة ونسجت حولها تفاصيل أخرى وأضفت لها رؤيتى الخاصة دون الاحتفاظ برؤى الشاعر الفلسفية.

فشعر الرومى يعد ملحمة تدور حول النفس البشرية الأمارة بالسوء، ورحمة الله التى وسعت كل شىء. لا شىء يجدى فى مهارات السارق المحنك سوى الأذن التى تعى تحذير نباح الكلاب، بينما ثبت عدم جدوى بقية الملكات التى هى أمور مادية لم تجلب إلى اللصوص سوى التورط. وفى نهاية الأمر ثبت عدم جدواها فى مواجهة الموت.

حــظ العــراف

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه منذ زمن بعيد كان يعيش فى مدينة أصفهان رجل يدعى "همت". كان فقيرًا حيث إنه لم يكن يجيد أى مهارات خاصة تعينه على كسب قدر لا بأس به من المال، ورغم أنه كان يعمل طيلة النهار منذ طلوع الفجر حتى حلول الليل فى أى عمل من شأنه أن يدر عليه قدرًا يسيرًا من الربح. فقد كان يأخذ على عاتقه القيام بأشق المهام فى مواقع البناء ونقل الأحمال الثقيلة فى السوق، حتى إنه شعر أن ظهره يكاد يتمزق ألمًا وهوفى كل ذلك بالكاد يكسب ما يقيم أوده. ورغم كل ذلك لم يشتك أبدًا وكان دائم الرضا والبشر.

ومر الزمان وأنجبت زوجته صديقة ابنًا ثم ابنة وأصبح كسب العيش لتلبية حاجات الأسرة أمرًا شاقًا للغاية. ووصلوا إلى درجة من العوز حتى إن صديقة لم يكن بمقدورها تدبير الفلسين لتقوم بزيارتها الأسبوعية للحمام. وتدبرت الأمر لفترة من الوقت حيث كانت تدفئ المياه وتستعين بها فى الاستحمام، ولكنها شعرت بالخزى عندما رأت أن الجارات يقلن أنهن لم يرينها منذ زمن بعيد ترتاد الحمام واشتكت لزوجها.

وفى نهاية الأمر دبر لها زوجها بعض النقود وأعدت صديقة حقيبة تحوى المناشف والملابس النظيفة وذهبت إلى الحمام، ولكنها فوجئت به مغلقا وأخبرتها المساعدة هناك أن الحمام محجوز بالكامل لزوجة كبير عرافى الملك ووصيفاتها. توسلت صديقة إليها لتدعها تدخل الحمام لأنها جاءت من مكان بعيد وأنها بحاجة ماسة إلى حمام جيد، وقالت: "سأجلس فى ركن مظلم حتى لا يرانى أحد وسأستحم بأسرع ما يمكن لكن برجاء لا تدعينى أعود.". وفى نهاية الأمر سمحت لها المساعدة بالدخول بعد أن أشفقت عليها. قامت صديقة بخلع ملابسها فى غرفة دافئة كبيرة تضيؤها المصابيح الخافتة ويلبد أجواءها البخار المكثف كضباب الخريف. جلست فى ركن مظلم وجعلت تصب المياه الساخنة على جسدها. امتص جلدها الماء الساخن بلهفة تمامًا كما يشرب المسافر الظمآن فى الصحراء، وشعرت بجلدها يسترخى أخيراً بعد أن طال حرمانها من هذا المكان طوال الشهور الماضية.

والآن فتح الباب ودخلت زوجة كبير العرافين تحمل ذراعيها خادمتان شابتان تمشى كل منهن على أحد جنبيها والثالثة تحمل صينية فضية مستديره والرابعة تحمل حوضًا من الفضة. وضعن الصينية على الأرض وأجلسن زوجة كبير العرافين على الصينية ليحمين مؤخرتها من الحرارة، ثم ملأن الحوض بمياة ساخنة وباردة حتى أصبحت المياه بمقاييس درجة حرارة بعينها قبل أن يتم صبها على كتف السيدة. بدأت إحدى النساء تدلك ظهر زوجة كبير العرافين بينما تمشط الأخرى شعرها والثالثة تضع الحناء على أظافر يديها وأصابع قدميها.

لم يكن فى هذه الأيام هناك طلاء للأظافر لذلك استخدمت النساء الحناء فى طلاء أظافر اليد والقدم، بل أيضًا استخدمنها فى طلاء كفوفهن وكعوبهن، فبالإضافة إلى لونها الجميل فإنها تتمتع بخصائص مفيدة تقى من بعض الأمراض مثل خشونة المفاصل.

جلست صديقة التى لم يشعر أحد بوجودها فى الظلام وجعلت تتأمل زوجة كبير العرافين فى الإضاءة الخافتة تلك السيدة الدميمة المشوهة ذات الوجه الطويل النحيل والتى تشبه تمامًا الخراف الجائعة وعينيها الضيقتين وحاجبيها الكثيفين وشفتيها الغليظتين وجلدها السميك المجعد وظهرها المترهل ومزاجها الحاد، تزأر بين الحين والحين لتنادى على وصيفاتها فينبعث منها صوت يشبة صوت القطة الشرسة.

شعرت صديقة بالألم والمرارة يعتصران قلبها وتنهدت: "إلهى...... لقد جعلتنى جميلة فى حسن عروس البحر وأعطيتنى وجهًا يضاهى وجه ملكة من ملوك الف ليلة وليلة جمالاً وفتنة وجعلتنى حلوة المعشر وبهية الطلعة... كل هذا ولايستطيع زوجى تدبير فلسين لأرتاد الحمام، بينما يغطى الذهب جسد هذه العجوز الغابرة وتعامل معاملة الملكة المتوجة. هل هذا عدل؟"

ثم تذكرت أن كلنا سواء واستدركت لتشكر الله الملك لأنه أعطاها زوجًا محبًا وطفلين أصحاء. كما أنه من منا نحن البشر يمكن أن يعلم ما يبطنه الله؟ فإن الله له حكمة فيما جرت به الأمور. وهو وحده الذى

يعى بواطن الأمور ويسبب الأسباب، ونحن البشر ليس بإمكاننا أن ندرك ما السبب وراء كل ما يقدره الله. لذا واصلت صديقة الاستمتاع بحمامها وما إن انتهت حتى تسللت خلسة دون أن يشعر بها أحد وعادت إلى المنزل.

عاد زوجها إلى البيت فى المساء وجلسا سويًا يتناولان وجبة العشاء المتواضعة، وأخبرته بنبأ زيارتها للحمام ورؤيتها لزوجة كبير عرافى الملك.

ثم قالت: "إنس كل شيء عن ذهابك للعمل غداً والكدح طيلة النهار فى حفر الأرض ونقل الأحمال الثقيلة. ومن الآن فصاعداً ستصبح عرافًا ومنجماً."

ضحك "همت" واعتقد أن زوجته تمزح، ولكنها أصرت أنها جادة وأضافت قائلة: "إما أن تصبح عرافًا حتى نعيش عيشة هانئة وإلا سأقوم بمغادرة المنزل."

توسل إليها "همت" أن تتعقل فى مطلبها، وقال: " أنا لا أعرف شيئًا عن هذه المهنة كما أننى ليس لدى أية معدات تعيننى على احترافها."

واصلت صديقة الحديث قائلة: "لا يهم ستبيع فأسك ومعداتك وسيكون معك قدر كاف من النقود لتشترى معدات العراف وتعمل منجماً، وتعد نفسك لتصبح صديقًا وموضع ثقة المنجمين، وعندما يأتيك زبون كل ما عليك فعله هو رؤية الطالع وإخبار الزائر ما إذا كانت الكواكب فى

وضع يدعم المهمة التى كان ينوى القيام بها أم لا.. فعلى سبيل المثال يمكن أن تكون الجوزاء والعقرب فى بقعة كذا وكذا، لذا سينجح الزبون وسيكون محظوظًا. واترك باقى الأمر لله عز وجل فهو رحمن رحيم."

استطاع "همت" بالكاد أن يخلد إلى النوم، لكنه لم يكن بأى حال يستطيع أن يتحمل مجرد هاجس أن يفقد زوجته الجميلة، وما إن طلع الصبح حتى ذهب إلى السوق وباع معداته واشترى لوازم مهنته الجديدة. لف عمامة حول رأسه وارتدى عباءة وبدت هيئته كهيئة رجل متعلم أوملا وذهب إلى المسجد ووجد ركنًا ظليلاً جلس به حتى يتسنى للجميع رؤيته وفرش قطعة من القماش وأخرج معداته وانتظر زبائنه.

بدأ ينتابه القلق بعد مرور وقت قصير وجعل يفكر: ماذا لو لم يأت أحد لاستشارته؟ كيف سيعود إلى البيت يجر أذيال الخيبة؟ ثم لعن نفسه لأنه أطاع زوجته.

جاءه الآن خادم أغنى تجار السوق الحاج مرتضى واقترب منه وقال: "اختفى أحد جمال سيدى وكان محملاً بالذهب والفضة وبحث عنه فى كل مكان ولكنه لم يجد له أى أثر على الإطلاق. ربما يكون الجان قد استولوا عليه أو سطا عليه اللصوص. فلا يمكن أن يختفى الجمل بهذه الطريقه لحاله، فلابد أن يكون هناك سر وكل ما أعرفه الآن هو أنه إذا لم أستطع العثور على الجمل سليماً وآمنًا بحمولته، فسيقوم سيدى بشنقى أرجوك أخبرنى بحنكتك أين ذهب هذا الحيوان الملعون وكيف يمكننى العثور عليه."

وحقيقة الأمر لم يكن لدى"همت"حل لهذه المشكلة. تروى"همت"وفكر:

"إلهى يارحيم!.. اللهم إنى أسألك العون" وعندما نظر"همت"إلى اللوحة أمامه بعد أن ألقى النرد.ظل الجمال صامتًا بينما نظر "همت" بعمق إلى البقعة التى وقع عليها النرد ثم نظر إلى لوحة الفلك التى كانت تكسوها حروف عربية وأرقام منحوتة كانت تبدو كما لوكانت حشرات زاحفة.

وجعل يحك ذقنه ثم قال مبتسمًا: "هكذا! يمكننى رؤية الجمل الخاص بك لكن عليك اولاً أن تدفع لى عشرة دراهم."

دفع الرجل المبلغ بكل سرور وما إن وضع النقود فى جيب "همت" العراف المبتدئ حتى قام بإخباره بما ينبغى عليه فعله. قال همت: "خذ ملء كفيك من حبات بازلاء ثم ألق بها واحدة تلو الأخرى على الأرض أثناء السير، واقتف أثرها بينما تدور فى الأرض إلى حيث تستقر وما إن تنتهى الحبات حتى تغمض عينيك واستدر ثلاث مرات على التوالى ثم توقف وافتح عينيك، ثم واصل السير فى خط مستقيم وستعثر على الجمل."أسدى خادم التاجر الثرى الشكرللعراف وهرول ليفعل ما أوصى به آملاً فى إنقاذ حياته. اشترى ملء كفه بازلاء من بائع الحبوب بالسوق وبدأ السير من حيث كان العراف جالسًا يلقى الحبة فتدور وتتدحرج على الأرض ويتبعها هو بدوره وهكذا حبة تلو الأخرى ويقتفى هو بدوره أثر الحبوب حتى نفدت حصيلته منها، وهنا أغمض عينيه واستدار ثلاثًا

ثم فتح عينيه وسار فى خط مستقيم لبرهة من الوقت حتى غادر المدينة ولم يعد أمامه سوى البيداء.

لم يكن هناك أى أثر لخضرة ولم يلمح بالافق أى جمل فقط الرمال والحصى.

تملكه الشعور باليأس وردد: "فليذهب هذا العراف إلى الجحيم لقد أخذ نقودى وزج بى فى هذه البقعة الخالية من الأرض." وما إن أوشك على التوقف عن البحث عن الجمل حتى وجد حطام حصن قديم، وياالهول المفاجأة. لقد وجد ضالته، نعم الجمل المفقود كان بالداخل بكل حمولته من الذهب والفضة يستريح فى ظل أنقاض الجدران فى هدوء.تنفس الصعداء وأمسك بعقال الجمل وخاطبه مدللاً إياه، وسرعان ما نهض الجمل ومشى معه عائداً إلى بيت سيده.

وما إن وصل إلى بيت الحاج مرتضى حتى قص عليه نبأ الجمل وكل ما حدث بدءاً من العراف المحنك وصولاً إلى المكان الذى عثر فيه على الجمل. سر الحاج مرتضى كثيراً بهذه الأخبار وكافأ خادمه بعملة ذهبية وأثنى على قوته ووفائه.

عاد"همت" فى المساء إلى أسرته فرحًا للغاية فقد اشترى أغراضًا كثيرة: كباب شهى وأرز مبهر وفطائر بالكريمة للعشاء. هكذا تمكن فى دقائق قليلة أن يكسب ما يفوق مكسبه بعد شهر من الكد والشقاء. ثم قال لصديقة:"زوجتى الحبيبة لقد كنتِ محقة ففى نهاية الأمر لم تكن مهنة العراف أمرا بهذا السوء."

عاد "همت" فى صباح اليوم التالى إلى المسجد، جلس قبل أذان الفجر فى نفس البقعة وافترش عدته. وصل خادم التاجر الثرى بعد قليل بصحبته ثلاثة رجال آخرين وأخبره أن سيده يرغب فى أن يراه.

انتاب "همت" الشعور بالهلع وتمتم: "إلهى يارحيم! ماذا يريد هذا الرجل؟ وماذا سيحدث إذا فشلت هذه المرة؟ فأنا لا أعرف مبادئ الفلك والتنجيم! فقد نجوت بالأمس بفضلك وأديت مهمتى بفضل الله ورحمته ولكن الآن قد يفتضح أمرى ويقوم الرجل بطردى."

لم يكن أمامه خيار آخر سوى اتباع الخدم والذهاب معهم إلى بيت الحاج "مرتضى". وياله من بيت! بدا البيت كقصر أمير تم بناؤه وسط الحدائق بين الأحواض والنافورات ومجرى مياه والطيور تغرد على أغصان الشجر، ثم توجه إلى قاعة كانت يجلس بها الحاج مستلقيا على مقعد وثير.

وسأله الحاج: "هل أنت العراف الذى وجد الجمل الخاص بى وحمولته الثمينة؟" فرد"همت"بالإيجاب. فرد الحاج قائلاً: "من الآن فصاعدا ستصبح العراف الخاص لدى، ولن تعمل لدى أى شخص آخر ثم أعطاه ملء كفه عملات ذهبية كدفعة مقدمة من أجره وقال: سيصلك نفس المبلغ فى مطلع كل شهر لذا لست بحاجة للقيام بأى عمل آخر."

شكر "همت"رئيسه الحالى لما أغدق عليه من أموال وعلى شرف العمل لديه وقال: "أللهم أمد عمرك وارزقك سعة العيش".

ثم انحنى وانصرف عائداً إلى بيته مباشرة حيث نثر عملات الذهب قبالة زوجته، وقال لها: "سأحصل على نفس المبلغ فى مطلع كل شهر." وما إن رأت زوجته الذهب حتى أصابها الذهول وسألته عما حدث. حكى لها "همت" القصة وفى النهاية قال :" من الآن فصاعداً أنا كبير عرافى أغنى تاجر فى المدينة، رغم أننى لا أعرف شيئًا عن النجوم وليس لدى أى من مهارات قراءة الطالع. ماذا عساى أن افعل إذا ما اختبرنى سيدى الجديد سيفتضح أمرى وسيلقى بى فى غياهب السجون أو خارج البلاد. أترين ماذا فعلت بى أفكارك لقد أصبحت فى موقف لا أحسد عليه.. أى موقف حرج هذا الذى وضعتنى فيه؟"

أجابت صديقة: "لا تقلق ثق فى الله الملك لأنه الرحمن الرحيم بعباده."

ومنذ ذلك الحين كان العراف يذهب إلى بيت التاجر كل صباح فى وقت الفجر ويعود إلى بيته فى الغروب، على أتم استعداد فى كل يوم أن تجري استشارته بشأن النجوم وما قد يحدث فى إحدى الصفقات.

ومرت فترة من الزمن ولم يحدث شيء، ولم يلجأ لاستشارته أحد وحمد الله على رحمته. ثم سطت عصابة قوامها أربعون لصًا على مخازن التاجر الثرى فى إحدى الليالى وسرقت كل ما لديه من ذهب وممتلكات ثمينة. استيقظ الحاج فى الصباح ليجد أن خزائنه قد أصبحت خاوية تماماً. ويالها من طامة فإذا لم يستطع أن يستعيد بضائعه سيفقد كل

ما قضى عمره فى جمعه، ولن يستطيع أن يستأنف عمله فى التجارة. ستكون هذه كارثة ووبالاً ليس فقط عليه وعلى أسرته بل على كل من يعمل لديه وسيعانى الجميع.

تذكر العراف وقام باستدعائه وقال: "عليك أن تحدد مكان اللصوص فى الحال حتى يتسنى لنا القبض عليهم واستعادة محتوى الخزائن."

طلب "همت" برهة من الوقت ليعد نفسه للقيام بهذه المهمة، وعاد فى التو إلى بيته ليقول لزوجته: "حسنًا... وقعت الطامة التى كنت دومًا بانتظارها. سطا أربعون لصًا على خزائن سيدى فى الليلة الماضية وأخذوا كل ثروته وقد أمرنى أن أجد اللصوص وأعيد بضائعه. ولوفشلت فى القيام بهذه المهمة سيفتضح أمرى فى المدينة بأسرها وسيلحق بى الخزى والعار طيلة حياتى وسيلقى بى فى غياهب السجون. ماذا سيؤول إليه مصيرنا الآن؟ ماذا عساى أن أفعل الآن؟"

كاد "همت" يجهش بالبكاء بينما ظلت صديقة هادئة مستكينة وهدأت من روعه قائلة: "زوجى العزيز... هل الفارس الهمام يسقط عند العثرة الأولى! ياللعار أبهذه السرعة تفقد إيمانك، بدلاً من أن تمزق شعرك اذهب واسأل سيدك أن يعطيك مهلة أربعين يومًا. وخلال هذه الفترة علينا أن نرى ما إذا كنت ستنجو أو سيتم إعدامك وتذكر دائمًا أن الله الملك القدوس هو رحمن رحيم."

ذهب "همت" فى صباح اليوم التالى إلى بيت سيده وتوسل إليه أن يعطيه مهلة تمتد إلى أربعين يومًا، متعللاً فى ذلك بأن الموقف معقد للغاية وأن مواضع النجوم الآن ملبدة بالغموض، مما قد يجعل الأمر يلتبس عليه وأن خيوط هذه المشكلة متداخلة وتتطلب تركيزًا كبيرًا حتى يمكن حل عقدتها. وفوجئ "همت" بموافقة الحاج مرتضى وعاد إلى بيته ليخبر زوجته بما آل إليه الموقف.

وسأل "همت" زوجته : "الآن ماذا عساى أن أفعل؟ فأنت تعرفين جيداً أننى لا أعرف شيئًا عن مهنة التنجيم وليس بمقدورى قراءة الطالع أو التنبؤ بالغيب."

هدأت صديقة من روعه وقالت :"اذهب إلى فكهانى واشتر أربعين تمرة. كُلْ تمرة واحدة كل يوم بعد أن تنتهى من أداء صلاة العشاء ثم ضع نواتها فى إناء حتى يمكننا أن نعد ما مضى من أيام وما هو متبق من المهلة المتاحة لك."

أنصت "همت" لنصيحتها وبالفعل قام بشراء التمر وأكل التمرة الأولى وألقى بنواتها فى الإناء وقال: "هذا هو اليوم الأول من أربعين يوما."

الآن دعونى أخبركم بنبأ اللصوص الأربعين. فقد سمعوا أن التاجر الثرى قد استخدم عرافًا محترفًا له من الحنكة والمهارات ما يعينه على رؤية أى شىء يحدث فى أى مكان فى العالم حتى فى أعماق الأرض أو

فى قمم الجبال تماماً، كما لوكان مايحدث يقع قبالة عينيه. وقد نما إلى علمهم أن العراف قد أعطى مهلة أربعين يوماً ليعثر عليهم مما أصابهم بالهلع مخافة أن يعثر عليهم العراف أينما اختبأوا. تداولوا الأمر فيما بينهم وفى نهاية المطاف توصلو إلى حل، وقرروا أن يرسلوا أحدهم فى هذه الليلة يتسلل إلى سطح بيت العراف ويتجسس على الرجل حتى يعرف ما فعله وكيف سيعينه سحره فى الوصول إليهم وفى التخطيط للإمساك بهم، على أن يعود إليهم الجاسوس ليخطرهم بما توصل إليه بشأن العراف الداهية.

تطوع أحدهم للقيام بهذه المهمة، وما إن مالت الشمس عن كبد السماء خلف الجبال والمرتفعات حتى تسلل وصعد إلى سطح بيت"همت"ونظر لأسفل ليجد "همت" الذى كان قد تناول لتوه تمرته الأولى وألقى بنواتها فى الإناء يقول: "كان هذا الأول من أربعين." وهنا أصاب اللص الذهول، فقد ظن أن العراف بالطبع يقصده هو بهذه المقولة وكاد الخوف يُطير صواب اللص. وعاد إلى بقية أفراد العصابة وأخبرهم بنبأ العراف.

"هذا العراف داهية ماكر لم تكد قدمى تطأ سطح بيته حتى سمعته يقول : "هذا هوالأول من أربعين" وهو بالطبع يشير إلى.

لم يستطع اللصوص تصديق ما سمعوه. ربما كان الأمر كله بمحض الصدفة، أو أن العراف كان بصدد الإشارة إلى شىء آخر، ووجدوا أنه من الأفضل أن يعيدوا المحاولة ليتحققوا من الأمر. أرسلوا

فى الليلة التالية رجلاً آخر يستطلع الأمر من خلال سطح بيت همت. وصل جاسوس العصابة إلى سطح "همت"، ومرة أخرى فى نفس اللحظة التى كان"همت"قد انتهى من تناول التمرة الثانية وذهب يلقى بنواتها فى الإناء قائلاً : "هذا هوالثانى من أربعين."

غادر اللص بيت"همت"فى التو وعاد مسرعًا قدر استطاعته إلى باقى أفراد العصابة ليقول لهم : "إن هذا العراف حقاً على اتصال بعالم الغيب ويعرف كل شيء، وما إن وطأت أقدامى سطح بيته حتى سمعته يقول: "هذا هو الثانى من أربعين." وهوحتماً يشير إلى باعتبارى الثانى من الأربعين لصاً."

لم يستطع أى من اللصوص أن يتوقع أو يصدق أن العراف كان بصدد تحذيرهم، لذا أرسلوا لصًا ثالثًا فى الليلة التالية ثم رابع وخامس حتى سمع كل منهم "همت" يذكر رقمه فى كل مرة.

اجتمع اللصوص فى الليلة الأخيرة وتشاوروا فى أمرهم حتى توصلوا إلى الحل الأمثل الذى من شأنه حسم هذه المشكلة. وجدوا أنهم مهما اختبأوا بما حصلوه من السرقة سواء فى قرار بئر مهجور أو قمة جبل، فإن العراف الداهية بإمكانه العثور عليهم، وفى هذه الحال سيتم شنقهم وأن الحل لهذه الكارثة التى ألمت بهم هو إعادة البضائع المسروقة وطلب العفو.

استطاع "همت" هذه الليلة أن ينام بالكاد نظراً لأن مهلة الأربعين يومًا قد انقضت دون أن ينجز مهمة العثور على اللصوص واستعادة المسروقات.

استسلم "همت" لقدره واستيقظ فى فجر اليوم الأخير من المهلة وتوضأ وصلى وتوسل إلى الله بقدرته التى لا يعجزها شىء أن ينقذ حياته من أجل زوجته وأبنائه الأبرياء، وهم بمغادرة منزله ذاهبًا إلى بيت الحاج مرتضى.

وما إن عزم على الذهاب إلى بيت الحاج مرتضى حتى سمع طرقًا على الباب. ظن أنهم خدم سيده جاءوا لإحضاره، ولكنه وجد وفدًا من اللصوص جاءوا وأقسموا على أن يرشدوه إلى مخبأ كنز التاجر على أن يدعهم يمضون دون أن يلحق بهم الأذى. وأمرهم "همت" بمغادرة المدينة فرارًا بأسرع ما يمكن على ألا يعودوا إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن.

ثم هرول إلى بيت سيده مبشرًا بالأخبار السارة. مرة أخرى نجاه الله من كارثة محققة. وما إن رآه أغنى أغنياء تجار السوق حتى سأله: "حسنًا سيدى العراف لقد انتهت ياسيدى العراف مهلة الأربعين يومًا التى طلبت، فهل عرفت أحوال اللصوص؟"

أجاب "همت": "سيدى النبيل أعاننى الله على أن أعثر على ثروتك مخبأة فى بئر جافة عميقة خلف أسوار المدينة فى الصحراء، وعليك أن ترسل رجالك وخدمك بالجمال والبغال حتى يحضروا ثروتك لك."

أطارت الفرحة صواب الرجل ولكنه سأل "همت": "لكن أين اللصوص؟"

سيدى لقد لاذوا بالفرار خارج حدود البلاد وسيكلف الأمر كثيرا من المال وتكبد عناء المخاطرة لاقتفاء اثرهم وإلقاء القبض عليهم. أهم شيء هو أننا عثرنا على الذهب وجميع المقتنيات الأخرى لاينقصها شيء وسترى بنفسك رأى العين."

وهكذا قاد العراف الماهر قبيلة من الخدم والجمال والبغال إلى البئر حيث أخرجوا زكائب الذهب والفضة وبعض المقتنيات الأخرى الثمينة.

كافأ التاجر"همت"لما يتمتع به من معرفة وحكمة بقدر من المال والجواهر يفوق كل أحلام "همت" بكثير وأثناء عودته إلى بيته كان "همت"مسرورا منتشيا حتى إنه بالكاد كان يمشى على الأرض.

قال لزوجته صديقة:"زوجتى العزيزة لقد أصبحت الآن ثريا بالقدر الذى يعيننا على العيش عيشة ملوك وكفالة سبعة أجيال من أحفادنا، لكن مازال موقفنا حرجا، يجب أن أجد مخرجا من وظيفة العراف هذه وإلاسيفتضح أمرى وأفقد كل شيء: الشهرة والثروة والمال والسمعة الطيبة." لقد كنت دوما تجدين لى حلولاً لكل العقبات التى تواجهنا والآن عليك أن تفكرى ماذا عساى أن أقوم بفعله لاحقا؟"

فكرت صديقة مليا وأخبرت زوجها أنها لديها خطة : "عندما يذهب سيدك إلى الحمام غدا فى الصباح اندفع إلى داخل الحمام واخترق جميع البشر هناك ثم قم بسحب جسده خارج الحمام عاريا وهنا سيظن الرجل أنك قد أصابك الجنون وسيستغنى عن خدماتك."

شعر "همت" أن هذه فكرة عبقرية، وذهب إلى الحمام فى صباح اليوم التالى وتوجه إلى غرفة البخار وأسرع نحوسيده. حاول الخدم إثناءه عما يقوم به ولكنه تمكن من أن يزيحهم جميعا من طريقه ليصل إلى الحاج مرتضى وأحكم قبضته على قدميه وبدأ يسحب جسده خارج الحمام.

وفى نفس اللحظة خر سقف الحمام وتساقطت أطنان من الخرسانة. ذهل "همت" ثم قال فى التو:

"هل ترى سيدى؟ لقد رأيت فى الطالع أن الحمام على وشك الانهيار فهرولت إلى المكان كالمجنون حتى يتسنى لى إنقاذك."

لم يستطع "همت" هذه المرة إنقاذ ثروة سيده فحسب بل أنقذ حياته هونفسه. وكافأه سيده بأن أغدق عليه حقائب الذهب وأبهى الحلل وذاع صيت"همت"أضعافًا مضاعفة مما كان عليه وأصبح عرافا يعرفه الجميع.

عاد إلى بيته فى المساء يائسًا بعد أن باءت خطته بالفشل. وضع الهدايا أمام زوجته وأخبرها بما حدث بعد أن نفذ الخطة نزولا على نصيحتها، فبدلا من أن يستغنى الرجل عن خدماته أمطره بوابل من الهدايا.

وجعل يبكى :"ماذا عساى أن أفعل الآن؟ هل يمكنك أن تجدى حلا آخر؟ ذلك لأن الامر لا يعدو سوى مسألة وقت وسرعان ما سيفتضح أمرى وسيكتشف الجميع أنى مخادع محتال؟"

وتعجبت صديقة لبرهة من الوقت وطرأ على ذهنها فكرة أخرى، إذا قام بها"همت"سوف لا يعدو أن يكون أحمق فى نظر التاجر ويتخلى الرجل من تلقاء نفسه عن خدماته.

"لقد أخبرتنى أن سيدك سيقيم حفلا كبيرا للاحتفال بنجاته من موت محقق وسيدعو إلى هذا الحفل شخصيات مرموقة من المدينة. سيجلس سيدك على أريكة وسط الضيوف يتبادل عبارات المجاملة والتحية، وفى هذه اللحظة عليك أن تدلف إلى الحفل تماما مثل الثور الهائج تقبض بذراعيك على قدم سيدك وتطرحه أرضا. سيستشيط الرجل غضبا وغيظا من فعلتك هذه، وسيظن أنك قد فقدت صوابك وسيطردك فى الحال، وهنا تسرع بالعودة الى المنزل حيث نحزم أمتعتنا ونرحل إلى أى بلد آخر نعيش هناك فى هدوء بقية عمرنا."

انفرجت أسارير"همت" وقال: "هذا أفضل ماجئت به من أفكار.... يا زوجتى العزيزة". وبعد مرور أيام قليلة دعا الحاج مرتضى معارفه والشخصيات المرموقة فى المدينة إلى وليمة عشاء فاخرة وبالطبع كان"همت" من بين المدعوين.

عندما وصل جميع الضيوف وكانوا على وشك طرح مأدبة العشاء، هرول"همت"إلى قاعة المدعوين وأمسك بساقى سيده وألقى به على الأرض. اجتاح الجميع الهلع حيث أسرع الخدم ليساعدوا كبير التجار على النهوض، وفى نفس اللحظة برز على الأريكة التى كان مستلقيًا عليها منذ دقيقة عقرب كبير فى حجم السحلية.

لم يكن لدى "همت" أية خيارات أخرى سوى أن يدعى قائلاً: "رأيت فى الطالع أن سيادتكم بصدد مواجهة خطر داهم حيث سيصيبك عقرب، لذا هرولت بكل ما أوتيت من قوة حتى يتسنى لى إنقاذكم من هذا الخطر."

وكانت هذه حقا معجزة، وهكذا ينقذ مرة أخرى كبير العرافين حياة سيده. وأغدق التاجر فى هذه المرة على"همت"حقيبتين من الذهب بالإضافة إلى بعض الأحجار الكريمة، لكن بدلا من أن يشعر بالسعادة، شعر "همت" باليأس وعاد الى زوجته يجرجر أذيال الخيبة وأخبرها بما حدث.

هدأت صديقة من روعة وقالت " لاتيأس.... زوجى الطيب.. ليس لدى المزيد من الافكار. توكل على الله وانتظر ما سيحدث فالله تعالى رحمن رحيم."

استسلم "همت" إلى قضاء الله وحاول ألا يعترض على ما أصابه. قرر فى أحد الأيام سيده أن يخرج فى رحلة صيد، وسأل كبير العرافين ماإذا كان الفلك مواتيا ,قرأ"همت"الطالع ورد على سيده مشيرا إلى أن كل شيء على ما يرام. أصر سيده على اصطحابه معه فى رحلة الصيد ذلك لأنه كان أكثر من يثق به ويفضل معيته من العاملين لديه.

بينما كان الحاج مرتضى يمتطى جواده على رأس القافلة وقعت عيناه على جندب أمامه... وقام بالتقاطه وإخفائه فى يده ثم استدعى العراف وسأله حازما: "هل تستطيع أن تعرف ما الذى أخفيه فى يدى؟"

كاد "همت" يهوى عن جواده وانتابه الهلع وحدثته نفسه:" أنه ها قد وقع المحظور وقد وصل إلى حيث لا مفر." وهنا تبادر إلى ذهنه المثل القديم الذى مفاده أن المرء قد يكذب مرة أو اثنتين، ولكنه فى نهاية المطاف لابد حتما أن يفتضح أمره. "قفز الجندب مرة ثم قفز مرة أخرى والآن الجندب فى كف يدى أمسكت به."

قرر أن يردد هذا المثل القديم بصوت عال كدرب من دروب الاسترحام فقال: قفز الجندب مرة ثم قفز مرة أخرى والآن الجندب فى كف يدى أمسكت به، أصاب التاجر الثرى الذهول وسكت لوهلة متأملا مايتمتع به عرافه من حكمة ومعرفة، ثم ضحك وفتح كفه ليدع الجندب يمضى. وفى هذه الليلة عاد "همت" إلى بيته وقص على صديقة نبأ الجندب، فما كان من صديقة إلا أن قالت له يبدو جليا أن الله تعالى قد أراد أن تكمل فى هذا الطريق لتصبح عرافا، وأنه لزاما عليك أن تستسلم لإرادته بدلا من أن تعييك السبل فى محاربة هذا القدر.

لم يمض كثيرًا حتى توفى الحاج مرتضى تاركا لهمت ميراثًا كبيرًا الأمر الذى أعانه على اعتزال مهنة العراف وعاش سعيدا منذ ذلك الحين مع زوجته الحبيبة وأبنائه.

قصة بيجان ومانيجا

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

يحكى أنه فى عهد الملك "كاى خوسرو" كان هناك محارب يدعى "بيجان" يعيش فى فارس. كان بيجان هو حفيد رستم أعظم أبطال العالم فقد كانت أمه هى "بانوجو شاب" الابنة الجميلة لرستم. كان بإمكانه أن يتزوج أيا من الفتيات الجميلات فى البلاط، حتى ابنة الملك نفسها. ولكن لم يكن يلقى بيجان لهذا الأمر بالاً. كان بيجان وسيمًا شجاعًا بالقدر الذى يجعل أى امرأة تقع فى غرامه ما إن تقع عليه عيناها. كانت أحلامه بالجهاد والفتوحات لا تدع لديه مجالاً لأن يفكر فى الحب والزواج، فكل ما يتمناه هو الانتصار فى المعارك ليثبت أنه جدير بأن يكون حفيد جده رستم.

كانت فارس إبان نشأته دومًا تشتبك فى معارك مع "توران" مملكة فى الشرق يدعى ملكها "أفراسياب"وهو أيضًا محارب ذائع الصيت داهية فى القتال. فقد كان دومًا يشن الهجوم على فارس وتمكن من احتلال الولايات الشرقية، ولم يستطع أحد أن يتصدى لهجومه ويعيده

إلى حيث أتى إلا بعد أن منيت قواته بهزيمة ساحقة على يد رستم. فقد قيل إن رستم كان إنسانًا نشيطًا لا يعرف الخمول والكسل، وإنه حتى بعد أن بلغ المشيب كان باستطاعته أن يحمل فارسًا من أعدائه بكامل عتاده ليدير جسده في الهواء قبل أن يطرحه ارضًا ويجلس على صدره معلنًا غلبته.

كان بيجان متلهفًا ليسهم بدوره في المعركة، وعندما نضج في سن السادسة عشرة، تصادف أن هاجم أفراسياب مرة أخرى فارس. أسرع بيجان وكشف عن هويته في أرض المعركة، بينما لم يكن هناك من يحمي ظهره. أثبت عن جدارة أنه يستحق أن يكون حفيد رستم، فقد أشاع الخوف والهلع بين صفوف الأعداء وفرق صفوف العديد من خير أجنادهم. وفي هذه الأيام لم يكن شائعًا مثل أيامنا هذه استخدام البنادق والطيارات والسيارات والدبابات، فقط كان الأمر هوقتال جنود مدرعة تستعين بالسيف والدرع والسلاسل، وكان الذي يحدد نتيجة المعركة هو مبارزة بين جنديين.

استعرض بيجان قدراته القتالية الخارقة وجاءت ساعة النصر عندما استعاد العلم الفارسي الشهير "كفياني بانوكيف". لقد اختفى هذا العلم؟ وكيف حدث ذلك؟ يُمَثِل هذا العلم روح فارس، انتصار الخير على الشر نتيجة لما يبذله البشر من جهد. كيف سقط في أيدي الأعداء؟

حسنًا، ما حدث آنذاك أن "فاريبورز" قائد جيش فارس عندما واجه جيشًا ضخمًا أصابه الهلع ولاذ بالفرار من ميدان المعركة وبصحبته

العلم. وقد نتج عن ذلك انهيار الجيش الفارسى وهزيمته فى المعركة هزيمة ساحقة، وكان السبيل الوحيد للنجاة هو العثور على هذا العلم وإعادته.

رحل بيجان دون تردد باحثًا عن العلم. انطلق ممتطيًا جواده فى سرعة الرمح ليلحق بفاريروز واختطف العلم من يديه وعاد رافعًا العلم يتخلل صفوف الجنود ليبعث روح الحماسة بين جموعهم. احتفل الفرس بعودة العلم وحاربوا محاربة الأسود حتى حالفهم النصر فى معركة حامية الوطيس، بينما منى جيش أفراسياب بهزيمة ساحقة ولاذ بالفرار.

لكن لم تكن أى من هذه الغارات خرقًا للمألوف، ومازال بيجان يُعَد فقط محاربًا معروفا وسط العديد من المحاربين، إلا فيما يتعلق بغزوه الأعظم لقلب مانيجا ابنة "أفراسياب" التى عرفت بجمالها وحسن شمائلها وخلقها. إن قصة الحب التى جمعتهما هى التى خلدت ذكراهما فى قلوب وعقول العشاق إلى يومنا هذا وسيظلان خالدين أبد الدهر.

ذلك لأن ضوء الحب الخالد هوالذى يسرى فى الكون بينما تحيا الممالك وتسقط وتنتصر السلاطين ثم تتقهقر، وفى النهاية تتحول الأجساد الفانية إلى تراب.

بينما كان الملك "كاى خوسرو" يحتفل بانتصاره على عدوه اللدود "أفراسياب" فى قاعة العرش التى تزينها ألوان النصر المبهجة، جلس الملك مرتديًا ثيابه الفخمة وتاجه على عرش يحيطه الجنرالات أبطال

الحرب، انتشرت كئوس الخمر مثل الماس السائل وقدمت صنوف الطعام الشهية صنفًا تلو الآخر، بينما عزف الموسيقيون وانتشرت الفتيات ذوات البشرة البيضاء والشعر الأسود المنسدل وفاح منهن عطر المسك فى أرجاء المكان حيث كن قائمات على خدمة الضيوف.

وفجاة هرول أحد الحراس إلى المكان وانحنى بشدة قبالة الملك معلنًا وصول وفد ليقدم التماسًا عاجلاً من الشمال بالقرب من الحدود مع توران. وقد أخطر الملك أنه رغم أن الوفد مرهق من عناء السفر ولايرغب فى إزعاج جلالته، فإنهم يرغبون فى مقابلة أحد المسئولين على وجه السرعة.

أذن لهم الملك بالدخول إلى حضرته وأخبروه أن طامة كبرى لحقت بهم: فقد أنبأوه أن بلادهم قد اجتاحها غزو من وحوش ضخمة مفترسة تدمر الغابات والحقول وتقتل المواشى والدواب. وقد أعيتهم السبل فى مواجهة هذا الخطر الداهم إلا أن هذه الحيوانات قد جاءت بأعداد غفيرة وتتمتع بقوة عاتية، حتى إنه لم يستطع أحد أن يتصدى لها: فضربة واحدة كفيلة بأن تودى بحياة كل من تسول له نفسه التصدى لها. أصبحت الحقول والمرعى صحراء جرداء، وماتت الحيوانات واشتعلت الغابات. لقد أصبحت الأرض خاوية على عروشها كالصريم ولا أحد يمكنه إنقاذ الموقف سوى الملك حامى الضعفاء وراعى العدالة.

ماذا عساه أن يفعل؟ نظر الملك فى القاعة إلى الموجودين من المحاربين والجنرالات الذين ملأهم الفخر بالنصر ونشوة الخمر وسأل

منْ مِن بين الحاضرين يمكنه الاضطلاع بهذه المهمة لإنقاذ البلاد من هذه الطامة التى لحقت بها، وعرض على سبيل التحفيز أن يكافئ المتطوع للقيام بهذه المهمة بعشر زكائب من الذهب والزبرجد وصينية ضخمة من الجواهر والماسات.

ساد الصمت المكان لوهلة حيث نظر الجميع إلى الارض وكتموا أنفاسهم متعجبين، من ذا الذى سيتجرأ ويتصدى للقيام بهذه المهمة لم يحرك أحد ساكنًا. بالطبع كانت المكافاة ضخمة ولكن الخطر يماثلها ضخامة. فقد نجوا جميعهم من الموت بأعجوبة ولا يرغبون الآن فى تحدى القدر.

ثم أصابت الدهشة الجميع عندما نهض بيجان الذى يُعَد أصغرهم سنًا، وامتثل أمام الملك. حاول أبوه "جيف" أن يتبين ما ينوى القيام به محذرًا إياه، حيث أخبره أن خنزيرًا واحدًا بإمكانه قتل ستة رجال، فما بالك بقطيع من الخنازير الوحشية. ولكن بيجان كان مصراً على ما عزم على القيام به، فرد قائلاً: "لا تقلل من قدرى يا أبت قد أكون صغيراً فى السن ولكن قدرتى على الحكم على الأشياء وتقييم الأمور سليمة، وأنا واثق من أن النجاح سيحالفنى فى هذه المهمة."

كان الملك مسروراً وتوجه إلى "جورجين" الذى كان محارباً شاباً وقال: "اذهب معه لأنك تعرف هذه البقعة جيداً، ويمكنك أن ترشده وتكون دليلاً له فى رحلته."ودون أى جدال ذهب الرجلان للاضطلاع بهذه المهمة.

انطلق بيجان وجورجين وواصلا السير ليلاً ونهاراً حتى بلغا غابة الخنازير الوحشية، ورأيا هناك أن الفوضى تعم المكان. شعر بيجان بالحسرة تعتصر فؤاده على ما ألم بالناس من خراب واستشاط غضباً. واحتاج الرجلان إلى تناول بعض الطعام ونيل قسط من الراحة بعد عناء رحلة طويلة حتى يواصلا العمل والتخطيط للمهمة التى هما بصدد القيام بها. اصطادا خنزيراً وطهواه على النيران. أكلا لحمه الدسم وشربا الخمر ورقدا فى ظل الشجر وجعلا يتناقشان عما هوأفضل سبيل لمهاجمة هذه الحيوانات.

اقترح "بيجان": "سأمطرها بوابل من الرماح بينما تذهب أنت بصولجانك وخنجرك لتقتل أكبر عدد ممكن فى طريقك لتسقط جريحة، وبذلك نتجنب أى هجمات أخرى وبهذه الطريقة يمكننا التغلب عليها جميعاً."

شعر جورجين بالهلع فلم يكن يرغب فى المشاركة فى هذه المعركة الخطرة، واعترض على القيام بأى دور فى هذه المعركة وقال: "بما أنك من تطوع للقيام بهذه المهمة وأنت من أغدق عليه الملك الخيول والجواهر لذا يجب أن تقوم أنت لا أنا بمحاربة هذه الخنازير فقد كانت مهمتى اصطحابك وأكون دليلك الذى يعينك على الوصول للمكان وقد أديت واجبى بالفعل."

وما إن قال الرجل هذا الكلام حتى أصابت بيجان خيبة أمل. لم ينته الأمر عند ذلك الحد ففى صباح اليوم التالى عندما تسللا إلى

الغابة زأر بيجان مثل الأسد وهاجم الحيونات بمفرده. تناثرت الأسهم في جميع الاتجاهات مثل البرق تضرب وتجرح الخنازير. أخذ بيجان يضرب بالأسهم والصولجان والخناجر في جميع الاتجاهات، حارب الوحوش كما لو كانت لديه عشر أياد . كانت بعض الخنازير الضخمة تحاربه محاربة كر وفر بكل شراسة وتمزق الأغصان، وعلت هالة كثيفة من الغبار فأصبحت الغابة وكأنها في ظلام ليلة غير مقمرة. بينما هرول خنزير أسود ضخم يطارد"بيجان"، وكان في ضخامة الفيل واستطاع أن يمزق معطف "بيجان" إلا أنه طعنه بخنجره في رقبته وهوى الخنزير على الأرض بعد أن جرح جرحًا غائرًا أودى بحياته. ثم توجه "بيجان" إلى بقية الخنازير يقتل بعضهم ذات اليمين وذات اليسار وفي الوسط وتكدست الغابة بجثث الخنازير.

ذهل جورجين الذي كان يتابع الموقف عن بعد حيث كان يتخذ مكانًا آمنًا ولم يصدق ما رآه من شجاعة بيجان منقطعة النظير وسرعته ومهارته، فقد بهرته قدرات بيجان الخارقة. وشعر "جورجين" بالخزي جراء جبنه وتخاذله وتسرب إلى نفسه الحسد. ولكنه لم يبد مشاعره بل هنأ صديقه على نجاحه وأمطره بوابل من المديح والمجاملات. قال إنه شارك في معارك عدة، ورأى صيادين ومقاتلين عدة، ولكنه لم يشهد في حياته شخصًا لديه ما يتمتع به "بيجان" من قدرة على القتال. كان "بيجان" سعيداً بمجاملة صديقه وسامحه على ضعفه وتخاذله، ولم يكن يعلم ما يكنه "جورجين" في نفسه من حسد وحقد، ذلك لأن أصحاب القلوب النقية لايمكنهم إدراك الدوافع الوضيعة التي قد تحرك البعض.

وما إن انتهت المعركة حتى هرول أهل القرية ليروا الأحداث ويعبروا لبيجان عن امتنانهم له. باركوه واحتفوا به وأقاموا حفلاً كبيراً للاحتفال بنصره. أكلوا وشربوا واستراح "بيجان" فترة من الوقت ليستعيد نشاطه وقوته ويواصل السير في رحلة العوده إلى بلاده.

كان "جورجين" الآن يدبر مؤامرة: إذ أخبر "بيجان" أنه على بوابة بالمنطقة غير بعيدة عن حدود "توران" حيث بقعة جميلة تملؤها المراعى والحدائق التى تظللها الأشجار ذات الطيور المغردة. تذهب ابنة "أفراسياب" إلى هذه البقعة مرة كل عام هرباً من قيود البلاط وتقضى بضعة أيام حيث تستحم فى العيون وترقص وتغني وتعزف الموسيقى تماماً مثل حوريات الجنة. واقترح أن يكافئ"بيجان" على انتصاره بأن يدعوه للذهاب إلى هذه البقعة ليشاهد فتيات "توران" الجميلات.

فتن "بيجان"بهذا الوصف ورحل فى الحال حيث واصل السير لمدة يومين دون توقف إلا لكى يتناول الطعام والنوم، حتى وصلا فى النهاية إلى قمة الجبل على حدود "توران". ورأيا فى الأفق وادياً تكسوه الخضرة والحشائش والزهور البرية. ملأت رائحة المسك المكان وصوت خرير المياه وشدو طيور العندليب وانهمار المياه الرقراقة من العيون. نصب الخيام خارج الغابة بينما ظهرت قافلة من الغيد الحسان بملابسهن الفاخرة مثل الفراشات المحلقات بأرجاء المراعى. بدت بينهن "مانيجا"هيفاء القوام تماماً مثلما يبدوالبدر فى سماء ملؤها نجوم.

أسر "بيجان" جمالها الخلاب وتمنى لواقترب واستطاع أن يراها بوضوح. شجعه "جورجين" على ذلك بدلاً من أن يحذره من خطورة الإقدام على هذا الفعل وهو بأرض الأعداء. قال جورجين: "اذهب واستمتع بوقتك فأنت تستحق ذلك". ولكن كان لزاماً عليه في بادئ الأمر أن يعد نفسه بالاستحمام في المياه الجارية، وارتدى أبهى حلله ووضع عمامته المرصعة بماسة قيمة وامتطى جواده واتجه إلى المعسكر. ربط جواده في جذع شجرة وجلس يستظل بشجرة كثيفة الأغصان في موضع يتيح له رؤية جميع الفتيات بأسرهن عن كثب.

والآن خرجت مانيجا من خيمتها ورأته. وما إن وقعت عيناها عليه حتى أصابها الذهول لما كان يتمتع به من وسامة، وتعجبت من يكون وكيف وصل إلى هذا المكان. هل هذا بشر أم ملاك؟ ذلك لأنه يختلف عن أى رجل قد رأته من قبل. فإن ملابسه وهيئته توحى أنه أمير أوبطل. أرسلت وصيفتها تستطلع الأمر وتعرف من يكون ذلك الرجل الغريب الوسيم ومن أين أتى، وما إذا كان بشراً أم جنيا من نسل "باريس". وطلبت منها أن تدعوه إلى المعسكر الذى يقمن به.

ونزولاً على رغبة سيدتها قامت الوصيفة بتوصيل الرساله ورد عليها "بيجان" قائلاً:"لست ملاكًا أو بطلاً أومن جنس الجان بل إنى من أهل فارس الأحرار"، وقبل دعوة "مانيجا" وتتبع الوصيفة.

تقدمت "مانيجا" نحوه وحيته بأذرع مفتوحة وقالت: "أنا "مانيجا" ابنة أفراسياب، من أنت؟ لقد جئت إلى هذه البقعة لأعوام متتالية ولم أر قط من هو مثلك."

قدم لها "بيجان" نفسه وقامت هى برفع السيف الذى بحزام المحارب عن كاهله، وأمسكت يده وقادته إلى داخل الخيمة. جلس بجوارها وقص عليها قصته وكيف قام الملك "كاى خوسرو" بإرساله وكيف أنه بمفرده استطاع أن ينجز هذه المهمة ويقضى على الوحوش والخنازير كلها وأنه الآن بصدد القيام بجولة فى هذا المكان.

أمرت "مانيجا" بإقامة حفل ضخم على شرفه واستمر الحفل ثلاثة أيام وليال، وكان الحفل عامراً بالموسيقى والرقص والخمر ومر الوقت كأن الغد لن يأتى.

لكن وا أسفاه فقد انقضت كل هذه الاحتفالات وجاء موعد رحيل "بيجان" إلى فارس ورحيل "مانيجا" إلى مدينتها. لكن "مانيجا" وقعت فى غرامه ولم تستطع أن تنساه أو تتحمل مجرد التفكير فى مفارقته. استدعت عطاراً وأوصته بإعداد مستحضر قوى للتنويم وقامت بوضع السائل سراً فى كأس "بيجان". وما إن تناول "بيجان" كأسه حتى استسلم للنوم لتقوم مانيجا بلف جسده فى ملاءة حريرية وتنقله خلسة إلى القصر. وجلست بجواره تتأمل قسمات وجهه البريئة بينما ينبض قلبها بحبه حتى أفاق من سباته.

عندما لاحظ "بيجان" المكان حوله وأدرك ما حدث من "جورجين" الذى استدرجه إلى ذلك الشرك، فبدلاً من أن يكون رفيق دربه ودليله فى الطريق أوقع به وضلله فى الطريق، وأنه هو نفسه لن يعود إلى بلاده أبداً سالماً.

هَدّأت "مانيجا" من روعه وأخبرته أنه يجب أن ينتبه إلى ما آلت إليه الأمور، وأنه يجب ألا يساوره القلق على الإطلاق وإذا علم أبوها بأمرهما ستفديه هى بروحها وأضافت قائلة :"دعنا نستمتع بالحياة ونحس بالسعادة." وبالفعل ستعمل قدر طاقتها لتكون دائمًا حياتهما معًا فرحًا وسرورًا.

وفى أحد الأيام بينما كان "بيجان" يجوب الحديقه رآه أحد الحراس ووشى به لدى "أفراسياب" حيث أخبر الملك أن ابنته عشيقة لرجل فارسى وتعيش معه فى قصرها. ذهل"أفراسياب" ولم يصدق أن ابنته المحبة يمكن أن تقدم على مثل هذه الفعلة المشينة وأرسل وزيره ليتأكد من صحة الرواية.

وصل الوزير إلى قصر "مانيجا" بصحبته مائة من الحرس المسلحين ووجد القصر مليئا الأضواء وحافلا بالموسيقى والضحك كما لوكان هناك احتفال عظيم بالداخل. سار مع هذه الأصوات حتى وصل إلى قاعة الولائم وهنا وجد "مانيجا" تجلس وتحيطها الفتيات والسقاية والراقصات وشاب خلاب - "بيجان". وهنا تقدم الوزير وأمر جنوده بالقبض على هذا الشاب وتجاهل كل توسلات مانيجا لإثنائه عن القيام بالقبض عليه، لكنه ألقى القبض عليه وسار بهذا الأسير إلى "أفراسياب".

استشاط "أفراسياب" غضبًا وأراد أن يقتل الشاب، ولكن "بيجان" توسل إليه ليسمع قصته. أخبره بكل شىء وبصراعه مع الوحوش البرية

وذهابه إلى بستان العندليب حيث قابل "مانيجا". وأضاف أن "مانيجا" إنسانة تتحلى بالبراءة وطهارة القلب وأنها لم تفعل شيئًا تستحق عليه اللوم بل هوالذى يجب أن يُوَجه إليه اللوم.

استمع إليه "أفراسياب" حتى انتهى من حديثه، لكنه ظل غاضبًا وأصدر حكمًا على "بيجان" بالإعدام وألقى به فى غياهب السجن. ونصبت المشانق للاقتصاص منه. ومكث "بيجان" فى زنزانته المظلمة يرثى لحاله وينعى حظه وشبابه الذى أهدره بلاجدوى والعار والأسى الذى سوف يجلبه لأبيه "جيف" ولجده "رستم" ولعن "جورجين" الذى خانه وسأل الله أن ينقذ حياته وشرفه.

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائه، فبينما نصبت المشانق فى ميدان عام واحتشد العامة لمشاهدة إعدام"بيجان" تصادف مرور "بيران" أحد أشهر محاربى "أفراسياب" القدامى.

سأل "بيران" عمن الذى سيقومون بإعدامه وأخبروه بأمر "بيجان" وجريمته. وكان "بيران" قد شاهد جسارة "بيجان" فى ميدان المعركة فتعرف عليه، وسأل الجلاد تأجيل حكم الإعدام لبعض الوقت فقال: "توقف! انتظر حتى أتيك بتأكيد لهذا الأمر من قبل الملك "..... ووافق العشماوى فى التو وذلك بفضل ما كان يتمتع المحاربون القدامى به من احترام وتقدير.

هرول "بيران" فى التو إلى قصر "أفراسياب" وبخلاف ما جرى عليه العرف لم ينتظر واندفع إلى مجلس الملك وأخبره أنه كان بصدد ارتكاب خطأ لا يمكن إصلاحه.

قال "بيران" لأفراسياب : "هل تعلم من ذلك الشاب؟ إنه ابن بانو جوشاسب وجيف وحفيد رستم الأعظم. إذا قمت بإعدامه سيشن الفرس علينا حربًا ضروسًا انتقامًا منا ولن يتبقى لدينا جيش أو بلد. إذا كان لزامًا عليك أن تعاقبه عليك بسجنه."

وافق "أفراسياب" بعد تردد أن يعمل بنصيحة"بيران". أمر أن يكبل "بيجان" من الرأس إلى القدم بسلاسل حديدية ثقيلة ويلقى به فى غياهب بئر عميقة جافة فى البادية خارج المدينة ثم يغطى البئر بصخرة ضخمة وأن يظل قابعًا هناك وحده حتى الموت.

عندما علمت مانيجا بالحكم الصادر على "بيجان" وما سيؤول إليه حاله تملكها اليأس وجعلت تبكى وتنتحب. ثم أرسل "أفراسياب" وزيره إلى ابنته ليجردها من تاجها ومن ممتلكاتها ويطردها خارج المدينة.

امتثل الوزير إلى أوامر الملك ووجدت مانيجا نفسها وحيدة ومنبوذة فى الصحراء بجوار البئر التى سجن بها "بيجان". لم تستطع إزاحة الصخرة الضخمة، ولكنها وجدت فتحه فى أحد جوانب البئر تمكنت من توسيعها بالقدر الذى يعينها على التواصل مع حبيبها. تبادلا أطراف الحديث ليواسيا بعضهما الآخر، وانطلقت "مانيجا" تتسول لتحضر ما يقيم أودها هى وحبيبها بينما انتظر الاثنان الخلاص على يد العناية الإلهية.

والآن لنعد إلى فارس حيث "جورجين" الذى انتظر طيلة الأسبوع "بيجان" ليعود من خلوته مع مانيجا وقد ساوره القلق. وفى نهاية الأمر أدرك أن مؤامرته قد نجحت وأن "بيجان" لن يخرج أبدًا من توران حيًا.

وعندما تدبر الأمر شعر بالخزى وأنه خائن وسيطر عليه الشعور بالقلق فقال : "ياإلهى ما هذا الذى فعلته؟"وكادت الحسرة تطيح بقلبه ثم أخذ جواد "بيجان" من المرعى حيث عثر عليه وامتطاه عائداً إلى العاصمة وتوجه فى الحال إلى بيته لينبئ أباه جيف أنه ربما ضل"بيجان" طريقه.

وما إن رأى "جيف""جورجين" عائداً وجواد"بيجان" بلا قائد حتى اعتصر الهلع فؤاده. وصرخ حسرة على فلذة كبده صرخة كفيلة بأن تشق الحجر وجعل يندب ويقول :"لقد وهبنى الله ابنًا واحداً فقط أحبه أكثر من نفسى وهو أكثر المحاربين نبلاً وجسارة، حفيد رستم الأعظم. هل أصابه سوء؟ أخبرنى ما حقيقة الأمر؟!"

قص عليه "جورجين" نبأ الرحلة إلى الغابة بالقرب من حدود توران وكيف أنهما حاربا مثل الأسود لمكافحة قطعان الخنازير البرية حتى ذبحاها جميعًا وخلصا البلاد من خطرها. وإثر عودتهما مرا بواد أخضر عندما اعترضها حيوان ضخم له جمال الطاووس وسرعة الفهد ثم واصل "جورجين" سرد القصة : "أراد "بيجان" صيده مهما كان المقابل. ثم ألقى برمحه ليصطاد هذا الحيوان الضخم لكن الحيوان انقض عليه وسحب جسده على الأرض مثيراً هالة من التراب حجبت الرؤية، ثم اختفى الاثنان معًا.هرولت على إثرهما وبحثت فى كل مكان بالوادى والبيداء التى تحيط الوادى ولكن لم أجد أثرًا لأى من الصياد وفريسته، حتى وجدت ذلك الحصان وبعد أن انتظرت عدة أيام دون جدوى عدت إلى المدينة."

كان "جورجين" شاحب الوجه مرهقًا، ملأت الحسرة والخوف فؤاده، بينما كان الأب المكلوم غاضبًا منه لأنه فشل فى حماية ابنه حتى راودته فكرة قتله من آن لآخر، ولكنه بالكاد استطاع أن يكبح جماح نفسه والرغبة فى الانتقام التى سيطرت عليه بل اصطحبه إلى الملك "كاى خوسرو" ليقرر مصيره.

عندما سمع الملك القصة تأثر كثيرًا لما يعانيه "جيف" من شعور بالحسرة إبان فقدان ابنه الوحيد. إلا أنه هو الآخر ساورته الشكوك إزاء موقف "جورجين". هدأ الأب المكلوم قائلاً : إن ابنه مازال حتمًا على قيد الحياة وقد يكون ضل طريقه أثناء مطاردته لأحد الوحوش البرية ودخل حدود "توران" ووقع أسيرًا هناك ثم وعد الملك بأنه سوف يحشد أكبر جيش عرفه التاريخ ويشن حربًا ضروسًا على توران ليحرر "بيجان". اطمأن "جيف" بعض الشيء وشكر الملك على تعاطفه.

أما الملك "كاى خوسرو" فقد كان بحوزته قارورة يطلق عليها جام - إى - جيتى - ناما وهى قارورة تعكس العالم بأسره، غربًا وشرقًا، من الصين حتى بيزنطة. طلب الملك إحضار هذه القارورة وأمعن النظر بها حتى يتسنى له معرفة أين يوجد "بيجان"، وما إن نظر فى جميع أنحاء العالم حتى وقعت عيناه على"توران" وهناك وجد "بيجان" مكبلاً بالأغلال فى بئر عميقة مظلمة.

طمأن "جيف" على ابنه الذى مازال على قيد الحياة على الرغم من أن "أفراسياب" قد أسره، وتنفس "جيف" الصعداء وحمد الله على رحمته

التى وسعت كل شئ. ولكن هل سيتمكنون من إنقاذ "بيجان"؟ فلا يمكن أن ينجو "بيجان" إذا ظل على هذه الحال بينما تحف المخاطر أى عملية لإنقاذ حياته. وبعد العديد من المداولات توصلوا إلى حل واحد هو أنه ليس باستطاعة أى شخص الاضطلاع بهذه المهمة سوى رستم الأعظم نفسه. فهووحده القادر على تخطى أى صعاب أوعقبات قد تعترض طريقه إبان إتمام هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر، كما فعل ذلك عدة مرات فيما مضى. لذا أرسل الملك خطابًا إلى رستم أوضح فيه وضع "بيجان" وسأله العون وطلب من جيف أن يسلمه هذه الرسالة.

ساروا فى الطريق ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى البلاط الملكى. استقبلهم فى الحال الملك استقبالاً حاراً. سر الجميع لرؤية هذا البطل العظيم مرة أخرى وأعدت وليمة كبيرة على شرفه.

عندما علم "جورجين" بزيارة "رستم" إلى الملك تنبأ أن يكون الغرض من الزيارة هو وضع خطة لإنقاذ "بيجان". شعر لأول مرة منذ أن لحق به العار بوميض ألامل يعتلج بوجدانه. أرسل جورجين رسالة إلى رستم يعرب عن ندمه الشديد لما بدر منه من سلوك يتسم بالجبن والخيانة وأعرب عن رغبته فى أن يضحى بحياته تكفيراً عن الإثم الذى ارتكبه متوسلاً إليه أن يتوسط له لدى الملك.

وجاء رد "رستم" باقتضاب أنه إذا سمح إنسان للعواطف أن تحكمه وتتغلب عليه فإنه يهدر شرفه وكرامته، وحتى إذا عفا الملك عن "جورجين" فلن يسامحه "جيف" إلا إذا أنقذ ابنه من محنته. إلا أن "رستم"

بما يتحلى به من نبل الأبطال توسط لدى "كاى خوسرو" ليعفو عن "جورجين"، وأصر الملك أن يظل "جورجين" سجينًا، طالما أن "بيجان" لايزال سجينًا مكبلاً. ولكن "رستم" توسل بدوره إلى الملك نيابة عن "جورجين" ليعفو عنه متعللاً بأن "جورجين" على دراية بهذه المنطقة وسيكون عونًا لهم فى سبيل إنقاذ "بيجان". وفى نهاية الأمر اقتنع الملك بإطلاق سراح "جورجين".

قال "رستم" بعد الكثير من التفكير والتدبر إن الحرب لا تعد الخيار الأمثل، فقد لا يتورع "أفراسياب" عن قتل "بيجان" وهنا تصبح الخديعة هى الحل الأفضل، ووضع الخطة حيث سيتنكر هو فى زى تاجر مسن وسيلعب الجنود دور الرفاق والخدم وسيصحبون قافلة يصلون إلى "توران،" وما إن يجد "بيجان" ويفك أسره سيشنون هجومًا على "أفراسياب" على حين غرة ليلاً ويدمرون جيشه.

وافق الملك على خطة رستم وصرح له بأنه يمكنه أن يأخذ أى شىء من خزائنه ليشترى بضاعة تحملها القافلة المزعومة. وحُملت عشرة جمال بالذهب ومائة أخرى بجميع أنواع البضائع - الأحجار الكريمة والمجوهرات والملابس والعباءات الفاخرة والتوابل والعطارة وبدأت القافلة رحلتها على أصوات الأجراس والنواقيس.

وبعد مسيرة عدة أيام وصلت القافلة إلى مدينة "خاتان" فى"توران"، وكان "بيران" هو حاكم هذه المدينة، ذلك الرجل المسن الحكيم الذى أقنع

"أفراسياب" بعدم قتل "بيجان". فى هذه الأيام لم يكن هناك صور فوتوغرافية، وكانت قد مرت سنوات عدة منذ التقى الرجلان فى ساحة القتال، والآن وقد بلغا المشيب لم يتعرف "بيران" على عدوه المشهور. لكن بدت هيئة "رستم" كهيئة رجل نبيل له مكانته الرفيعة. وبعد أن حيا كل منهما الآخر عرض "بيران" استضافة "رستم"، إلا أن الآخر قد فضل أن يكون مستقلاً فى إقامته. وسرعان ما ذاعت الأنباء فى المدينة أن تاجراً قد قدم من فارس يعرض بضائع رائعة وتدافع الناس ليشتروا البضائع منه.

سنعود الآن إلى مانيجا و"بيجان": كان "بيجان" يطلب الطعام ثم تحضره له مانيجا وتقوم بإلقائه إليه لتنقذه من الموت المحقق.وعندما سمعت بنبأ وصول التاجر من فارس خفق قلبها بالأمل. وهرولت إلى معسكر "رستم" حافية القدمين بملابسهاالرثة وأزاحت من طريقها الخدم والحرس واتجهت مباشرة إلى حيث يقيم وقدمت له نفسها قائلة : "أنا مانيجا ابنة أفراسياب لقد كنت أميرة أضاهى فى مجدى الشمس، ولأننى وقعت فى غرام شاب فارسى تم تجريدى من تاجى وسلطانى، وها أنا كما ترانى فى ملابس رثة بالية ووجهى الشاحب الذى تغرقه الدموع هذا بعد أن كان مشرقًا منيراً. لكن من كان أتعس الآن منى هو "بيجان" حبيبى الذى يقبع الآن فى قاع بئر سحيقة مظلمة مكبلاً بالأغلال بالطبع أنت تعرف أباه "جيف" وجده "رستم" فى بلاط الملك "كاى خوسرو". اذهب وأخبرهما بنبأ "بيجان" واطلب منهما أن يأتيا لإنقاذه."

أنكر "رستم" فى بادئ الأمر معرفته أى شيء عن "جيف" أو "رستم" متعللاً بأنه مجرد تاجر جاء للتجارة والربح ولا يعرف الملك أو رجاله، لكنه عندما رأى دموع "مانيجا" وحزنها تأثر بإخلاصها وجسارتها ورق لها وأمر بإحضار بعض الطعام، وأدخل سراً فى باطن دجاجة مشوية خاتمه ولف الدجاجة فى قرص خبز مسطح وبداخلها الخاتم وأعطاها لمانيجا لتاخذها إلى حبيبها واعداً إياها أنه سوف يفعل ما بوسعه لإنقاذ "بيجان".

ذهبت "مانيجا" إلى البئر وأنزلت الدجاجة إلى "بيجان" وأخبرته بنبأ القافلة الفارسية. وما إن كشف السجين الجائع عن الدجاجة ورأى خاتم جده حتى صاح فرحًا وقال هذا الخاتم هو سبيله إلى النجاة وأسَر إلى "مانيجا" أن التاجر الذى قابلته هوجده رستم بعينه، وأنه أتى لغرض واحد هو إنقاذه، وقال لها: "اذهبى إليه وأنبئيه أننى قد تعرفت على خاتمه وأنى أعلم جيداً أن محنتى ستنتهى فى القريب العاجل."

ثم وجه وجهه شطر السماء وشكر الخالق على رحمته بحاله، بينما عادت مانيجا إلى رستم لتخطره برسالة "بيجان". وطلب رستم من مانيجا أن تجمع بعض الأحطاب وتوقد النيران ليلاً بالقرب من البئر حتى يتسنى له هو وجماعته العثور على البئر المأسورة به "بيجان" ووافقت مانجيا.

وعند غروب الشمس جمعت مانيجا كومة من الأحطاب وأشعلت بها النيران. عندما اشتدت حلكة الليل كانت هذه النيران بمثابة معلم يرشد رستم إلى مكان البئر حيث يمكث حفيده مكبلاً بالأغلال.

ارتدى رستم درعه وبصحبة عدد قليل من أفضل رجاله وذهب إلى البئر. وحاول الرجال إزالة الصخرة ولكن هذه المهمة كانت في عداد المستحيل، لكن رستم استطاع أن يؤدي هذه المهمة بذراع واحد وتخللت بارقة ضوء البئر المظلم وهنا صاح "بيجان" متنفسا الصعداء ومردداً اسم البطل.

خاطبه رستم في بادئ الأمر بكلمات تبعث الراحة في نفسه وأضاف: "قبل أن أرفعك من هذه البئر لدى فقط مطلب واحد وهو أن تسامح "جورجين".

وكان هذا المطلب بمثابة خنجر طعن به "بيجان" في قلبه فرد قائلاً: "لقد كان "جورجين" سبباً في كل ما لحق بي من أذى لقد تركني أنزلق في فخ تسبب في كل محنتي... كيف يمكنني بعد كل ذلك أن أسامحه؟"

لكن "رستم" أصر متعللاً بأن الأبطال من شيمهم أن يتسامحوا ويعفوا عن أعدائهم. وبوجه عام فإن "جورجين" تكبد ثمناً باهظاً نظراً لوقوعه في هذا الخطأ و"هو على أتم استعداد أن يستبدل نفسه مكانك في هذا الموضع."

وأخيراً عفا "بيجان" عن صديقه وسامحه. ثم ألقى رستم بحبل في البئر والتقطه السجين ليتم رفعه. ياالهول المشهد! فالشاب الوسيم الذي كان شاهقاً كشجرة بلوط هو الآن رجل عجوز من أهل الكهوف تغطى جسده الجروح المتفرقة وشعره أشعث تماما كالحيوانات وتشقق جلده

ويكسوه الماء والطين وخبا بريق عينيه وأصبح بالكاد يرى. عانقه "رستم" وهدأ من روعه وحمله عائداً به إلى معسكره. اغتسل "بيجان" وغطى جروحه بالبلسم وارتدى ملابس فاخرة. واغتسلت "مانيجا" هى الأخرى وارتدت ملابسها وظهر جمالها مرة أخرى.

توجه "رستم" إلى قصر "أفراسياب" ووبخه على ما فعل مع "بيجان". استدعى "أفراسياب" جيشه وقبل طلوع الفجر دارت رحى المعركة واحتدم القتال بين العدوين حتى خسر "أفراسياب" المعركة بينما عاد "رستم" إلى وطنه منتصراً.

رحب الملك "كاى خوسرو" برستم واستقبله استقبال الأبطال - علقت المصابيح بجميع أنحاء المدينة واحتفل أهل البلاد بهذا النصر. ارتدى "رستم" درعه الملكى وخوذته وحضر الحفل الجميع فى البلاط الملكى، واستدعى الملك "كاى خوسرو" "بيجان" وطلب منه أن يقص عليهم نبأ رحلته. استمع الجميع إلى قصص أسفاره ومغامراته وملأت أعينهم الدهشة وحمدوا الله الذى لولا فضله لأصبحت كل مجهودات البشر هباء. وعاش الجميع فى سعادة منذ ذلك الحين.

والآن انتهت قصتنا ولابد أن أستريح قبل أن يكون الطائر الصغير قد وصل إلى عشه.

هوامش الكتاب

تمهيد

(١) الإمام على هو زوج ابنة النبى محمد (ﷺ) كما أنه أول أئمة الشيعة وإمام الصوفيين والصوفية بكل شيعها.

(٢) أولى آيات القرآن: "بسم الله الرحمن الرحيم".

(٣) فى قصيدة ماثيو آرنولد "سوهراب ورستم" يضفى الشاعر حسًا بلاغيًا على قصة الفردوسى بالإنجليزية.

(٤) برونو بيتلهيم، استخدامات السحر.

(٥) سيجموند فرويد، مجموعة أعمال، المجلد ١٢: الظهور فى أحلام قصص الخيال.

(٦) كارل جانج، مجموعة أعمال، المجلد ٩: النماذج الأصلية واللاوعى الجمعى - ظاهرة الروح فى القصص الخيالية:

Archetypes and Collective Unconcious-The Phenomenology of the Spirit in the Fairy Tales.

(٧) للحصول على مجموعة "الشاهناماه" القصصية كاملة راجع ترجمة ديك دافيز الرائعة بمجلداتها الثلاثة النثرية: الناشر/ أ. ب. توريس.

الباديشاه وبناته الثلاث

(١) الكوثر هو نهر فى الجنة ذكره الله فى القرآن الكريم.

اللص والعروس الماكرة

(١) شهر رمضان، شهر الصوم عند المسلمين.

(٢) راجع الملحوظة (١) أعلاه في الجزئية الخاصة بقصة "الباديشاه وبناته الثلاث".

الجمجمة الناطقة

(١) تصنع حلوى "البيلو" من الأرز مع التوت والفستق واللوز المدقوق وقشر البرتقال وتبدوا بألوانها المتباينة كقطعة من الماس.

الإناء السحرى وقطعة من ذيل الضأن

(١) سلالة من الخراف الفارسية لها ذيل مستدير من الدهن الخالص يفضلها الجميع لما تضفيه على العصيدة والطعام من مذاق طيب وشهى.

سر الضحكة

(١) اعتاد الناس أن يطلقوا على قصر الشاهنشاه - "صائد الرياح" - باد - غير - بينما المكان الكائن بالجزء الأسفل منه تتوسطه نافورة تجلس حولها الأسرة فى الصيف لتستنشق الهواء العليل.

الملك والنبى خضر

(١) إنه الوعاء الذى صمم ليأخذ شكل المركب ويتم صنعه من الفضة أو النحاس ويده تأخذ شكل حلقة.

(٢) قصيدة للسعدى الشاعر الذى عاش فى القرن الثالث عشر.

الحماة القاسية

(١) صينية كبيرة توضع وتصطف عليها الصحون والطعام. فتناول الطعام على مائدة يعد عادة مستجلبة من الغرب.

(٢) التعبير الفارسى "كالع - خوشك" الذى يشير إلى التأثير السلبى الذى يلحق بالعقل نتيجة للهرم والشيخوخة.

الرجل الذى خفت بريق حظه

(١) ما يعادل مقولة "لقد خبا حظى."

كنت أعرف ذلك مسبقاً

(١) عصيدة دسمة تؤكل مع الخبز.
(٢) عصيدة تصنع من لحم الضأن أو الدجاج وعصير الرمان والجوز.

الوزير الطيب والكبر

(١) السلطان محمود سلطان غزنة من السلالة الغزناوية ومؤسس الأسرة فى القرن الثانى عشر وقد جاء من وسط أسيا ولغته الأم هى اللغة التركية لذا لقب بسلطان وهى ترجمة ملك باللغة التركية، وقد نسبت إليه عدة قصص وأساطير وهذه واحدة منها.
(٢) رداء راع مصنوع من الجوخ.
(٣) تبادل إيماءات تدل على الكثير من الود والاحترام.
(٤) ما يعادل "تحول حظه عنه".

الشاب الطيب والمرأة الملائكية

(١) بارى هى إما ملاك أو جنية.

تاجر الأحطاب وعصفور الجنة

(١) ماشطى هو اختصار لكلمة "مشهدى" وهو لقب يمنح لمن يؤدى فريضة الحج إلى "مشهد" حيث ضريح الإمام رضا وهو الإمام الثامن من أئمة الشيعة.

السلطان محمود وعصابة اللصوص

(١) راجع الملحوظة (١) على قصة "الوزير الطيب والكبر".
(٢) "ليلى والمجنون" هى قصة محبوبين شهيرة تناولها الشعراء كثيراً فى قصائدهم.

المؤلفة فى سطور :

شوشا جوبى

ولدت جوبى ونشأت فى إيران. سافرت إلى باريس عندما كانت فى السابعة عشرة من عمرها للدراسة بجامعة السربون، ثم انتقلت إلى لندن فى أوائل الستينيات من القرن الماضى. وفى البداية قام ناشر بلندن، وهو مؤسس جريدة باريس التى أسهمت فى الأعمال المشهورة لكل من جانبى الأطلنطى، وكمذيعة أسهمت فى البرامج الثقافية فى هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) فضلا عن أنها مؤلفة روايتى الحصان الأعمى وفتاة فى باريس، وقد طبعت كلتاهما من قبل دار نشر توريس بارك بيبرباك حيث حاز كلا العملين على عدة جوائز ويعدان من التراث الكلاسيكى.

المترجمة فى سطور :

أميرة حسنى الجمال

مصرية حاصلة على ليسانس ألسن قسم اللغة الإنجليزية - جامعة عين شمس. عملت بالترجمة والتعريب بأحد أكبر مشروعات برمجيات تكنولوجيا الاتصالات الصادرة عن شركة لوسنت الأمريكية. ثم تولت العمل كموثقة برمجيات بإحدى أكبر شركات البرمجيات فى العالم العربى، حيث كانت قائمة على تأليف إصدارات الشركة باللغة الإنجليزية المتعلقة بملفات المساعدة وأدلة المستخدم ومواد التدريب الخاصة بالبرمجيات التى تصدرها الشركة، ثم عملت بنفس المنشأة فى منصب مراقبة جودة على قسمى التوثيق والترجمة. وأشرفت على برنامج تدريبى للعاملين بالشركة على كيفية التواصل على المستوى الشفوى والمكتوب باللغة الإنجليزية، فيما يتعلق بأغراض العمل فضلاً عن تدريب جيل جديد من المترجمين والموثقين بالشركة. بالإضافة إلى ما سبق فهى مدونة نشطة فى عدد من مجموعات ومدونات شبكات التواصل الاجتماعى فيما يتعلق بالأدب بشقيه القصة القصيرة والنثر، وإلى جانب ذلك النقد الأدبى والاجتماعى.

المراجعة فى سطور :

فردوس عبد الحميد البهنساوى

- ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- ماجستير فى الأدب الأمريكى (جامعة أريزونا/ وأسيوط).
- دكتوراه فى الأدب الإنجليزى (الأدب المسرحى).
- شغلت منصب رئيسة قسم اللغة الإنجليزية، ثم عميدة كلية الآداب بأسيوط من (١٩٨٠-١٩٩٩).
- شهادات أخرى: فى اللغويات (معهد اللغويات التطبيقية بأدنبرة) وفى تعليم الإنجليزية للأغراض الخاصة (بليموث).
- عضو اللجنة القومية المركزية للغة الإنجليزية للأغراض الخاصة ESP.
- عضو مجلس إدارة جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية.
- عضو مجلس إدارة مركز تطوير تدريس اللغة الإنجليزية CDELT - جامعة عين شمس.
- أسست إدارت مركز اللغة الإنجليزية ووحدة معامل اللغة ومركز الترجمة والبحوث اللغوية بجامعة أسيوط ووضعت لائحتها الإدارية.

- عضو مجلس إدارة مركز دراسات المستقبل جامعة أسيوط.
- لها مؤلفات بالإنجليزية والعربية فى الأدب المقارن - أدب المسرح - النقد الأدبى - علم الأسلوبية - علم تحليل الكلام - وأعمال وبحوث فى الترجمة.

التصحيح اللغوى: خـــالد العنــانى
الإشــراف الفنــى: محسن مصطفى